علم نفس

إيريش فروم

الحب أصل الحياة

ترجمة
ناصر ناصر

دار الحوار

الحب أصل الحياة

الكتاب: الحب أصل الحياة
تأليف: إيريش فروم
ترجمة: ناصر ناصر
الطبعة الثانية: 2022
تصميم غلاف: لمى عبود
حقوق الطبع محفوظة© دار الحوار للنشر والتوزيع
هذه هي الترجمة العربية للنص الألماني:

Über die Liebe zum Leben
Rundfunksendungen
Herausgegeben von Hans Jürgen Schultz
Deutscher Taschenbuch Verlag
BY: Erich Fromm
ISBN:978-9933-477 -58-5

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

حقوق الطبعة العربية محفوظة لدار الحوار للنشر والتوزيع

يمنع نسخ أو تصوير هذا الكتاب أو أجزاء منه بأي وسيلة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو تصوير ضوئي أو تسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى دون أذن خطي مسبق من دار الحوار للنشر والتوزيع.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the written permission of Dar Al Hiwar Publishing Company.

دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com
ص. ب 1018 اللاذقية، سورية
هاتف: 339 2422 41 963+
موبايل: 804 406 938 963+
البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com

إيريش فروم

الحب أصل الحياة

ترجمة: ناصر ناصر

دار الحوار

إيضاحات

1. حول الكتاب:

ثمة أسئلة أساسية تتعلق بحياة **المفكر الألماني إيريش فروم** الإنسانية وتفكيره الخاص، كافح حتى الموت في البحث عن أجوبة عليها. هذا الكتاب يجمع بين دفتيه محاضرات ومناقشات كان قد بثّها الراديو الألماني (س د ر) خلال السبعينات من القرن العشرين، مقدماً أفكار الكاتب في إطارٍ معبرٍ.

بعض من أسئلته: ما هو منبع العدوانية؟ وما هي أسباب ودواعي الحروب؟ الحروب النفسية والسياسية؟ يسأل المرء عن الفائض المادي والنفسي، وما هو الإهمال والخمول في مجتمعنا، ثم يوضّح دروس علم النفس لمن لا يعرف الكثير عن هذا العلم.

من المكونات الأساسية لهذا الكتاب مقابلةٌ بين المؤلف وبين مقدم الكتاب هانز يورغن شولتس، جرت بينهما كحوار مفتوح، دون عنوان، دون هدف ودون تحضير، فقط محبة بالجدال والمناقشة. إن هذا الفن: تقنية الجدل هذه، يعتبرها المفكر فروم بأنها ممكنة بعد تجاوز المرحلة المادية للحياة، أو الحياة من أجل المادة. من خلال هذا الشرح ومن منتجات هذا العلم يتعرف القارئ على تفكير هذا العالم، وهذه خصوصية هذا الكتاب، بواقعيته، وقوة التعبير فيه، دلالة على الحب العميق الذي كان يكنّه هذا المفكر للإنسانية جمعاء.

2. حول الكاتب:

هو محلل نفسي وفيلسوف اجتماعي، ولد عام (1900) في فرانكفورت في ألمانيا، وبعد إنهاء دراسته في جامعة هايدلبرغ (1922) كان على صلة مع العالم النفسي الكبير فرويد. وهكذا أصبح عالماً نفسياً. في فترة (1930) وحتى (1939) كان على ملاك مدرسة فرانكفورت قرب مدينة هودكهايمر، عام (1933) التجأ إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث درّس في معاهد متعددة. ومن (1950) وحتى (1974) عاش في المكسيك، توفي (1980) في مدينة لوكارنو في سويسرا.

3. حول النّاشر:

هو هانز يورغن شولتس، ولد (1928)، ومن (1975) وحتى (1991) كان رئيس النشر في قسم شتوتكارين للآداب في مدينة شتوتغارت في جنوب ألمانيا.

وهو الناشر للكتب التالية: على الجهة الأخرى من عبق البخور (1966)، عشّاق الحياة (1975)، جنود الإنسانية (1984)، إضافة إلى أنه جمع ونشر أعمالاً فكرية كبرى.

تواريخ هامة

الطبعة الأولى الكاملة نيسان، 1988 ـ طبعة حديثة 2011 مطبعة كتب الجيب الألمانية ـ ميونيخ ـ ألمانيا.

1983 : المنجزات لكل من : إيريش فروم وهانز يورغن شولتس.

2011 ـ مقدمة : هانز يورغن شولتس.

1983 ـ الرفاه والخمول في مجتمعنا، تقييم: إيريش فروم.

1983 ـ حول مصادر العدوان، تقييم: إيريش فروم.

1972 ـ الحلم هو لغة الإنسان المعاصر العالمية، تقييم إيريش فروم.

1974 ـ علم النفس لغير علماء النفس تقييم: إيريش فروم.

1974 ـ باسم الحياة ـ إيريش فروم وهانز يورغن شولتس.

1974 ـ هتلر: من كان؟ وماذا يعني الكفاح ضد هذا الإنسان؟ إيريش فروم وهانز يورغن شولتس.

1975 ـ حقيقة رسالات الأنبياء ـ إيريش فروم.

1983 ـ من هو الإنسان؟ إيريش فروم.

مقدمة

بقلم هانز يزرغن شولتس الإنسان أكثر مما هو مقابلة
مع إيريش فروم:

تعود هذه النّصوص الإذاعية مع إيريش فروم إلى السّنوات الأخيرة من حياته. لم يكن لدى فروم فراغ طول حياته... كان يقرأ، يكتب، يخطّط، يحاضر، كان محبّاً للاطلاع جداً، هكذا كان حتّى آخر حياته. لكنّ إنتاجه الضّخم المؤلّف من اثني عشر مجلّداً تركها وراءه كاملة، وصلت به إلى الذّروة، ومنها كان باستطاعته الوصول إلى ما يصبو إليه لو أنه كان يريد استغلال الظّروف ويحسب الأمور في حينها. إن قيمة المحاضرات المعادة هنا في تقييم جيد ومكثّف لجملة أعماله الكاملة، ليست بالجديد فيها، ولكن أيضاً بصيغة عرضها. وقد كانت المحاضرات والمقابلات تجري في بيت السيد فروم في لوكارنو، أو في مبنى الإذاعة في زرويخ، والرّاغب في الحصول عليها كان باستطاعته أن يستدركها لاحقاً، لأن هذا الرجل العظيم كان يدعو الناس ويستقبلهم في بيته ويلبيّ طلباتهم.

بغضّ النّظر عن الإصدارات الأولى التي طبعت على الآلة الكاتبة اليدويّة في حينها، فإننا نعرف فروم في هذا البلد فقط من خلال التّرجمة، ككاتب من مقاطعة ساكسن في جنوب ألمانيا. لكنّه في هذه النّصوص الإذاعيّة يعود إلى الوطن من خلال اللّغة الألمانية الأمّ... وهي تفعل فعلها المباشر والمميّز، لأنها لغة أصليّة، ليست حديثة النشأة، وبالاستناد إلى ماتياس كلاوديوس فإن اللّغة المكتوبة شبيهة بمزيج الخمور والماء في الكوز... لقد فصّل فروم دوماً الكلمة المحكيّة، لغتنا، أي لغة الخطابة، ومن يعرف فروم يميّزه من نبرة صوته عندما كان يقرأ أو يتكلّم.

قابلت فروم للمرة الأولى عام 1970، ثم بعدها مراراً في شتورشن في زوريخ. والغريب أن هذا الرّجل كان يلعب دور المضيف لمن يقابله، لقد تكلّمنا حول سلسلة المحاضرات التي تدور حول آثار تخمة الرّفاهية في المجتمع، التي سيتكلّم حولها في المقابلات الإذاعيّة. هناك جلس قبالتي وبشكل يلفت الانتباه، لم تظهر عليه علائم الانزعاج من الفوضى التي كانت تعمّ المكان، وقد عرض عليّ ما في جعبته من مواضيع، وعندما انتهى قدّرت أنه عازم على القيام بما فكرت به. لكنّه لم يفعلْ، والآن جاء دوري، طلب ـ معتذراً ـ ولكن بإلحاح وقبل كل شيء معلومات عمّن يحتمل حضورهم... عن أولئك الذين ادّعوا متوهمين علمهم بالأوضاع الألمانيّة. كان يريد بذلك ملامسة فهم الحضور، كان يراقب أحناكهم قبل أفواههم، كطريقة بدائيّة لإفهامهم. لقد استعدّ جدّاً لبرنامجه، فأحضر كميّات كبيرة من الملاحظات والشّروحات والاقتراحات المكتوبة، وكان خلال لقاءاتنا وتبادلنا للأفكار يعدّ لها ويزيد عليها. في صبيحة اليوم التالي ظهر وكأنّه بلا وسائل ومستندات تركيز داعمة. سألته عن حقيبته الخاصّة، هزّ رأسه بسخريّة، وتابعنا السّير إلى مركز الإذاعة.

أخذ مكانه أمام الميكروفون بدون تلكّؤ، وبدأ يتحدث بشكل حرّ ومباشر، واستمرّ على ذلك ستّ جولات كل منها /29/ دقيقة. كان شرطه الوحيد أن أكون شخصيّاً متواجداً أمامه، كان يريد شخصاً قبالته، شخصاً يجعل منه كمن يوجّه إليه الخطاب أو يناظره. كانت سعادتي كبيرة. إن

المناظرة في قاعة الإرسال الإذاعي كانت حرّة ومركّزة، واعتُبرتْ نموذجاً مميّزاً لصالحنا.

في الوقت الذي كان فيه فروم يشرح ويعالج الموضوع، تأكّد لي أنّ شيئاً ما يدور في الخارج خلف الزجاج. وعلى الرغم من أن فروم حتّى حينه لم يكن معروفاً بشكل جيّدٍ، فقد كان هناك في زوريخ، في أرجاء المحطة الإذاعية، حديث حوله، بمعنى أن هناك ما يستحقّ الاستماع إليه. كان العاملون في محطة البثّ من مختلف الاتّجاهات والاختصاصات: الفنيّون، طواقم السّكرتاريا، حرّاس، خدم، رفاق في النّشر والتّحرير... تواجدوا مزدحمين الكتف بالكتف، ضاق بهم المكان، وكلّهم إصغاء للسيد فروم. إنّني شخصيّاً لا أصغي للحوارات الإذاعيّة بتركيز قويٍّ، على الإنسان ألاّ يعطيَها الكثير من الاهتمام إلاّ بالقدر الذي يبقى للسّامع حرية القبول من عدمه. لكن فروم جعل السامعين يخرجون عن هذه القاعدة، فهو يسيطر عليهم من خلال البساطة السّاحرة في التّواصل، وبحيث يتواصل معهم متجاوزاً كل الصعوبات. كيف يحدث ذلك؟ إن فروم يفكّر ويعمل بشكل منطقيٍّ، والشّريك المحاور بالنّسبة له كان المحاور وما يمثّله وما يحمله من أفكار معاكسةٍ، هي بالنّسبة له حقائق. ولكن فروم حسب لكلٍّ منها حسابها في تفكيره، لقد كان متكلّما ومجادلاً فذاً، لأنه كان أيضاً بالمقابل مستمعاً جيّداً.

هكذا كان الأمر في محطّة زوريخ، وفي هذا الوقت بالذّات أصبح جليّاً لديّ أنّ كتب إيريش فروم في أمريكا التي كانت لسنين عديدة في المرتبة الأولى على رأس المبيعات، ستغادر مخبأها وعزلتها عندنا، في انطلاقة

قويّةٍ إلى الملأ، لا رجعة عنها. حتى الآن هناك حوالي اثني عشر كتاباً من مؤلفاته معروضة في الأسواق، وباعتقادي كان على فروم أن يأتي شخصياً لينهيَ هذا السّبات الطويل لمؤلّفاته هنا. إنها حالة غريبة، ولكن يمكن تفسيرها: هنا كان يوجد كتّاب ولكن من نوعيّة متشابهة واحدة تقريباً.

كان صوت فروم وهو يتكلّم هو الجسد النّابض للغته، وأعماله المنّوعة كانت متمايزة مشوقة، حتى لو كانت تعالج مشكلةً واحدة، لما فيها من تمايز في الأجوبة، ولما في إعادة المعالجة من غوص وتجديد، ومن تعاملٍ مختلف ومتجّدد دوماً، ومن تلمّسٍ لنواحٍ جديدة للمتلّقي.

إنني أتذّكر للسيد فروم خطاباً رائعاً مميزاً ألقاه في حفلةٍ بمناسبة عيد ميلاده الـ (75) في لوكارنو حيث قضى فيها السّنين الأخيرة من حياته. كانت القاعة مزدحمة جداً بالمشاركين، شباباً وبالغين، من النّساء والرّجال، ومن مختلف البلدان. ألقى خطابه، وبعد حوالي ساعةٍ من الإلقاء، توجه بالرّجاء لمن تعب من الإصغاء أن يعلن ذلك كي يتوقف هو عن الكلام. لكننا كنا بعد ساعتين ونصف من الإصغاء لخطابه نشطين، كما كان هو... لقد تكلّم وتكلّم، وهو يتحرّك على المنبر ذهاباً وإياباً... كانت حقّاً رحلةً فكريةً سقراطيةً، مجللةً برؤىً اجتماعيّةٍ جميلة عاشها معه الجميع بروح فلسفيّةٍ مميزة. كان فروم، وهو يتكلّم، كلّه يقظةً وانتباهاً... كان ذلك الخطيب المفوّه الذي يشارك مستمعيه مشاعرهم، كان بين الحين والآخر يعود إلى بعض المدونات لمحاضراته أو خطابه، مسوّدات لمحاضراتِه تركها عندي للمراجعة والتّدقيق عند اللّزوم. كانت

الجوهر، وتمثّل رؤوس أقلام المحاضرة، كانت بغاية التّركيز يعود إليها عند الحاجة، لكنّه لم يخرج يوماً عن الموضوع الذي يعالجه، والذي كان مقدراً أن يكون تحليلاً نفسياً. في هذه المحاضرة شخّص فروم الأخطاء الاجتماعية التي قد ترافق أيّة نظريّة، ليس فقط معلّلاً الأسباب، بل كان يعللها ويوضحها بالاستناد إلى العالم فرويد، بحيث شرح أن ما ذهب إليه من العلم يتضمن ثلاثة أشياء رئيسيةً:

* الاستنتاج العلمي الهام بما كشف عنه.
* التّحديد الدقيق الصّائب للمشكلة، من خلال التّنظيم الواضح والإخراج البياني للمضمون.
* أخيراً تطبيق ذلك بما فيه من رفد جديد للسّوية المعرفيّة الحاليّة.

لقد اعتمد فروم العالم فرويد كأحد المرجعيّات العظام في تفسير الأحداث. بالنّسبة لي، كانت محاضرة فروم القمة في ميدان التّحليل النفسيّ، والذي يجب أن يشكّل نظرّية كاملةً متكاملةً. هذا يعني أن تكون لها المرجعيّة الوحيدة في معالجة وتحليل المشاكل، وإيجاد الحلول لها، إنها لا تُغفل، عندما تحدّد بدّقة، وتحيط بالمشكلة، أن تجد الطّريقة المثلى لإزالة الأعراض المرضّية المسبّبة، وبالتّالي الشّفاء والتخلّص منها.

كان الميل الذي تفرّد به إيريش فروم طيلة حياته، هو الرّغبة الصّادقة بأن يكون شهيد الحقيقة، التي قضى حياته متحدّياً في البحث عنها، ومهما كانت صعبةً ومنهكة، حتى لو كانت ضدّ رغباته، إلى أن يحصل عليها. إنّ الإنسان قد يكون أحياناً لعبة القدر الخفيّة. وقد كان فروم

يتجنّب الأضواء ويفضّل العمل والبحث بعيداً عن الأنظار ـ «هو في القمّة لكنّه في حضن الأم». وكان لفروم من الجرأة أنْ يظهر بقوةٍ، وقد خلع عنه كلّ الأقنعة وأزال العوازل، لم يتهرّبْ من منتقديه كما قد يتوهمُ البعض، ويشكّكون، إنّه شخصيّاً يراقب ويحلّل حتّى ذاته... وقد صرّح لي مرّةً: لا تعتقد يوماً أني أتساهل مع نفسي، إنّ كلمة سِفْرَ الرؤيا تعني التجلّي... وهذا ينطبق على فروم تماماً، وهو ما لم يكن بالأمر السّهل.

إن الأساس في كل ما ذكر، هو أن فروم لم يفقد البوصلة، لم يغفل عن ذاته، لا بالتّفاصيل الأساسيّة ولا بالجزئيّات الجانبيّة. ليس المهمّ بالنّسبة له هذا أو ذاك من الأمور، إنما المهمّ هو الحياة، إنّ الأمر يتعلق بمصيرنا الذي دخل في أزمةٍ خانقة، إذ أصبح الإنسان هو عدوّ الإنسان ذاته، إنّها البربريّة الحديثة، البدائيّة الحديثة، البدائيّة الحضاريّة، تجهز وتحضّر (كما تحضر البرامج الإذاعية). كما نلاحظ أن الأمور من حولنا تقزّم في وسط حضاريٍّ متقدّم للأسف، إنّ الإنسان المعاصر يسوّي أموره مع الغير، لكن ليس مع نفسه، وهو أحياناً غير مقتنع بذلك. إنّ إنسان العصر بقدر ما يكون صغيراً تكبر مطاليبه، إلى درجةِ أنّه يضحّي بنفسه من أجل تحقيقها.

إنّ الثّمن الذي تتطلّبه الأمراض المتزايدة النفسيّة والروحيّة الاجتماعيّة يجعل الإنسان يبذل جهوداً كبرى في تأمين وضعه الاقتصادي، وينتج عن هذا الوضع أخطار حياتيّة وأخطار جرائم ذاتيّة وظواهر ميول انتحاريّة،

وقد قام فروم بالتّحذير من مخاطرها، وتوصيف مظاهرها، بحيث يجب التأكّد منها، فلا يهملها بل يضع الحلول لها.

كان فروم صديقَ الإنسانيّة، ينتظر من الإنسان الكثير ويثق به كثيراً. إن الصّداقة الحقّة هي المقدرة على التّعايش مع الآخر ومشاركته آماله وآلامه، وقد أصبحت نادرة في الوقت الحاضر.

كتب فروم: «أنا لا أعلم ما إذا كان النّاس يعانون أقلّ من السابق. هم أصبحوا أكثر بعداً عن بعضهم بعضاً، بحيث أنّهم أصبحوا أقلّ شعوراً بمآسي بعضهم بعضاً، ثمة أناس لم يعرفوا السّعادة في حياتهم».

ولكن لا يوجد أحدٌ البتّة لم يعانِ أو لم يتألّم طيلة حياته، ومن لم يذق الألم مرّةً لا يمكن أيضاً أن يشعر بالسّعادة. إن مرارة الأسى بالنّسبة لكل النّاس، أو بالأحرى لكل من لديهم إحساس بالحياة، تولد نفس المشاعر وآثارها، لذلك فإنّ مشاركة المشاعر بالأسى للنّاس في العالم تشكل العزاء والسّعادة للآخرين، وتأخذ بيدهم وتساعدهم على تجاوز مآسيهم. بمثل هذه الأفكار التي تجذّرت لدى فروم استطاع أن يكون نصيراً للكثير من البشر.

حزيران 2011

هانز يورغن شولتس

الوفرة الزائدة والخمول في مجتمعنا

1- الإنسان السلبي (الخَمول):

إذا كان عليّ أنْ أتحدّث عن هذا العنوان، فمن الواجب ـ كما يبدو ـ أن أعطي شرحاً حول مدلول هذين التّعبيرين، إنّه ليس فقط في هذه الحال، ولكن ـ بشكل عام ـ عندما يريد المرء أنْ يعرّف معنى أو مدلول كلمة، فإنه يقصد غالباً قضايا معينة؛ وبشكل أحسن تلك التي تعرّف فيها الكلمة تحديداً ـ وذلك من خلال معرفة جوهر الكلمة وتاريخها.

لنستعرضْ هاتين الكلمتين سوّيةً. الواحدة منهما لها معنيان: معنى إيجابي، حيث الفائض يعني «الوفرة». إنها تعني بالتأكيد الزّيادة عن الحاجة المطلوبة، أي الّتي تفيض عن الحدّ المطلوب. قد تفكرّون في الأرض الموعودة في الإنجيل، حيث يفيض فيها العسل واللّبن، أو إذا أردتم وصف حفلة تجمعكم ـ عيد مثلاً ـ والذي يكون فيه الخمر وأشياء أخرى تسعدكم متوفرة جداً ـ وهذا يعني زيادةً في السعادة، أي لا فقر ولا نقص ولا محاذير أو خوف من أنّ أحداً من الحضور قد يُفرط بالأكل أو الشرّب. هذه هي الوفرة الإيجابيّة....أي كل شيء متوفر، يكفي ويزيد قليلاً.

إلا أنّ زيادة الوفرة يمكن أن تُعطي مدلولاً سلبياً، وتعبّر عن نفسها بالكلمة «زيادة» عن المطلوب أو المرغوب، بمعنى عدم اللّزوم لذلك الفائض، وبالتالي هو تبذير. عندما تقول لشخص ما: أنت زيادة، فهذا يعني قولك له: لا حاجة لنا بك، أي غادرْ من فضلكّ. «أنت تعني أن تقول: «من

الخير أن تغادر». إنك لا تعني بتاتاً «كم هو جميل أنك هنا!» وهذا بعكس ما تكون عليه عندما تشرب زيادة من الخمر مما يسعدك، أي إن زيادة ملء الكأس ـ طفح الكيل ـ بأكثر من الخمر، تختلف تماماً عن زيادة حضور من لا رغبة فيهم ـ أي أن يفيض الكأس بالخمر، هو أمر يختلف عن أن تفيض صالة الاحتفال بمن هم زيادة عن المطلوب وغير مرغوب فيهم. أما التعبير «الخمول» فهي كلمة مشتقة من تعبير باللغة الألمانية ـ أو بالأحرى تعبيرين ـ (وتعني في اللّغة العربية الفصحى «تولّد الملل»)، وفي اللغة المقدّسة تعني مثلاً ما يولد القرف والإزعاج، وفي اللغة الفرنسية عندهم تعبير آخر عمّا يسمى هنا «ملل» إذ تعني بالفرنسية إثارة الحقد والكراهية، والتعبّير مشتق من اللاتينية.

وهنا نتساءل: ألا يعني لغوياً أن الزيادة ـ الفيضان ـ عن الحد يوصل إلى الكراهية والحقد؟ علينا هنا أن نتساءل: هل نعيش ما نسميه زيادة رفاهية؟ نحن ـ وأنا أقصد المجتمع الصّناعيّ الحديث ـ كما هو الأمر في الولايات المتحدة الأمريكية وفي كندا وفي غرب أوروبّا.....ألا نعيش فعلاً حالة اللامبالاة والقرف؟ من يعيش في مجتمعنا هكذا؟ وأي نوع من الرّفاهية الزائدة هذا الذي نعيشه؟ إنها زيادة لا قيمةَ لها، أو هي تفيض كما الحال في كأس الخمر. دعْنا نسأل بكل بساطة: أهو فيضان جيد أم فيضان سيّء؟

هل يقودنا هذا الفيضان إلى الملل والقرف؟ هل يتحتم أن يقود الفيضان ـ أي الرّفاهية الزّائدة ـ إلى الفوضى؟ وكيف يا ترى يكون الفيضان الحسن الذي يتوّج الكأس بالزّبد الطيّب؟ هل يقود هذا إلى الفوضى والخراب؟ من أجل الإجابة على هذا السّؤال أعددْنا هذه البحوث.

دعني في البدء أقدّم ملاحظة أوّليّة ذات طبيعة نفسيّة. لأنني محلّل نفسيّ فسوف أتكلم في هذا العرض في المسائل النّفسية، وأنا أرغب بأن نتقبّل أن أنطلق من وجهات نظر، بالتحدّيد من النّاحية النفسيّة الجوهرّية، أومن التّحليل النفسّي ذاته، والذي يحمل ذات المعنى. إني ألمح باختصار، وبما هو معلوم للكثيرين منكم، إلى أنه ثمة طريقتان لدراسة مشكلة الإنسان نفسيّاً: إنّ علم النّفس الأكاديمي يدرس الإنسان حاليّاً، غالباً من وجهة نظر استكشاف تصرّفاته، أو ـ كما نعرّفها ـ سلوكيّة الإنسان. هذا يعني دراسة فقط ما يراه الدّارس ويراقبه بأمّ عينيه، والذي هو ظاهر، ويمكن قياسه، ووزنه وتقييمه. ذلك أن ما لا يستطيع الإنسان رؤيته مباشرة أو مراقبته، لا يمكن له أيضاً قياسه أو وزنه، أي إنّ العمل يكون غير تام.

تتم طريقة الدراسة النفسيّة المعمّقة والتحليل النّفسي بشكل آخر، ولها أيضاً هدف آخر. إنّها تختبر عمليّة الكشف، أما طبيعة التصرف فليس من السّهل مشاهدتها. الطريقة تهتم بنوعيّة التصرّف والتي من شأنها، وعلى ضوئها تحدّد الحوافز والبواعث. دعْني الآن أقدم بعض الأمثلة. يمكنك أن تراقب التالي: شخصٌ يبتسم... إنه تصرّف ما، ربّما بقصد التّصوير، ربّما بغرض تحريك عضلات وجهه....الخ

لكنّك تدرك أن هناك فرقاً بين ابتسامة بائعةٍ في متجرٍ وابتسامة إنسانٍ هو عدوُّها، إنه بالتأكيد يضمر عداوة لها... أو على النّقيض: ابتسامة صديق لها، يسعد لمشاهدتها.

إنّك تعلم أن هناك مئات الأنواع من الابتسامات، لها بواعث روحية ونفسية مختلفة؛ يعبر عنها بطرق شتىّ. قد تكون مختلفة أو متناقضة تماماً، بحيث لا يمكن لأيّة آلة قياسها أو حتّى تتبُّعها، لا أحد يمكنه القيام بذاك سواك... إنّك تراقب ليس فقط بدماغك ولكن ـ إذا كان يحقّ لي القول كما كان يقال قديماً ـ بقلبك. أنت بشخصك فقط تدرك ماذا يجري هناك أمامك، وعندك الحدس بما يمكّنك من أن تقتفي أثر سرّ تلك الابتسامة. وإذا لم يكن هنا من دلائل لديك، فمعنى ذلك أنك ستصادف في حياتك الكثير من مرارات الفشل.

أو دعنا نأخذ وصفاً آخر، مختلفاً تماماً، لتصرّف ما: شخصٌ يأكل، نعم يأكل... إنه يلتهم، وشخص آخر يأكل، حيث يستطيع المرء أن يلاحظ أن هذا الشخص يسعى إلى أن يتمّ كلّ شيءٍ بانتظام، وأن الصّحن قد فرغ منه تماماً، إن الشّخص الثّاني يأكل بدون عجلة أو نهم، إنّه يتذّوق الطّعام، هو يأكل بكلّ بساطة، بل ويسرّ بذلك.

أو خذْ مثالاً آخر: شخصٌ يصرخ حتى يبحّ صوته، تراه فتحسبه غاضباً، صحيح هو غاضب، ثم تحدّق فيه أكثر وتتساءل ما الذي جرى؟ ماذا ـ بخاصة إذا كنت تعرفه ـ حدث له؟ وفجأة تلاحظ: إنه خائف. لقد ذعر ودبَّ فيه الخوف، والصراخ هو ردّة فعْلٍ على خوفه. وقد تتعمّق في الأمر فتلاحظ أنّ هناك شيئاً آخر مضمراً: إنه شخصٌ يائسٌ، يتخيّل، بخوف دائم من مجريات الحياة، عنده جبنٌ كامن.. لقد تكونت لديك ثلاث ملاحظات:

ـ إنه غاضب مغتاظ، خائف، عنده شعور داخلي بالقنوط واليأس وقلّة الحيلة. هذه الملاحظات صحيحةٌ، لكنها تعود إلى مكّونات في شخصيّة هذا الرّجل.

ـ الملاحظة المحورّية: (أن الشّخص لا حولَ له ولا قوّة) هي تلك التي تصف بشكل عميق ما يحيط بهذا الشخص البائس.

ـ أما تلك التي كانت وراء الصّراخ و الهيجان فهي الأكثر سطحيّةً.

هذا يعني أنه قد يغضب أحدهم، ولا يكون وراء ذلك سوى ظاهرة الرجل الغضِب، مما ينقضي بشكل بسيط. لكن عندما تجد خلف هذا المنظر رجلاً خائفاً، يائساً، فقد تجد نفسك تقترب منه، وقد يحدث أنه يهدأ، حيث أنّه لم يعد يشعر بأنه مهدّد بشكلٍ أو بآخر ـ يشعر بالأمان لوجودك إلى جانبه.

من وجهة التّحليل النّفسي ترانا في كلّ ذلك، بما نحن نتكلّم عنه، لسنا نهتم، في الدرجة الأولى، حتّى بمعرفة كيف تصرّف هذا الإنسان أو ذاك ظاهريّاً.... أو كيف شوهد بوضع ما... لكن ما يهم هو الدوافع وخلفّيات ذلك التصّرف، وما يرمي إليه من خلال ذلك، وهل كان عن وعي أم عن غير وعي؟ ثمة صديق لي يُدعى تيودور رايك قال شيئاً رائعاً: إن المحلّل النّفسي يسمع بالأذن الثالثة، وهذا صحيح تماماً. ويمكن لنا أيضاً أن نقول ذلك. وهذه صيغة تعبير قديمة بعض الشيء مثل: «فلان يقرأ بين السطور»: إنه لا يرى فقط ما يعرض عليه، إنه يتبصّر... في طيات ما يعرض عليه.... يتفحص أكثر ـ وبالتحديد في لب الموضوع

وخفاياه الشّخصيّة التي يعالجها، والتعبير عنها، أي إجلاء وإزالة ما قد يكون علق بتلك الشخصية من ألوان تخفي حقيقتها. ليس من سلوك للإنسان، إلا وهو بعض من شخصيّته، من كامل شخصّيته، وأخيراً نجزم أنْ ليس هناك تصرفان متماثلان بشكلٍ كامل لشخصين مختلفين. إذنْ قلما يوجد شخصان متماثلان بالمطلق. من الممكن أن يكونا متشابهين، قد يكونان قريبين عائلياً، لكن ليسا نسختين بالمطلق، لا يوجد أبداً شخصان يرفعان أيديهما بنفس الطّريقة تماماً، وبنفس الطريقة يغادران، وبنفس الطريقة يميلان برأسيهما. أحياناً تعرف شخصاً من مشيته بالرغم من أنّك لا ترى وجهه. طريقة المشي علامة مميّزة للشخص كما وجهه، وأحياناً أكثر: إذ أنّه من الممكن تغيير ملامح الوجه، ولكن ما هو أصعب من ذلك تغيير طريقة المشي. يستطيع الإنسان أن يغش بوجهه ـ وهي ميزة لابن آدم، وهذا ما يتميّز به الإنسان عن الحيوان، أما طريقة المشي فمن الصعب على الإنسان أن يغشَّ فيها، لكن من الممكن أن يتعلّم ذلك.

بعد هذه الملاحظات الأوّليّة التي أريد أن أستخدمها كعالم نفس، وبالأصحّ لمعالجة النّاحية المرَضيّة النّفسيّة لدى المريض، قد تسأل: ماذا يعني التّعبير: «يستهلك؟» هذا ما يجب فهمه. كلّ إنسان عليه أن يأكل ويشرب، أن يلبس وأن يعيش... وباختصار، هو يحتاج ويستهلك الكثير.. وهذا ما نعنيه بكلمة «يستهلك». ماذا تحتاج بعدُ المشكلة النفسية؟ بكل بساطة: الطبيعة ـ فمن أجل الحياة يحتاج الإنسان إلى أن يستهلك. وهنا تجدني أمام نقطة حساسة: «يستهلّك» و«يستهلك»، أمران مختلفان، ليسا

واحداً. هناك «استهلاك» يعني الحاجة غير الطبيعية. إنها مطلب ملحٌّ ـ أن يأكل أكثر، أن يشتري أكثر، أن يمتلك أكثر... دوماً أكثر من أجل الاستخدام وأكثر من الحاجة أحياناً كثيرة.

والآن قد تقول: أليس ذاك طبيعيّاً؟ إننا بالمحصلة نرغب بامتلاك ما لدينا، بلْ وأن نزيد عمّا لدينا. المسألة هي بالحد الأعلى، أن الإنسان ليس لديه كفاية من المال، وهذه الرغبة بامتلاك المزيد والمزيد من المال فيها بعض الخطأ. أنا أفهم وأتفهّم تماماً أن الكثيرين منكم يفهمون ذلك أيضاً. لكن أريد أن أقدّم لكم مثالاً ترون من خلاله أن المسألة ليست هكذا، وأقصد هنا مثالاً قد سمعتم به سابقاً، والقليل منكم ينطبق عليه المثل، ولكن قد يكون له من ينطبق عليه. لنأخذ مثلاً رجلاً سميناً ـ بل يعاني من السّمنة، إنه يزن ببساطة كثيراً، وقد يعاني من أمراض الغدد... دعونا من هذا، فلن نتكلّم عن هذه الحالة. لكن غالباً يوجد من يحب الأكل ـ يأكل كثيراً. عندما تراقبه يأكل، يلفت انتباهك، ويتأكّد لك أنه يأكل كثيراً، هو يتناول الطعام من هنا وهناك، وكيفما وكلّما سنحت له الفرصة، ويلتهم الحلوّيات بخاصة باستمرار، وعندما تراقبه جيداً يتأكد لك أنه لا يلتهم الحلويات فقط، بل تلاحظ وكأنّ هناك رغبة شديدة تدفعه لذلك... عليه أن يأكل، لا يستطيع أن يتوقّف، كما هو الحال بالنسبة لكثير من المدخنين الذين لا يستطيعون الإقلاع عن التدّخين. أنت تعلم أنّ من يقلعون عن التدّخين، يبدؤون فجأة بأخذ طعام أكثر من قبل، هم يعللون زيادة السّمنة لديهم بكونهم قد توقفوا عن التّدخين... إنّه لتبسيط جميل للامتناع

لدى المدخّنين، بأنّهم لا يقلعون عن التدّخين خشية السّمنة.. لماذا؟ لأنهم تعودوا أن يأخذوا غريزياً في أفواههم شيئاً ما ويبتلعوه، أكان طعاماً، أم دخاناً، أم شَراباً، أو حتى يقوموا بزيادة الشراء للسبب المذكور.

قد يستجيب الشّخص الذي يأكل بنهم، أو يشرب كثيراً أو يدخن كثيراً، إلى تحذير الطبيب بحيث يقلع عن الشره، لهذه العادة أو تلك، حتى لا يتعرّض لأزمة قلبيّة يموت بسببها. وهنا يستطيع المرء أن يلاحظ أنّ هذا الشّخص بدأ فجأة يشعر بالخوف، إنه غير واثق، وعصبيّ خيفة أن يقع تحت هذا الكابوس. هنا يلاحظ المرء ذاك الارتباط وتلك العلاقة: أن قلّة الأكل وقلّة الشُرب والتوقف عن التدّخين قد تسبّب الخوف، قد نجد أشخاصاً يأكلون ويشترون، ليس بهدف الأكل أو حباً بالشراء، لكن ليخفوا نزعاتهم المكبوتة تجاه الطعام أو الشراب، هم يبالغون في الاستهلاك كي يتحرروا من الضّيق الدّاخلي. إن الاستهلاك يَعدهم بالشّفاء، وفي الحقيقة فإن الضّيق الدّاخلي ودواعي الخوف المتسلّطة تهدأ قليلاً، وذلك عندما يُستجاب قليلاً لدواعي الرّغبات الدّاخلية. إن غالبيتنا تشعر بالشّبع والكفاية، لكنّها عندما تشعر بالخوف والكبت تقصد البراد للطعام، حتى لو لم تكن ثمة رغبة بالطعام أو الشّراب، وهذا فقط لتلبية وتهدئة الرّغبة الظّاهريّة. بكلمات أخرى: إن عمليّة الأكل والّشرب يمكن أن تأخذ حقاً دور المخدّر كجرعات مهدّئة. إنها مقبولة أكثر وذات طعم لا بأس به.

يشعر الشّخص المكبوت أنه فارغ، لا قيمة له، كأنّه مشلول، كأنّ شيئاً ينقصه كي ينشطه، وكأنّه لا يستطيع الحركة وبحاجة ماسّة لشيء

ينشّطه. وهو عندما يشعر أنّ بداخله شيئاً يستفيق، يمكن أن يضعف الشّعور بالفراغ، أو بالشّلل، أو بالضّعف لفترة، ويشعر بداخله كمن يقول: «إنني شخص يملك شيئاً، إنني لست لا شيء.... يضخّ داخله بأشياء كثيرة من أجل أن يطرد الخواء». إنه الشّخص السّلبي الذي يشكّ مراراً في أنه ذو قيمة، وهذا الشّكّ يجعله يشعر بأنه مستهلك وأنه يتحول إلى ضحيّة إنسانيّة.

لقد استخدمت الآن التعبير «الإنسان السّلبي»، وستسألني: ماذا أفهم من ذلك؟ ما هي السّلبية؟ وما هي الإيجابية؟ هنا يتوّجب علي لمرّةٍ أن أعرّج على مفهومي السّلبية والإيجابَية. وبما هو بالتأكيد معلوم لديكم جيداً. إن المفهوم الشعبي العام يفترض أنّ الإيجابّية لشخص تعني العمل بنشاط وقوّة، ورغبة، بمعنى العمل الجسمي أو الذّهني، أو الرّياضة على سبيل المثال، والتي غالباً ما يُفهم أنها تفيد الصّحة، أو أنها تحسن من سمعة البلد، أو أنّها تجلب الشهرة، أو أنها تؤمن دخلاً مادياً. والسعادة عادة «ليست مرهونة بالتّدريب ذاته» ولكن في تأثير محدّد يحقق رغبّة الرّياضي في ممارسة اللّعب النشط الفعال لهذا الذي يجتهد ويتعب. في أمريكا يقول القائل «إنه مشغول». «إنّه المؤدى نفسه لكلمتي مشغول وشغل».

والآن متى يكون المرء من هذا المنطلق سلبيّاً؟ عندما لا تتحقق الفائدة المرجوّة، فلا تحضر الاستطاعة ولا الهمّة المطلوبتان، دعني أعطِك مثالاً عملياً لذلك: هنالك شخص ينظر إلى الأرض الزّراعية لمدة خمس دقائق،

لنصف ساعة، أو لساعة كاملة، إنه لا يفعل شيئاً، فقط يجول ببصره في الأرض، وهو لا يلتقط صوراً، لكنّه غارق بالمناظر، مأخوذ بما تراه عيناه أمامهما، سوف ينظر وينظر فقط! ومع تقدير أنّه مأخوذ بما يرى، لكنّه لا يعد ـ هنا ـ حيوياً أو إيجابياً.

خذ مثلاً آخر: (بالرغم من أن هذه النظرة في عالمنا الغربي المتحضر غالباً غير موجودة) شخصٌ يعتزم محاولاً بكل جهد أن يكون عند حسن الظن، وبما ينسجم مع مشاعره ومزاجه، ومع إدراكه ووعيه، حيث يحاول التفكير بشكل دقيق لعدّة ساعات، إنّما الأجواء المحيطة به ـ والتي لا يفهم منها شيئاً ـ تجعل منه إنساناً سلبيّاً. إنه لا يفعل شيئاً، ربما يطرد الأفكار من رأسه، يركّز فقط. لا يفكر بشيء، إلاّ أن يكون موجوداً، قد ترى ذلك غريباً جدّاً، جرّب ذلك لمدة دقيقتين، سوف تلاحظ بالتّأكيد كم هو من الصعب، أن تفكر في كلّ شيء، بينما يدور كل شيء في رأسك ولكن في أغلب الأحيان في أشياء غير مهمة لا يمكن صدها، لأنه من الصعب تحملها، عندها ليس لك إلا أن تجلس يائساً وتتخلّى عن التفكير. في البلدان ـ مثل الهند والصين ـ ذات الحضارة الغابرة العظيمة، تجد الرّغبات والميول محترمة جداً، لكنْ في بلداننا ـ للأسف ـ ليس الأمر كذلك. ويبدو لنا أننا طموحون بحيث يتوّجب علينا أن نفعل شيئاً يرمي إلى هدف، نحصل من خلاله على تحقيق شيء ما يعود علينا بفوائد. لكن حاولْ مرة أن يكون هذا الاهتمام أو ذاك خارج وعيك، حاولْ أن تركّز عميقاً فقط، وليكنْ ذلك التمّرين على مدى دقيقتين، ستلاحظ ـ وقد يتأكد لك ـ أن توقفك هذا عن أي نشاط قد جلب لك جدة ونشاطاً.

هنا أريد أن أشير إلى أننا في لغتنا المعاصرة نفهم تحت مصطلح الإيجابية عملاً مع تأثير إيجابي متوقع، في حين أن السلبية لا هدف من ورائها، إنها توقّف وخمول، حيث يُلاحظ ألا قدرة فيها. إننا نقيّم الإيجابية والسلبية طبقاً لمفهوم «نوعية الاستهلاك»: عندما نستهلك «الفائض السيء»، تكون الإيجابية الظاهرية بالنتيجة النهائية سلبية.إن أي والعمل به مقبولاً من أجل الوصول بنا إلى ما هو أحسن من مجرد أن نكون مستهلكين لا أكثر.

2- الملل المعاصر:

دعنا نفكر قليلاً في مفهومي «الحيويّة والخمول» وكيف نجد هذين المفهومين عند: أرسطو وسبينوزا وغوته وماركس ومفكرين آخرين في العالم الغربي في الألفي سنة الماضية.

تُفهم الحيويّة تقريباً كالتّالي: إنها القوّة التي تُخرج القوى الكامنة عند الإنسان للواقع، تقدّم للحياة، تساعد في ولادة وبعث المقدرات الكامنة عند الإنسان: الجسديّة، العاطفيّة، العقلية والفنيّة....الخ. وأنا عندما أتحدّث عن القوى الكامنة في الإنسان، قد لا يفهم البعض منكم ماذا أعني بذلك. إنّه من الطّبيعيّ أن نفترض التالي: القوى أو القدرات في المحركات، لها ما يماثلها عند الإنسان، وطالما أن الإنسان يمتلك القدرات، فبوسعه اختراع المحرّكات واستثمارها وصيانتها. إنّ تقديرنا للقدرات الفاعلة في المحركات يزداد باستمرار، ولكن وجهة النظر في القدْرات لدى الإنسان تتناقص... إنّ الجملة التي يقولها الشاعر اليوناني أنطونيو: (هناك

عجائب كبرى في الدّنيا ولكن أعظمها هو الإنسان) جملة لا يعادلها في الوجود قول آخر. إن الصاروخ الذي هبط على القمر يبدو لنا أروع بكثير من هذا الكائن الصغير «الإنسان». إننا نعتقد بطريقة أو بأخرى أنّنا بالاختراعات الحديثة قد حقّقنا أكثر مما كان الله قد خلق للإنسان عندما جاء به للوجود، وهذا غير صحيح.

علينا أن نفكّر جيداً كيف نستخدم القوى العظيمة الكامنة في الإنسان، من أجل تحقيق أهدافنا لخدمة وجودنا، ومن أجل تفجير القوى اللا محدودة لدينا، ليس فقط القوّة في الكلام والتفكير، ولكن كي نحصل على بصيرة وذكاء أكبر، نطوّر بها نضوجنا، وعلى القوّة في حق الحياة أو الاستثمار العبقري، وبالتالي لكل الثروات المختزنة لدى الإنسان، والتي تنتظر التطبيق والاستثمار. إن الحيويّة والعمل الجدي في فهم الباحثين الذين أعنيهم، هو بالضبّط، التطوّير وإبراز للثروات المكتنزة لدى إنسان، أي استثمار كل ما هو كامن ومخبأ فيه من تلك الكنوز. هنا أملي عليك... بعضاً من المخطوطة الفلسفية الاقتصادية من عام 1844 (MEGA s149،3،1): «لنقلْ إن الإنسان هو الإنسان وإن سلوكه تجاه العالم سلوك إنسانيّ، هذا يعني أنّ الحب يجب أن يقابل بالحب والثّقة بالثّقة...الخ عندما تريد أن تمارس نفوذاً على إنسان آخر عليك بالتأكّيد أن تكون شخصاً مثيراً ومتحدّياً له، أيُّ تصرّف منك تجاه الإنسان أو تجاه الطبيعة، أي تجاه الآخر، يستدعي التّعبير المناسب بما له علاقة بحياتك الشّخصيّة. فإذا كنت تحبّ بدون مقابل من الطرف الآخر يولّده حبُّك له،

وإذا كانت تصرّفاتك تجاه من تحبّ لا تفعل فعلتها لدى الإنسان الآخر، فهذا يعني أن حبّك فاشل وغير سعيد.

هنا ترى أنّ ماركس يهتمّ بالحبّ كما بالحيّوية والنشاط. إنّ الشَخص المعاصر لا يفكر البتة في أنْ يجني من الحبّ ربحاً، إنّه على الأغلب يهتمّ فقط بأن يكون محبوباً، ليس من أجل أن يمارس الجنس، أي أن يكون الحبّ مع الآخر الحبيب لخلق حالة جديدة، وليس أن يكون معزولاً وحيداً في الحياة، لذلك هو يريد أن يؤّكد مقولة أن تكون محبوباً فهذا عظيم، أو أن الشخص من خلال ذلك يبذل كل جهد بحيث يستغل أي فرصة تؤمّن له أن يصبح محبوباً، ويحوز على ما يريد من ماء المضمضة إلى البزّة الجميلة أو حتى لأغلى سيارة... والآن كيف يصدّق الأمر مع ماء المضمضة ومع البزة الجميلة؟ لا أدري بالضّبط. مع ذلك فإنه من المؤسف حقّاً أن هناك كثيراً من الرجال أصبحوا محبوبين بسبب السّيارات الفارهة التي يملكونها.... يجب أن نضيف هنا، أن كثيرين من الرجال يهتمون بالسّيارة أكثر مما يهتمون بالمرأة، إنّها حقيقة: بعدها، كما يبدو في الحالتين السابقتين تستقيم الأمور.. لكن كلاً منهما بعد فترة قصيرة يبارح الآخر، وقد يتحول ذلك إلى كره أحدهما الآخر، لأن كلاً منهما قد غشّ صاحبه، أو يشعر أحدهما أنه ضحيّة غشّ. لقد كانوا صدقوا أنهم قد تحابُّوا فيما بينهم، في حين أنّ ذلك كان توهمّاً، وهكذا لم يتحقق الحب الحي الصادق.

وتحت مسمَّى «الخمول» لا يُفهم بنفس المقاييس بالمعنى الكلاسيكي أن الشخَص يجلس ـ يلوك أحلامه، يفكّر كثيراً أو يسرح في مناظر الطبيعة، نعم، فالشخص هنا فقط ينفعل. إنه المفعول به.

ماذا يعني الانفعال فقط؟ علينا هنا ألاّ ننسى أو نتجاهل أننا في هذا المجال غالباً ما نكون نشطين، في وضع التحريض ولفت النظر وردة الفعل على الحالات التي تعوّدنا عليها، مما يتطلّب منّا أن نفعل شيئاً، عندما تحين الفرصة وتُعطى الإشارة. إن الكلب الجائع يسيل لعابه ـ عند سماع جرس الإطعام الذي ينبّهه للطعام ويقدم له. والخامل عندما يُنادى إلى الحلوى الكبيرة فهو يستجيب بنشاط وحيوية. هذا النّشاط ليس مع ذلك إلا ردّة فعل على إثارة غريزته للطعام.

إنه يعمل كالسيارة. إنّ تصرّفنا اليومي يتحدّد تماماً كالتالي: الإنسان كائن انفعالي. فعند انطلاق إثارة، تصدر ردة الفعل فوراً. هذا ينطبق على الفئران، وعلى الناس وعلى القطط، ولو أن ذلك صعب أحياناً... يمكن مع الأسف أن تتم الإثارة بأسرع وأسهل لدى الجميع. يعتقد الإنسان أنّ منطلق كل التصرفات الآدمية بأكثرها وأكبرها، هو من المكافأة والعقاب. إن المكافأة والعقاب هما الدافعان الأساسيان، ويُتوقّع أن يتصرّف الإنسان تجاه ذلك كالحيوان تماماً، حيث بناء على ذلك يعمل كي ينال المكافأة، ويبتعد عما يهدّده بالحساب والعقاب. يجب ألاّ يعاقب ولو مرّةً، إذ أن التهديد بالعقاب يعتبر كافياً. على كلّ حال، من المفيد أن يحدث هنا وهناك أن

يعاقب شخص كمثال للتخويف حتى لا يصير التخويف فقط اسماً بلا مسمًّى.

والآن ماذا عن ذاك المهووس؟

راقبْ بنفسك مرّة سكراناً تره غالباً نشطاً جداً، ويصرخ ويصيح. أو لنتصور إنساناً في مثل هذا الوضع النّفسي الذي يسمّى المهووس، مثل هذا الإنسان نشِط أكثر من اللازم، يعتقد أنه يستطيع مساعدة كلّ العالم، يتكلّم ويتكلّم، يتلفن، حريص جداً على التهيّج. إنه يوهمك بأنه أكثر من حيويّ - بل حيويّ فذّ. لكننّا نعلم أنّ المثير لنشاطه هو الكحول، وقد يكون ممن بهم مسّ في عقولهم، حيث لديه تشوّش عقليّ في الدّماغ. إن تعليقات هؤلاء وأفعالهم المشوّشة تعبّر عنها الحيويّة المَرَضيّة.

هذه الحيوية هي مجرّد ردّة الفعل على الإثارة والمدفوعة بطريقة مرضية، إنها بالتّالي حركة سلبيّة حقيقية، بالرّغم من أن كل ما يدّعونه ويكابرون فيه غير ذلك. «إن المعاناة مشتقة من الفعل يعاني. عندما نتحدّث عن مرضى يعانون كثيراً من المرض. فهذا يعني أنهم ذوو شخصية مزدوجة مرضيّة. لقد قال العالم «شلاير ماخر» يوماً: «الحسد مرض يصيب من هم مصابون به ويعانون منه». هذا لا ينطبق على الحسد والحساد، ولكن على كل من يسقط في مثل هذا المرض، أي على الشّره في رغبة ما، حبّ العظمة، حبّ المال، حب السيطرة، حبّ الطعام، إن ظواهر الشّره كلها مرضيّة، وتسبّب هذا المرض. إنها ظواهر سلبيّة، إنها نشاطات مرضيّة. إن هذا التعبير في اللّغة مشتقّ من جذر لاتيني يعني المعاناة

والآلام، لكنه في لغتنا المعاصرة توسع وصار يعني أنواعاً كثيرة من المعاناة، لن أتطرق إليها.

إذا كنت تعتبر أنّ «الحيوية» هي فقط ردّة فعل للشّخص المنفعل أو للشخص المعني المنقاد لذلك وأمثاله، وهم تحت المراقبة، أي الأشخاص الخاملون السلبيون في المفهوم العام؛ فأنت ستلاحظ بالتأكيد أن ردّة الفعل هي واحدة، روتينية، وردة الفعل هي نفسها من جديد: نفس المحرّضات تعطي نفس ردود الفعل وليس من جديد بالحقيقة، باختصار: هو الروتين.

إن ردة الفعل تؤدي دوماً إلى نفس النتائج، الإثارة نفسها تعطي ردة الفعل نفسها. أنت تعلم تماماً ما ستكون النّتيجة... وكلّ شيء محسوب، هنا لا يوجد ما يسمى العامل الشخصيّ، والقوى لا تولّد نفسها، ويظهر الأمر وكأنّ كل شيء مبرمج: المحرّض نفسه يعطي الأثر نفسه. هذا يحصل كما يحصل للفأر في مختبر التجارب للحيوانات. هذا يصح تماماً في التحليل النفسي لسلوك حيث يبدو فيه أن للإنسان نفس الآلية: نفس الإثارة تعطي نفس التصرّف، ولكي نستوعب الحدث ونكتشفه، ومن خلاله نتوصل للعلاج اللّازم. هذه الإجراءات هي العلم، نعم قد يكون علماً. ولكن من الناحية الإنسانيّة هل هذا علم؟ ذلك أن الإنسان الحيّ لا تكون له دائماً نفس ردة الفعل لنفس السّبب المحرّض، فهو في كل لحظة إنسان آخر. إنه لا يكون دوماً غير ما هو بالمطلق، كذلك لا يكون دوماً نفسه، هو هو.

لقد عبّر «هيراقليط» عن ذلك كالتالي: «من المستحيل أن نسبح في النهر مرّتين» حيث يصحّ التعبير «كل شيء يجري كالنّهر» ما يعني بتقديري: إن الدّراسة النّفسيّة للسلوك يمكن أن تكون علماً، لكنّها ليست علماً خاصّاً بالإنسان، إنها علم خاصّ بأناس غرباء على السلوك الإنساني وبطرق غريبة يتولاها خبراءٌ خاصّون. هذه الطريقة لها القدرة على أن تعطي للإنسان مظاهر وأشكالاً مختلفةً، لكنها، وبالتحديد، لا تعطي جديداً فيما يختصّ بالصّفات الإنسانيّة الأصليّة للإنسّان.

إنني أريد أن أعطي مثالاً أوضح فيه الفرق بين الحيويّة الإيجابية والخمول السّلبي، والذي لعب دوراً كبيراً في الحياة النفسية الصناعيّة الأمريكيّة.

قام البروفسور «ألتون مايو» بالتّجربة التّالية عندما طلبت منه شركة الكهرباء الغربية أن يدرس كيف يمكن تحسين أداء العاملات الأميّات في مصانع هاوثون في شيكاغو. أيامها كان الاعتقاد أن العاملات قد يتحسّن أداؤهنّ إذا أعطين عشر دقائق إضافية لفترة القهوة الصّباحيّة. هؤلاء العاملات الأميّات كان عليهنّ أن يعملن عملاً بسيطاً رتيباً، ألا وهو حل الملفّات. هذا العمل ليس بحاجة إلى مهنية ولا إلى جهد كبير، إنّه من أبسط الأعمال الرّوتينية التي قد تخطر على بال.

أوضح السيد «ألتون مايو» التجربة التي سيقوم بها، ففي البداية جعل استراحة شرب القهوة بعد الظهر، وظهر للفور أن إنتاجية العاملات قد ازدادت، ثم أضاف استراحة أخرى قبل الظهر، ومن جديد سجلت

إنتاجية أكثر، وهكذا فإن تحسينات جديدة لحياة العاملات أدت إلى تحسين الإنتاجية، وبالتالي تحسّنت النواحي المالية.

عندها أوقف السيد ألتون مايو تجاربه وقدّم تقريره إلى رئيس الشركة الغربية للكهرباء، ونصح مؤكداً أن خسارة عشرين دقيقة لاستراحة القهوة تؤمن للشركة أرباحاً كبيرة. كان السيد «ألتون مايو»، أيضاً رجلاً ثرياً... سأل نفسه: ماذا سيحدث لو قام بإلغاء الحوافز والمزايا معاً. هكذا قام بإلغاء استراحة شرب القهوة بعد الظّهر، ومع ذلك استمرت زيادة الإنتاجيّة، ثم قام بإلغاء استراحة قبل الظهر، فاستمر الإنتاج عالياً. عندئذٍ، وحيثما صادف مجموعة من الخبراء، فإنهم كانوا يهزون أكتافهم باستخفاف قائلين إنّ التجربة ليست ذات قوّة مطلقة. لكن في وضعنا فإنّ فكرة تفرض نفسها: بما أن العاملات الأميّات، وقد سنحت لهنّ الفرصة في حياتهن أن يعملن في الشّركة، وعلى الرغم من أن عملهن في حلّ الملفات رتيب ومتواضع ومملّ دوماً، إلا أنهن كنّ في عملهن محترفات، ودورهنّ في مجال العمل مقدّر، وهنّ يؤدينّ دوراً مهماً، وهذا ليس فقط من أجل تأمين الرّبح لأصحاب الشّركة، بل هو يعود على كل العاملين والمستخدمين. إن السيد «ألتون مايو» استطاع أن يبرهن على أنّ هذه الميول والرغبات غير المتوقعة ـ أي إن قوة الحضور للعاملات ـ كانت السّبب في زيادة الإنتاج في الشّركة، ولم يكن السبب زيادة أو عدم زيادة فترات الرّاحة لشرب القهوة قبل أو بعد الظهر. وقد كان ذلك هو المبرر والدافع لطريقة جديدة في التّفكر: إن الحافز لتحسين الإنتاجية يكمن في الرّغبة في العمل نفسه أكثر ممّا هو في زيادة فترات الرّاحة، أو زيادة الرّواتب أو في تأمين وسائل

التّسلية ـ وهنا بالضبّط أقول إنني أردت بذلك توضيح الفوارق ما بين الحيويّة والإهمال، وبكلام آخر ما بين الإيجابية والسلبيّة، فإذا لم يكن لدى العاملات دوافع ذاتية في العمل فسوف يكنّ سلبيّات وغير منتجات، وعندما أعطيت لهنّ الفرصة للمشاركة في التجّربة السّابقة، تولّد عندهنّ شعور بالقيمة والحاجة لهنّ للمشاركة والتّعاون، وأصبحن نشطات، وغيّرن بشكل جذريّ من مواقفهن وسلوكهن.

لنأخذ حالة أخرى أبسط بكثير: يتعلق الأمر بسائح يأتي من جهة ما، وطبعاً يحمل معه آلة تصوير... يرى أمام ناظريه جبلاً، بحراً، قصراً، ومعرضاً...الخ. هو لا يرى ذلك مباشرة لكنه يتخيل ما ينتظره كي يراه ويصوره... إن الحقيقة ذات الصّلة هي ما ثبت في مخيلته، وليس ما هو ماثل أمامه بعدُ. إن الخطوة التالية هي أن يعرض على صديقه الصّورة نفسها، عندما تكون في جيبه، لمنظر قام بتصويره ويستطيع بعد مرور عشر سنوات أن يتذكر أين كان أيام زمان. وكما هو الأمر دوماً: إنها الصّورة ـ الحاضنة الفنيّة للحقيقة حيث حدثت بالفعل. إن كثيراً من السّائحين لا يشاهدون بتركيز في البدء، إنهم يمسكون فوراً بآلات التّصوير، في حين أن المصور الحاذق يشاهد متأملاً ومن ثم يصور ما يرغب في الكاميرا، أي إنه يقوم بالتواصل والتّماس مع ما يريد تصويره. إن ما قام به هذا المصّور هو الفعل الإيجابي (الحيوية الإيجابية).

من خلال الخبرة، لا يمكن للمرء قياس الفرق فيما حدث. قد تلاحظ ذلك على ملامح الوجه: يشعر المرء بالسّعادة لأنه رأى مرة شيئاً جميلاً،

سواء صوّره أو لم يفعل. ثمة أشخاص (قلّة)، لا يرغبون في التصوير، لأنهم يرون أن الصورة تفسد الذاكرة. فالصّورة نفسها ليست بذاتها إلا ذكرى. لكن حاولْ أن تتذكّر المناظر الطّبيعية بدون صورة لها، عندها ترى الطبيعة تلك في مخيلتك تبعث من جديد، هكذا ترون المناظر تُبعث حيّةً من جديد كما كانت بالضّبط. إنه ليس من السّهل أن تسترجع الذكّرى ثانية وحرفيّاً كما كانت. أنت شخصيّاً تبدع الطبيعة من جديد، إنك تنتج هذا المنظر من جديد، هذه الحيويّة تنشّط وتقوّي قدرة الحياة وحيويّتها، في حين أنّ كلّ خمول بدون رغبة ينتج الكبت واليأس، بل إنه يولد مشاعر الكره أحياناً. تصورْ أنّك في مجتمع، كنت قد دعيت إليه، إنك تعلم بشكل جيّد ماذا سيقول هذا أو ذاك وماذا ستقول أنت وماذا يقول عنك الآخر...إنه عالم كعالم الآلات، تدور بدقّة وكما نظمت (كلّ يغني على ليلاه). كلّ له رأيه، وجهة نظر. لا شيء جديد يحدث، وعندما تعود إلى البيت ـ وقد أغلقت الباب وراءك ـ متعباً جداً... هناك حيث كنت أدّيت عملاً، كنت صاحياً ونشطاً... لقد تكلمت وجادلت كما كان محاورك يفعل، وقد تكون أثرّت فيه، ولكن رغم ذلك كانت تلك محادثة بلا قيمة، حيث كان كلّ منكما يعرض نفسه على الآخر، كم من الإثارة وكم من ردّة الفعل! وكما الاسطوانة تدور وتحكي ما فيها، ليس من جديد، إنها باختصار اسطوانة مملة.

والآن لنقلْ إنها حقيقة مرّة في حضارتنا الحاليّة، أنّ النّاس ليسوا سعداء. كم هو الملل محزن! عندما يجلس الإنسان، ولكن، ولسبب ما، لا

يعرف كيف وماذا يفعل ومن أين يبدأ، عندئذٍ يشعر ـ لا يملك في نفسه الدّوافع لكي يفعل ما هو ذو قيمة أو أن ينتج شيئاً أو أن يستدعي من خاطره شيئاً ذا قيمة ـ عندئذٍ يشعر بالملل والخواء، يشعر بما هو فيه حملاً ثقيلاً ضاغطاً، كأنّه الشلل الذي لا يمكنه بمفرده أن يفسّره بوضوح. إن الخواء الشخصي هو العذاب النفسي الخطر، والسأم مرض عصري خطر. إن الإنسان الذي أصيب به بدون أن يتمكن من الشفاء منه، يشعر بنفسه مكبوتاً وخائباً. لماذا لا يلاحظ الناس كم هو الملل مزعج وكم يسبب من الألم؟ أعتقد أن الإجابة على هذا السّؤال بسيطة جداً: إننا نصنع اليوم أشياء كثيرة، ويمكن أن نستعملها ونتخلّص من هذا المرض، بأن يأخذ الإنسان حبوباً مهدئة، أو يشرب، أو يذهب من حفلة أصدقاء إلى أخرى، أو يتشاجر مع زوجته.. وإما بواسطة معالجة طبيّة، أو بالقيام بنشاطات جنسية... من أجل التخلّص من مرض السأم والانعزاليّة.

إن الكثير من حيوّيتنا هو محاولات، كيلا ندع السأم يتملّك فينا. عليكم ألاّ تنسوا ذلك الشعور الذي كثيراً ما يتملككم، بعدما تشاهدون فيلماً تافهاً أو غير ذلك مما يولّد الضجر لديكم، لا تنسوا العذاب النّفسي لما قد حلّ بكم، عندما تلاحظون ـ وقد استولى عليكم السأم المرّ ـ أنكم لم تستغلوا وقْتكم، بل على العكس عملتم على قتله. شيء غريب ما نشاهده في عصرنا: نقوم بفعل الكثير من أجل توفير الوقت وإنقاذه، فإذا نجحنا في ذلك نقوم بقتله بدم بارد، لأنّنا لم نعرف كيف نبدأ فيه من جديد.

3- الحاجيات المنتجة:

إنه لرأيٌ عالمي، ليس فقط عند المفكر «لاين»، بل عند كثير من العلماء: «أنّ الإنسان» هو آلة، تعمل فقط طبقاً لمتطلّبات نفسيّة. إنها تتطلّب أكلاً وشرباً، ونوماً، ولها متطلبات جنسيّة وغيرها، المتطلّبات النفسيّة والجسديّة يجب أن تؤمّن لها، وفي حالة عدم تأمينها يصبح الإنسان متوتراً، أو ربّما يموت، كما هو الحال في الجوع مثلاً، أما إذا تأمنت هذه الضرورات، فتبدو الأمور في حالة جيّدة، والآن لنفترض أنّ الأمر غير ذلك، يمكن مثلاً، أن تكون جميع المتطلّبات النفسيّة والجسديّة قد تأمّنت، ومع ذلك يظهر وكأنّ الشخص ليس بحالة جيّدة، أي ليس بانسجام تام مع نفسه، أي لا يعيش سعيداً مطمئناً مع ذاته، لكنّه ـ تحت ظروف محدّدة ـ داخليّاً مريض جدّاً، بالرّغم من أنّه ظاهريّاً قد حصل على كل شيء يحتاجه. إنّه يحتاج إلى الدّافع، دافع يبعث فيه النّشاط.

وهنا، في هذه المناسبة، سأعرض بعض الأمثلة: لقد أجريت في السّنين الأخيرة بعض التّجارب الممتعة فيما يخصّ سلب الحيويّة من صاحبها: يُؤخذ إنسان ويعزل في غرفة منفردة، تبقى حرارتها ثابتة، مضاءة، يُجلب له الطّعام و يُقدّم له أوتوماتيكياً، لكن لا يوجد أي محرّض أو دافع من أي نوع لأيّ شيء، يسود هنا جوّ محيط كما هو رحم الأمّ، بعد عدّة أيام لبدء هذه التجربة يظهر لدى الرجل مرض قاتل قد يودي به إلى القبر، بالرغم من أنّ كل متطلّباته الحياتية كانت مؤّمنة، لكن الجوّ المحيط السّلبي، الرّوتين القاتل، كفيل بإنتاج مسببات لأمراض نفسيّة مهلكة. وهي نفس

الحالة التي تنطبق على الجنين في رحم أمه (إنما الأمر أنّه لا يوجد في رحم الأم للجنين أيّة محرّضات ضروريّة). إن الأمر بالنسبة للكبار يوصل إلى حالة تحتاج إلى تشخيص مرضيّ من قبل اختصاصيين في علم الأمراض.

أو لنقل، لقد أجريت تجارب كثيرة حاسمة نهائية، وفيها أن النّاس حرموا مثلاً من الأحلام خلال النوم: يمنع الشّخص من الحلم، وذلك بأن يوضع تحت المراقبة، إذ أنّ العين أثناء الحلم تتحرّك بسرعة عندما يحلم الشخص، هنا يمكن أن يمنع الشخص من الحلم بحيث يتم إيقاظه فوراً، وقد تكون عند هذا الشخص علامات مرضية خطرة، وهذا يعني: أن يرى الشخص أحلامه فذلك ضرورة حياتّية. عندما يكون الشّخص في نومه حالماً، يكون روحيّاً حيويّاً نشطاً. وعندما يُحرم من ذلك يصبح مريضاً ومنفعلاً.

أجرى هارلو تجارب على القرود، وكان من المدهش أن القرود أُخضعت عشر ساعات إلى تجربة صعبة تجاوزتها بنجاح، كان على القرود القيام بتفكيك قطعة مركّبة، وكان صبرها خلالها جيّداً بدون عقوبة أو جزاء، بدون استخدام أي نوع من التّشجيع، فقط كان ذلك بدافع حب العمل، إذن الحيوانات، وبخاصة الأنواع العليا منها، يمكن أن تكون عالية الاهتمام، ليس فقط من خلال تشجيعها على الحصول على غذاء، ولا خوفاً من عقاب يمكن أن تتعرّض له.

لقد طور الإنسان منذ /30000/ سنة فنوناً سحرّية. وكان يعتقد بأنها تخدم أهدافاً دينيّة واجتماعيّة. لنتذكّر لوحات في الكهوف والمقابر والمخابئ مع الصّور الأخّاذة للحيوانات ولحركاتها الغريبة. لقد وضعت هذه اللوحات مع الأموات، لأنّ النّاس اعتقدوا أن بإمكانهم من خلال هذه الرّسومات الحصول على صيد أوفر، وهذا قد يكون صحيحاً، ولكن هل تبلورت فكرة جمال الصّورة؟ لو أن الأمر فقط أغراض سحرّية واعتقادات، فإن الحاجة لم تكن ماسة لمثل هذه الألوان والتزيينات الفنية الرائعة لتلك الرسوم في الكهوف والمقابر، والتي لا نزال نتمتع ونعجب بها حتى الآن، إنها عطاء، وهذا يعني أن ذلك الإنسان أعطى أقصى اهتماماته، فيما هو عملي، ملائم وتتطلبه الحياة، وفوق ذلك كان نشيطاً بمفهوم الإبداع والنّحت وتطوير القدرات التي تكمن في داخله.

لقد عبّر العالم النفسي الألماني «كارل بوهلر» ببلاغة إذ قال: «إنها سعادة المهنة" وهذا يعني، أن العمل الذي يمارسه الإنسان يجلب معه السعادة التي تكمن في أنّ الإنسان يتعشّق عمله، ليس لأنّه يحتاج هذا أو ذاك، إنما لأنّ ممارسة الخلْق، التي تعطيها إمكانيّاته، هي التي تجلب السّعادة. وهذا بذاته له ـ بالطبع ـ نتائجه التربوية. لقد أقرت «ماريا مونتيسوري» ـ إيطاليّة عبقرية ـ أنّه بالأنظمة القديمة التي تعتمد المكافأة والعقاب قد تدرب الطفل، ولكن ليست هذه تربية، وفي غضون ذلك فإنّ تجارب كثيرة قد أكدّت أنّ الإنسان يتعلم حقاً أكثر عندما تعطيه ممارسة العمل سعادة باطنيّة أصيلة. إنني أعتقد أنّ الإنسان هو هو، يعبّر عن نفسه، عندما يعطي ما في داخله من قوى كامنة فيه.

وإذا لم يحدث ذلك، أي عندما يستعمل فقط ما عنده، وليس ما يجب، عند ذلك يفشل وينحطّ، ويصير إلى شيء لا قيمة له في الحياة، بل إلى حسرةٍ وآلام. إن السعادة الحقيقية تكمن في النشاط الحقيقي، والنّشاط الحقيقي كما نعنيه، هو تنامي القدرات المستمرّة عند الإنسان. لا تنسَ أبداً، وهذا ما يؤكده علم النّفس العصبي، أنّ زيادة معاناة وعمل الدّماغ يؤدّي إلى نموّ الخلايا الدّماغيّة. هذه الزّيادة يمكن للإنسان أن يقيسها، وهذا لا يختلف عما يحدث للعضلات التي يستخدمها الإنسان لمجهودات أكبر. لذا عند ممارسة العمل في النّشاطات الروتينيّة تبقى خلايا الدماغ كما هي وليس كما يجب أن تكون.

والآن أريد أن أضيف ـ للتوضيح ـ و فيما يخص العوامل المؤثرة، أن هناك بعض وجهات النظر من منطلقات اجتماعية واقتصادية، تؤكد أن مراحل التاريخ التي مرّت بها الإنسانية تختلف فيما بينها. يمكن لنا هنا أن نلمح أنّ مرحلة تطوّر القرد إلى إنسان قد أخذت تاريخاً طويلاً جداً... قد تكون استمرّت مئات الآلاف من السنين، وهذا التحوّل ليس خطوة محددة أو لحظة عابرة، لكنها عمليّة حدثت خلالها تحوّلات نوعيّة وكميّة بطيئة، يصعب تحديدها، ولكن ـ بالزيادة أو النقصان ـ فإن الإنسان تواجد على الأرض قبل (60000) سنة، وتطوّر ذلك الإنسان إلى الإنسان الحديث المسمّى «هومو سبينز» قبل (40000 سنة) وهنا بدأ الإنسان من جديد. إن الأمر يبدو قصيراً جداً. ونحن نسأل بأيّ شيء تميز الإنسان عن الحيوان؟ لقد كانت طريق التطور إلى الإنسان متعرجة، وأبعد بكثير عما عند القرود، إلى أن استكمل المخ تطوره. وليس الأمر هنا في استخدام

الآلات، بل هو جديد لدرجة مميّزة، ومن نوع مميّز جداً، إنه الوعي الذّاتي، الإدراك، والحيوان لديه وعي أيضاً، وعي بالأشياء. وهو يعلم ويميّز بين هذه وتلك من الأشياء. ولكن عندما خلق الإنسان، امتلك شيئاً آخر، إنه الإدراك الجديد، وبالتحديد إدراك الذّات. إنه يدرك الآن أنّه مخلوق آخر مميّز ـ مميّز حتى عن الإنسان الآخر. إنه يعيش ذاته وحسب، له إدراك خاص، إنه يفكر، إنه يشعر، وبالمقابل لا يوجد نظير لذلك في عالم الحيوان، إنه الشيء الخاص الذي يجعل من الإنسان إنساناً. ومنذ تلك اللحظة التي أخذ الإنسان يولد فيها كإنسان قبل (30000) سنة تقريباً، وهو في وضع صعب استثنائيّ، في الفاقة والبؤس، وقد صار صيّاداً يؤمّن قوت يومه، يصطاد الحيوانات ويجمع الأشياء التي يحتاجها والتي يستطيع الحصول عليها، ودون أن يطوّرها. كانت الحياة في ذلك الزمن قاسيةً يلفها الفقر، غيْر أن ثورةً كبيرةً قد وقعت، تعرف بثورة العصر الحجريّ، منذ حوالي عشرة آلاف سنة، حيث بدأ الإنسان الحجريّ بتصنيع مواد يحتاجها. لم يعد يعيش مما يصادفه في الطّبيعة أو مماّ يصطاده. لكنّه تحوّل إلى الزّراعة وإلى تربية الحيوانات، بدأ يصنّع أشياء أكثر مما يحتاج، بدأ يفكّر كيف يستثمر مهاراته وينتج ما يستطيع.

إن الفلاّح الذي نراه اليوم وهو يمارس الحراثة بمحراثه القديم، فنقول: كم هو بدائي! كان الإنسان الأول الذي عاش مع الطبيعة، وعاش بعقله، وبكلّ تصوراته الإنسانيّة وبنشاطاته التي يمارسها، وكان عليه أن يخلق لنفسه الظروف المعيشيّة المناسبة. لقد خطّط وحرص من البدء على أن يسيطر بالقدر المستطاع على الطّبيعة، ولم يستمر طويلاً بالعيش على

الزراعة وتربية الحيوانات. لقد تكونت لديه معارف، وشيد المدن، وبسرعة بدأت المرحلة التّالية للحضارة: إنّها ظاهرة التفّوق النسبي على الطبيعة من جديد... أعني التفّوق النّسْبيّ أو المرحليّ للإنسان، أي التّغلب على الفقر والاحتياجات التي كانت ضروريّة له، إن هذا التغلب ليس كافياً للتخلّص من كلّ ما كان يعيقه. هكذا تكوّنت أقليّات من الناس التي قادت المجتمع، وبدأت تنمّي مقدرتها الخاصّة، والتي استحوذت على الأفضل لنفسها، بحيث لم يبق للأكثريّة إلا القليل، والطّاولة لم تجّهز بالتساوي للجميع. هنا نستطيع أن نختصر ونبسّط، ونتكلّم عن الفائض النسبي والعوز النّسبي، والذي، منذ ثورة العصر الحجري وحتى تاريخه، كان بشكل أو بآخر سائداً ولا يزال في عصرنا، وبمقاييس مختلفة.

إن فائض الوفرة النسبيّة هو تماماً مثل السّيف: ذو حدين. على أحد الحدين قُدّر للإنسان أن ينجح بأن ينتج حضارةً، فقد كانت له الإمكانيات الماديّة ليشيد المصانع، ويقيم الدول ويصوغ فلسفات للحياة... وعلى الحد الآخر مكّن الفقر وسوء الحال الأقليات القوية من السيطرة على الأكثريات الفقيرة ومن استغلالها، رغم أنه لولا هذه الأكثرّية التي تقف وراء إنتاجيّة البلد لما تسنى للاقتصاد أن ينهض. إن الحرب ليست كما يدعي البعض، من طبيعة الإنسان، أي متأصلة في غريزة التخريب والتدمير لديه. لقد بدأت ممارسة الحروب في العصر الحجري الأول، وذلك عندما وُجد ما له قيمة لدى البعض، مما جعل الآخرين يسعون لاقتناصه، بعد ذلك أخذ الناس ينظّمون حياة جماعيّة بشكل ما، حيث يستطيعون أن يجعلوا من الحرب نظاماً لهم، يلجؤون إليه من أجل أن يقوموا بالسّطو والسّلب

لجماعة أخرى، كان لديهم ما يطمعون به.. وهناك تفسيرات كثيرة حول الحروب تستخدم لتبرير نشوئها، كأن يقول قائل: لقد شعرنا بالتهديد، مبرراً شنّ الحرب، وهذه الأعذار قد لا تتعدى حقاً أن تكون واهية ويمكن كشفها بسهولة.

هنا نصل إلى الفائض النسبيّ في حياتنا، والذي يعود الفضل فيه إلى إنجازات ما بعد فترة العصر الحجري الحديث، إلى الإنجاز الحضاري من جهة، ومن جهة أخرى إلى ما جاءت به الحروب من غنائم سلبها الإنسان من الإنسان الآخر، ومن حينها عاش الإنسان قليلاً أو كثيراً في حديقة الحيوانات. ومن ثمّ كان علم النفس الخاصّ بالإنسان، الذي يقوم على دراسته ومراقبته ومقارنته مع المرحلة التي يتواجد فيها الحيوان، حيث أن كل المعلومات عن الحيوانات قد أُسّست عنها في حديقة الحيوانات وليس في الفلاة. وبالتأكيد فإن علم النّفس قد أظهر أنّ سلوك الحيوانات داخل الحديقة هو غيره في البّريّة. لقد لاحظ السيد «صولي سوكرمان» في حديقة الحيوان في لندن، في حديقة «ريجنّز» أن السّعدان الربّاح عدوانّي بشكل كبير. وهو يعتقد أنّ هذه السّلوكية من خصوصيّات حياة هذا الحيوان. وقد علم لاحقاً أن عدة دارسين لهذا النوع من القردة قد لاحظوا أنّها في البرية أقلّ عدوانيّة منها في الحديقة. إن الوضع في السّجن يسبب لها الملل، كذلك تضييق الخناق على حريتها، وكل ذلك أدّى، إلى أن عدوانيتها تزداد، بينما لا توجد هذه العدوانية في الشّروط الطبيعيّة.

أريد هنا فقط أن أوضح: الإنسان والحيوان، كلاهما، يتصرّفان في السّجن غير ما يفعلان في عالم الحريّة. ثم أتى على الإنسان مع حدوث

النهضة الصناعيّة عهد جديد، إذ ظهرت بداية النّهضة الأوروبيّة بعد القرون الوسطى، والتي أخذت شوكتها تقوى في المئة سنة الأخيرة. وللحال فإن القدرة الميكانيكيّة للإنسان قد حلت محل القدرة الحسيّة الجسميّة. إن الآلة أنتجت القدرة التي كانت حتى تاريخه تصدر من الكائنات الحيّة. بنفس الوقت انتعشت الآمال الجديدة في أن يقوى الإنسان على استخدام هذه القوّة، بل الفائض المتوفر منها، لخير الإنسانية جمعاء وليس فقط لخير الأقلية.

لقد أعقبت هذه الثورة ثورة أخرى دعوها الثورة الثّانية، والتي يمكن أن تتميّز في أنها أحلّت القدرة الميكانيكية محل القدرة الإنسانية ومحل التفكير الإنساني. إنني أتكلم هنا عن «السوبرانيّة» القدرة الاستثنائية للآلات التي تقوم بالإنتاج ومتطلباته، وبنفس الوقت بتأمين دقّة الإنتاج. هذه الآلات تفعّل الإنتاج بشكل كبير، ويستطيع الإنسان أن يتوقع معها، أننا في حالة تنتفي فيها الحروب التي تسبب الجوع والدمار وتنشر الأوبئة التي تهلك البشرية جمعاء، كما نؤمن فائضاً كبيراً في الإنتاج: وعندها فإن الإنسانيّة لن تعاني ثانيةً من الفقر، أو من الاحتياجات الضروريّة، إنّما تعيش في نعيم، وليس في رفاهيّة سطحية، بل في نعمة زائدة تحرّر الإنسان من الخوف أمام الجوع، ومن أيّ تهديد.

والآن، هل طوّر هذا المجتمع أشياء أكثر مما كان موجوداً من قبل؟ إنه لم يطوّر حاجيات فقط، بل أوجد احتياجات جديدة. ماذا أعني بذلك؟ النّاس يتطلّبون باستمرار أشياء جديدة. هم يريدون أن يأكلوا ويشربوا، أن

يسكنوا بيوتاً جديدة...الخ. لكنكّم اليوم عندما تنظرون من حولكم تجدون أن النّاس يعطون أهميّة كبرى إلى الدّعايات، وحتى إلى مجالات تسويق البضاعة. إنّ رغبات النّاس لا تأتي من ذواتهم فقط، بل هي أيضاً قد تثار وتدار من الخارج، وهكذا يرى من هو بحالة جيدة أنه محتاج، على ضوء العرض الكبير أمامه، وما يريد الحصول عليه. ممّا لاشكّ فيه بتاتاً أن الصّناعة ستتمكّن من إنتاج كلّ البضائع المطلوبة التي تسعد الناس. نعم هكذا يجب أن يكون عندما تؤمّن بالمعايير الرائجة، أي إنها تضمن الربح. إن نظامنا الاقتصادي الحاضر ينطلق من مسألة العرض والطلب، في حين كان اقتصاد القرن التاسع عشر ينطلق من مسألة التّوفير الأعظمي. إن ما كان يعتبر عبئاً على أجدادنا، هو ما نسميه الشراء، وحيث تكون النقود متوفرة ـ وهذا ما نسميه اليوم«قناعة» ـ وعلى العكس من ذلك: من لا يعاني من نقص في احتياجاته، ولا يستدين، بل يشتري فقط الضروريات، يجعل نفسه محل ريبة، إنه إنسان يثير العجب. من لا يمتلك تلفزيوناً في أمريكا يثير الاستغراب، إنه غالباً غير طبيعي. إلى أين يؤدّي ذلك؟ إنّ تزايد الاستهلاك اللامحدود يأتي بنموذج لإنسان يكاد التبذير يكون ديناً له، هو دين الفردوس والرفاه. ويتساءل المرء كيف يتخيل إنسان اليوم فردوسه؟ إنها لم تعد انتظار عدد من الحوريات (حيث كان ذلك غاية المطلوب عند الرجال)، بل صارت مخزن بضائع كبير، فيه كل شيء يخطر ببال الإنسان، ومن أجل ذلك لديه المال الكافي لشراء كل ما يحتاج،

ولو أكثر مما لدى جاره بقليل. بمعنى أن ذلك يهزّ القناعة الذاتية للإنسان، فأن يملك الكثير، فهذا يعني له أن يكون الأفضل.

إن السّؤال ليطرح نفسه: ألم يكن ذلك كافياً، من خلال ما حصل من جنون في الإنتاج والاستهلاك؟ وبالرغم من أن أكثريّة الناس في هذا النظام الاقتصادي الحالي عندهم أكثر بكثير مما يحتاجونه، مع ذلك يشعرون أنهم فقراء، لأنهم لا يستطيعون مجاراة السرعة والكم للإنتاج. هكذا تزداد وتتوسع دائرة السلبية عند الناس، وأيضاً الحسد والشرّه، وليس أخيراً الضّعف الداخلي والاستسلام للرّغبات الدونيّة. وهكذا فإن الإنسان يعيش فقط على مقدار ما يملك وليس على مقدار قدْره، أي ما هو حقيقةً.

4- أزمة النظام البطريركي (العشائري):

كنا رأينا أنّ الاهتّمام الكبير بالاستهلاك يخلق جوّ الرفاه، وجوّ الخمول. هذا الموضوع متعلّق بأزمة منتشرة في العالم الغربيّ. أزمة أسيء فهمها تماماً، إذ يبدو أن الإنسان كان مهتمّاً بالظاهرة أكثر مما هو مهتّم في بواعثها. وأنا هنا أعني أزمة نظام المجتمع البطريركي (العشائري) المتسلّط.

ماذا أفهم من ذلك؟ دعوني هنا أذكّر بالعالِم الكبير السويسري في القرن التاسع عشر «يوهان جاكوب باخوفن»، الذي أوضح للمرة الأولى بشكل علمي تنظيمي أنّ المجتمع يتشكّل من جناحين مختلفين: جناح أبويّ

وجناح أموميّ. أي من نظامين: نظام أبوي ونظام أموميّ. كيف يختلف هذان النظامان عن بعضهما؟

في النظام البطريركي (العشائري)، وكما هو معروف من العهد القديم ومن عهد الرومان، فإن الأب كان يملك ويحكم الأسرة. وعندما أقول «يملك»، فأنا أقصد كامل المعنى لهذا التّعبير. إنّه من أسس النظام البطريركي الاستبدادي، إن المرأة والولد هما ملك خاصّ لأب العائلة، كما العبيد والبقر، وهو يستطيع أن يفعل بهما ما يشاء، لنفكر في شباب اليوم، فنرى أننا قد ابتعدنا كثيراً عن ذلك المفهوم. ولكن لا يمكن لنا أن نتجاهل أو نتعامى عن أنّ ذلك النظام قد سيطر، بأقّل أو بأكثر من العنف في العالم الغربيّ، قرابة أربعة آلاف سنة.

في نظام المجتمع الأمومي يحدث العكس، حيث شخص الأمّ، والمحترم جداً من الجميع، إذ لا يتحدث الإنسان في هذا النظام عن التسلّط، وعلى رأسه تقف الأم المقدّرة من الجميع ـ إنه شخص الأمّ المقدّس من الجميع. وبين حب الأبّ وحبّ الأمّ هناك فرق شاسع، محبّة الأب حسب طبيعتها محبة مشروطة، مشروطة بمجموعة أحكام معيّنة. عندما أقول «محبّة أبوية» فلا أعني أبداً المرجعية الجنسية من « X و Y» المحددة لجنس الجنين، بل «محبة الأب المبدئية». لقد حدد العالم «ماكس فيبر» الشكل المثالي للمفهوم بقوله: «إذ يحب الوالد ابنه غالباً لأنه يماثل توقعاته ومتطلبّاته. هذا الولد يكون غالباً مهيّأ لأن يكون الخليفة والوريث له. في النّظام البطريركي (العشائري) يكون المسعى أن يربّي الأب

الولد المحظوظ ـ وعادة ما يكون الأول، الأكبر سناً» ولكن ليس ذلك بالضرورة الحتميّة. فعندما تقرأ في العهد القديم سترى أنه يوجد دوماً ذلك الابن الغالي، الذي يكون مفضّلاً ومقرباً من والده والمختار من قبله... وهو معجب به لأنّه أيضاً يطيعه.

في نظام الحكم الأمومي تسير الأمور بشكل مختلف. الأمّ تحب أولادها جميعاً بالتساوي، لأنهم جميعاً ثمار حضنها وعنايتها. ولو كانت الأمّ لا تقترب من رضيعها إلا بمقدار تقرّبه منها وطاعته لها... فإن غالبيّة الأطفال كانوا سيموتون من الجوع، وكما نعلم فإن الرضيع لا يفعل شيئاً لإرضاء الأم، ولو كان للأم فقط الحكم السّلطوي تمارسه على الأطفال، فهذا كان سيعني نهاية الجنس البشري من الناحية النفسيّة والجسدية. الأم تحب الطفل فقط لكونه طفلها، ولهذا لا يوجد في المجتمع الأمومي مجموعات ملائكة أو قديسين، إنما لهم من الأم جميعاً نفس المحبة، وهم جميعاً يتطلبون حمايتها.

إذا كان عليّ هنا أن أبسّط الأمور، فعليّ أن أعود باختصار إلى العالم «باخوفن». ففي مفهوم الحكم الأبوي، يكون الحاكم الأعلى في البلد هو النظام، بالتالي الحكم كمفهوم مجرّد. في النّظام الأبوي العشائري تكون الرابطة هي أيّة رابطة تربط الناس ببعضهم، إنهم لا يحتاجون إلى دراسة أو إلى قوة تخلقهم، إنهم هكذا بكل بساطة موجودون. إذا أردت أن تخصّص وقتاً من أجل أن تقرأ «أنتيغوني سوفوكليس» فسوف تجد ما قد حاولت هنا توضيحه، لكن بشكل أوسع وأكثر متعةً. ستجد كيف عرض

الصّراع هنا بين النّظام العشائري الأبوي ـ والذي جسده «كريون» ونظام الحكم المادّي الذي يمثّله «أنتيغوني». بالنسبة لـ«كريون» فإن قانون البلد يتصدّر كلّ شيء في البلد، ومن يقف ضد القانون يجب أن يلاقي الموت. في حين أن «أنتيغوني» يتبع النّظام الذي يقوم على صلة الدمّ والإنسانيّة والمشاعر المتبادلة، حيث لا يجوز لأحد أن يتعدّى حرمة هذه الأعراف التي تتفوّق على كلّ القوانين، هذه المسرحيّة تختتم بإسقاط النّظام الذي نعرّفه اليوم بالنظام الفاشيّ. إن «كريُون» يعرض اليوم كقائد فاشي نموذجي: يؤمن فقط بالقوة، بالدّولة وبالنّظام الذي تخضع له كل النّزعات الذّاتية الخاصّة.

في هذا الإطار يأتي دور الدّين. دين العالم الغربي ومنذ العهد الأول، هو دين عشائري متسلط، وفيه الربّ هو المسيطر المطلق وعلى الإنسان الطّاعة الكاملة، وهذا يتناقض تماماً مع البوذية التي ليس لها مثل هذا الحكم المتسلط. ومن خلال الارتباط الكبير مع نظام الحكم الأبوي العشائري المستبّد يتضح مدى تقبّل والتزام ضمير المجتمع مع أنظمة الحكم المطلقة. لقد تكلم العالم «فرويد» عن الذّات العليا «فوق الأنا» وكان يعني ترسيخ قاعدة الأمر والنهي للأب ـ الإله: إنني لن أهمل شيئاً، إذ أقول إنّ الأب الإله قال لي: لا يسمح لك أن تفعل شيئاً، وأكثر من ذلك فقد تمثّلت الأب في داخلي، الأب حاضر في داخلي يأمر وينهى. لكن في الأساس فإن هذا الأمر والنّهي، ومدى صلاحيتهما تعود فقط للأب (الإله).

بتحديد «فرويد» ووصفه للضمير عند الإنسان في المجتمع الأبويّ العشائريّ المتسلّط، كان محقاً، وقد أصاب كبد الحقيقة، ولكن لم يكن

مصيباً عندما قام بوصف الضّمير فقط، مهملاً علاقة هذا الضمير مع المجتمع، ذلك أنّه في المجتمعات التي ليست سلطويّة عشائريّة، توجد أشكال من المثل الأخلاقية، والتي لن أعرّج عليها هنا. ولكن مع ذلك لابّد من الإشارة إلى المشاعر الإنسانية المجافية للنظم الاستبدادية. هذه المشاعر النّبيلة تتجذّر في ذات الإنسان، وتفجر طاقاته، بشكل جيد ومنظور: هذا النداء غالباً ما يكون ضعيفاً، وغالباً لا يراد له أن يُسمع. لكن، كما في مجال علم النّفس وفي علم الفيزيولوجيا، فإنّ علماء بحّاثة قد أثبتوا أنّه يوجد هناك ما يشبه «صحوة الضّمير». إذا استطاع الإنسان أن يسيطر على البواعث في داخله، فلا يمكن أن يخضع لسلطة أخرى. إن نداء الدّاخل لديه يجعله يسير باتجاه هدف، رصد له القوة جسميّاً ونفسيّاً في دخيلته، آمراً: هنا الاتجاه الصحيح فاتبعْه، وذاك هو الاتجاه الخطأ فتجنّبْه!

على الإنسان أن يفكر في كلّ ذلك، عندما يدور الحديث حول النّظام الأبوّي العشائريّ، هنا نجد أنفسنا نواجه حالة مميزة تستوجب الاهتمام. في الغرب نجد أنفسنا في طريق الحلّ للعادات والتقاليد السّائدة، هذا الحل يكون ـ كما كنت ألمحت سابقاً ـ من حيث أن هذه المشكلة ذات علاقة ما مع المشكلة المتمثّلة في ظاهرة الرّفاه التي نعيشها الآن. دعوني أحاول توضيح الأمر: بقدْر ما يُكره المرء أكثر على التخلّي عن رغباته، بقدر ما يُكره على الخضوع للاستبداد وعلى ألاّ يثور ضد هذا الإكراه الظّالم الذي يلزم الإنسان بالإقلاع عن أي رغبة أو تقليد، والذي يظهر وكأنه صادر عن إله، أومن الدّولة، أو من سلطة عليا، بحجّة أن ذلك تفرضه الضرّورة. وحين لا تُؤدي الطاعة المطلوبة بدون تردّد، أي عندما لا يرغب الناس في

تقديم الطاعة فيقلعون عمّا يرغبون... فإن ذلك يكون في منتهى الخطورة لكل نظام اجتماعي. إن الطّاعة تمثل عاملاً حاسماً في تكوين المجتمع. إنّ المجتمع ـ كما هو ـ لا يمكن له أن يستمر في وجوده، عندما لا تكون أعراف الطاعة والعزوف عن الأهواء متجذرة فيه، من خلال الآلية النفسيّة والبنى الاجتماعيّة. لكن عندما تنمو ظاهرة التّرف، فإن الإذعان لضرورات الطّاعة والإقلاع عن المحظورات، يأخذان في التّلاشي. لماذا يخضع الإنسان للسلطة التي تعني الخضوع لقوانين الطّاعة والتنازل عن الرغبات، في حين يمكن له أن يحصل على كلّ ما يريد تقريباً؟ هذا واحد من أسباب الأزمة.

هناك سبب آخر أيضاً يكمن في تكنولوجيا الإنتاج، في الثّورة الصّناعيّة الأولى في القرن التّاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حيث كان الإنسان لا يزال يستخدم الآلات القديمة، وكان على العامل أن يخضع للقوانين، لأنه فقط من خلال عمله كان يمكن له أن يحمي عائلته من الجوع. إن مبّررات الإكراه على الطاعة لم تزل قائمة. ولكن بدأ كل شيء يتغيّر بسرعة، لأنّ تكنولوجيا الإنتاج بدأت تتغير بسرعة، من تكنولوجيا إنتاجيّة بواسطة الماكينات إلى التكنولوجيا الحديثة المتطوّرة، إذ لم يعد هناك مبرّر لأن يفرْض نفسه أي شكل من أشكال الحكم المتسلّط، كما تطلّبت الأمور في القرن الماضي. الآن يعمل الإنسان حسب آلية عمل مرسومة ويناور مع الآلات، بحيث أنها تصلح نفسها بنفسها. لقد استُبدلت الإطاعة السابقة اليوم بنظام متطوّر لا يتطلب الخضوع للأوامر، مع وجود الآلات الذكيّة التي يلعب بها الإنسان، كما في لعبة الشطرنج. ولئن كان في ذلك مبالغة

ما، فالحق يقال إن الاعتماد على التّكنولوجيا أصبح كبيراً. لقد تغيّرت علاقة التبعيّة السابقة في العمل، حيث ضعفت كثيراً، وأخذ نموذج العمل المشترك يعتمد على التعاون المتبادل الذي يفرض نفسه. وبما أنّه ما من شيء يتّم بشكل مثالي وإيجابي كامل، كما يشاع غالباً، وكما أراه شخصيّاً، فإنني أود أن أعلن هنا أنني لن أزعم أن تكنولوجيا الإنتاج الحديثة قد حرّرت نفسها من كل العيوب، وأنها تستطيع بشكل كامل السيطرة على نفسها. أي إنني أريد أن ألفت النّظر إلى أنّ متغيّرات أساسيّة ـ بالقياس مع الماضي ـ قد حدثت فعلاً.

هناك سبب وجيه آخر، حسب رأيي، لأزمة نظام السّلطة الأبوية، يجب الكشف عنه، في الحقيقة الواضحة وفي طبيعة الثّورة السياسية.

منذ قيام الثورة الفرنسية شاهدنا ثورات عدة أخرى، لم تعط ثمارها كاملة كما كان منتظراً أو مقدّراً، لكنها ـ في كل الأحوال ـ قد هزّت بعنف الأنظمة القديمة، وقبل كلّ شيء، جعلت علاقات النظام البطريركي (العشائري) السلطوي السابق محل شكّ وتساؤل، مسألة الطّاعة، الطّاعة ـ قضاء وقدراً، الطّاعة العمياء التي لم يكن بدونها للنظام الإقطاعي أن يفرض نفسه، وبالتّالي أخذ ينهار شيئاً فشيئاً. لذا فإن نجاح الثورة بشكل جزئي على أقل تقدير كان البرهان على نجاح حرّية الإنسان.

في النظام الأخلاقي المتسلّط ثمة خطيئة فقط، هي العصيان، وثمة فضيلة، هي الطاعة، وليس هذا مقبولاً. هكذا ببساطة، وفيما عدا بعض

دوائر ردود الفعل ـ لكن من منطلقات أساسية تكمن خلف التربية، خلف القواعد الأخلاقيّة في كلّ مكان ـ يبدو بجلاء أنّ العصيان هو داء الوراثة.

عندما تقرأ في العهد القديم ماذا فعل آدم وحواء، فإن ذلك لم يكن بالمطلق قدراً، بل بالعكس: لقد أكلا من شجرة المعرفة وفتحا بهذا العمل طريق الحياة الإنسانية... لكن ذنبهما كان: العصيان. هذا العصيان للخالق كان المبرر ليكون الإنسان ابن الخطيئة الأولى الموروثة. والعصيان هو في الحكم الأبوي العشائري الخطيئة الأساس. لكن مع الأزمة، مع السّقوط الكلي، مع دخول الحكم الأبويّ العشائري في حيّز أن يكون أو لا يكون، أصبح أيضاً مصطلح الخطيئة موضع الشكّ والتسّاؤل، وسوف أعود لذلك ثانية.

إلى جانب ثورة الهويّة الوطنيّة، وثورة العمّال، قامت ثورة هامّة جداً هي ثورة المرأة. قد تأخذ هذه الثّورة أشكالاً غريبةً، لكن علينا أن نعترف أن ثورة المرأة قد تقدّمت خطوات هامة. لقد كانت النساء والأطفال ملكاً للرجال، والآن تغيّر الوضع. مع ذلك هنّ لازلن بالنسبة للرجل أقل حظوة، كما في الرواتب، وبالرغم من ذلك فإن مركز المرأة، شخصّيتها قد تدعمت. كل شيء يشير إلى أن ثورة المرأة هذه إلى الأمام ستمضي، تماماً كثورة الشّباب والأطفال. وسوف تنال النساء حقوقهن ويقمن بتنفيذها والدفاع عنها.

وأخيراً، فالسبب الأخير لأزمة النظام الأبوي العشائري المستبّد والأهّم في اعتقادي أنه: منذ منتصف القرن الحالي (العشرين) يؤكّد الجميع، وبخاصة الشّباب، أن هذا النظام قد أظهر ضعفاً. ومن الطبيعي أن يدّعي

هؤلاء أنهم أحرزوا منجزات خياليّة، حيث لم تستطع التّقنيّات بلوغها، وهذا بالطبع ليس إلا جانباً من الحقيقة، لا أكثر. والحقيقة الأخرى هي أن هذا النظام قد أظهر ضعفه في أن يمنع حدوث حربين عالميتين كبيرتين وحروباً أخرى. أجل، هذا النظام استطاع أن يشجع حدوث، بل وتأجيج أوضاع، كان من شأنها إدارة مذابح بشرية في العالم. لم يحدث في التاريخ أن كان علينا أن نسجل تخريباً مدمراً للحضارة والمجتمع كما نراه اليوم، وهكذا كان العجز مذهلاً حينها، بحيث لم يكن من إمكانيّات فنيّة متوفرّة للخداع وإخفاء الحقائق.

إذا كان المجتمع الذي يعوم بالرفاه والذي يستطع تحمل النزول على ظهر القمر... لم يستطع الحؤول دون أخطار الدمار الشامل، فعلى هذا المجتمع أن يرضى بأن يوصف بأنه مجتمع عاجز وغير كفؤ. هو غير كفؤ من وجهة نظر الدّمار الاقتصادي الذي يهدد حياة الإنسان. إن مآسي الجوع ماثلة أمامنا في الهند، في أفريقيا وفي كلّ العالم الصّناعي، ولكن لم تحدث أشياء فيما عدا بعض الخطابات أو الإيماءات. نحن نتخفى، أو نعيش هناك، وكأنه ليس عندنا الحكمة في أن نرى العواقب الوخيمة. إنه النقص في الكفاءة... هذا النقص الذي أدى إلى أن يُضعف ثقة جيل الشّباب بنا. وأنا أعني، أنه برغم إمكانات مجتمعنا فإنّ نقص الكفاءة في التّعامل مع أهم المشاكل، قد ساهم في أنّ الإنسان لم يعد يثق بالمجتمع الأبوي العشائري المتسلط.

قبل أن أصل إلى نتائج الأزمة التي عرضناها، أريد ـ وبشكل صريح ـ أن أعلن، أن مجتمع الرفّاهية، وأيضاً في المجتمع الغربي، يتمثل بالطبع

بشكل جزئي فقط. حتى في الولايات المتحدة الأمريكية، فإن حوالي 40% من الشعب يعيش تحت مستوى خط الفقر، وهذا يعتبر مؤشراً كافياً: هناك طبقتان في المجتمع حقاً: إحداهما تعيش في الرفاه الزائد و الأخرى، حبذا لا نتكلم عن الفقر الذي تعيشه الطبقة الأخرى. في زمن «لينكولن» كان المرء يبحث في قضية الحرية والعبودية، أما اليوم فنحن ملزمون بالحديث عن الرفاه الزائد وعن الفقر المدقع في المجتمع في آن واحد.

كل ما ذكرته هنا عن الاستهلاك اليوميّ للمجتمع، لا ينطبق على أولئك الناس الذين يعيشون في الفقر، بالرغم من أنّ هذا الشّعب مأخوذ بالتصورات الجميلة لأولئك الذين تسمحُ لهم أحوالهم الفارهة بحياة النعيم. إن الفقراء هم فئة «الكومبارس» في مسرحيّة الحياة. والأمر نفسه ينطبق على الأقليّات الشعبية، في الولايات المتحدة وبخاصة على الملّونين ـ وهذا بالتأكيد ينطبق على ثلثي سكان العالم ـ التي لا تكسب في حياتها المعيشية (الكفاية)، في المجتمع العشائري السلطوي، وهذا ينطبق على الهنود، على الصّينيين، على الأفارقة..الخ. ولكي نقيّم الأمور بشكل سليم فيما يخصّ الفئة الحاكمة وليس الأغلبية المحكومة، علينا أن نكون على بينّة من أن الطّبقة الاجتماعية المرفّهة هي الآن كما في السابق تحكم وتدير، لكن عادات أخرى مختلفة تماماً ظهرت إضافة إلى قوى جديدة تقف مواجهة لها، ونراها في حياتنا، وستبقى مستمرّة.

5- إخفاق الدّين:

على الرغم من أن غالبيّة الناس سيجيبون على سؤال عام يطرح على الجميع، عما إن كانوا يؤمنون بالله، وعلى الرغم من أن وجود الكنيسة لا زال محترماً، وأن الإلحاد لازال حالة نادرة، فإنه لا يمكن التغاضي عن أن الدّين شريك واضح في معاناة النّاس من الأزمة التي حلّت بالمجتمعات البطريركية المتسلّطة. لقد أدرك رجال الدّين أدركوا وأعلنوا أن الدين، كما نعرفه، يتطوح. وقد بدأت. هذه العمليّة منذ مئات السنين وهي آخذة بالتسارع كلما تقدم بنا الزمن.

وبما أن للدين نشاطات، فإن فشله مضاعف النتائج. إن الدين النابع من التقاليد المسيحية اليهودية يحمل مهمّة توضيح الظّواهر الطبيعيّة، وله أيضاً مهمّة أخلاقيّة. هاتان الوظيفتان لا علاقة للواحدة منهما بالأخرى، وكما تعلمون فإن الطبيعة شيء هنا وشيء هناك مختلف تماماً. بعضه ذو صفة أخلاقيّة والبعض الآخر ذو صفة ماديّة. في البدء لم تكن الوظيفتان منفصلتين البتّة. وكان لذلك أسباب عدّة، فقبل كل شيء كانت فكرة خلق الكون من قبل إله هو ذروة الإبداع وأقصى الحكمة وغاية القوّة، إنها في الحقيقة فرضية حكيمة نيّرة. وأنت ـ كأحد المقتنعين بالأفكار الدّاروينية ـ فيما يتعلق بنشوء الكون والتطور البشري، من حيث أنه قد حصل من خلال نظريّة الارتقاء، أو بسبب التغيّرات الجينية حسب نظرية التّطور المذكورة، وهكذا لا يزال يظهر حتى الآن، وكأن نظريّة خلق الله للكون أقرب بكثير للفهم والإقناع، وبالتّالي الاعتراف بها أكثر من الاعتراف بأن

الإنسان كما هو اليوم، ثمرة ملايين السّنين من التطور الذّاتي في طريقة معينة طبقاً للتصرف أو لقوانين التّطور الطبيعي. إن قوانين «داروين» للتطور الطبيعي تظهر منطقيّة ومعقولة، لكنها بقيت بالنّسبة لقناعاتنا غريبة.

لقد كانت الحاجة عند الإنسان ومنذ العهود السّحيقة هي أن يكوّن لنفسه صورة عن نشأة الكون. ومن قديم الزمان ـ على سبيل المثال ـ تصوّر الإنسان كيفيّة نشوء الكون على هذا النحو: لقد أُميتَ شخص ما، ثم أُهرق دمه، ومن هذا الدّم صنع البشر، كلاً، ليس جميع البشر، بل فقط الشّجعان، الجبناء والنّساء لم يخلقوا من الدّم، بل صنعوا من لحم الرّجلين. إنّها النظرّية القديمة للعالم «كونراد لورنس»، من حيث الميل عند الإنسان للقتل، ولبعث الحياة من جديد. لكن هؤلاء الّذين صدّقوا نظرّية الأسطورة الدينيّة، ورأفة بالنّساء الجديرات بالحبّ، رغبوا بأن تستثنى النّساء من قصة الدم تلك. وفي كل الأحوال، وللأسباب المذكورة، وضعت النساء مع الجبناء في قدر واحدة. وحتى هذه الأيام لم يتغير شيء حول هذا المفهوم. فبعد هذا الحكم المجحف المتحيز للمجتمع الأبويّ الصّارم اعْتبر أن المرأة ذات وعي متخلّف، فالنساء قليلات القيمة، جبانات، وأقلّ واقعيّة وجدّيّة من الرجال كما هو معروف. إن ذلك ضلالة، وفي أحوال كثيرة تجد الأمور عكس ذلك تماماً. إن غالبيّة النّساء يعلمن أن الرّجل، عندما يكون مريضاً، يكون خائفاً. هو بالتّأكيد أكثر معاناة للألم، وأقل مقاومةً للمرض من المرأة «ولكن ذلك لا يقال احتراماً للأعراف الدّينيّة». وما يجري هنا ينطبق على ما يجري في الدّعاية العرقيّة: ما يقوله البيض عن الملّونين يوازي تماماً ما يقوله الرّجال عن النساء، حتّى

أنّ العالم «فرويد» يدّعي: النّساء أقلّ أخلاقاً من الرّجال. والآن، كيف يمكن لأحد أن يكون أقل أخلاقاً من الرجال؟ إنه لشيء يصعب تخيّله!

طبعاً هذا ليس إلاّ إعلان دعاية حول القيمة المتدنّية للأعداء، التي يجدها المرء في كلّ مكان، حيث يوجد جماعة تسيطر على جماعة أخرى، ولذلك تسعى إلى أن تبقى معنويّات الجماعة المحتلّة تحت القهر من أجل ألا يحدث تمرّد. هذا لم يكن إلاّ ملاحظة.

لقد كان ذلك فقط حاشية عن وظيفة الدّين، من أجل توضيح الطبيعة. وهذه الوظيفة أدّت رسالتها بشكل جيّد، إلى أن اكتشف «داروين» أن الإنسان بشكل منطقي وعلمي يلاحظ: أن خلق الكون، وخلق الإنسان يمكن تفسيرهما بدون فكرة الخالق، أي بالاستناد إلى قوانين التطوّر. لقد قلت للتوّ: إنّه يمكن للرجل العلمانّي أن يتصوّر بصعوبة كبيرة غير فكرة الإله، لكن بالنسبة للعلم يجب ألاّ يكون خلق الكون لغزاً بعد الآن. فبالاستناد إلى نظرّية التطوّر فإن «الإله» يصير إلى نظرّية افتراضية، وهذا أمر يحتاج للبحث والتّدقيق، والحديث عن خلق العالم والإنسان يصير إلى أسطورة كهنوتّية (ميثولوجيا)، إلى شعر، إلى الرّمز الذي يفسّر، ولكن ذلك لا يمثّل الحقيقة.

وفي الوقت الذي لم يعد فيه الناس يطالبون الدين بأن يوضّح الظّواهر الطبيعيّة، فإن الدين يكون بهذا قد فقد إحدى ساقيه، وبقي له أن ينادي بالمسلّمات الأخلاقية: «أحبّوا جيرانكم» و«أحبّوا الغُرباء»، هكذا تكلم العهد القديم. «أحبوا أعداءكم!»، هكذا تكلم العهد الجديد، «اعطِ الفقير آخر

قميص لديك». إذا رغب الإنسان أن يأخذ هذه الوصايا بجدية، فكيف يستطيع أن يكون رجلاً ناجحاً في المجتمع الحديث؟ إنه يمضي بذلك إلى الجنون، يتسلّق سلّم النجاح ليس للأعلى، ولكن للأسفل. إن أخلاقيّات الإنجيل ترتّل، لكنّها لا تطبّق. وهكذا نسير في حياتنا على سكّتين: الإيثار والغيريّة، على الناس أن يتبادلوا المحبّة، وبنفس الوقت فإن مطالب النّجاح تعوق تحقيق هذه الفضائل. عليّ هنا أن أضيف باختصار، أن الإنسان برأيي يمكن له أن يكون مسيحياً جيداً أو يهودياً جيداً، أي أن يكون إنساناً فاضلاً، بدون أن يجوع في هذا المجتمع. هذا متعلّق بمقدرته الذّاتية، وبالشّجاعة الأدبية لديه التي يحتاجها لكي يستطيع أن يبقى في واقع الحياة والمحبّة، وذلك بدون أن يضطر للتضحية بنفسه وبمنجزات حياته. ومع ذلك، فالحقيقة هي أن القيم الأخلاقية عند المسيحيّة أو عند اليهود ليست واحدة بخصوص أخلاقيات النّجاح، اللامبالاة، المصالح الخاصة، وبمسائل الأخذ والعطاء. خارج ذلك ليس بي حاجة إلى أن أتكلم طويلاً، كل واحد منكم يعلم متى يحتكم إلى هذه الأسئلة.

فوق ذلك فإن ثنائية سكة الطريق بحياتنا قد تمّ وصفها والتعليق عليها بما فيه الكفاية.

وباختصار: فإن المثل الأخلاقيّة التي تمارس في النّظام الرأسمالي قد بترت الرجل الثّانية للدين. فالدّين لم يعد يمكنه أن يكون ممثّلاً للقيم،

حيث أنّه لم يعد موثوقاً به لدى الآخرين. وهكذا فإنّ الإله قد أُعفي من أن يكون الخالق للكون، وكذلك من أن يكون هو الباعث للمحبّة والمسيطر على الشّهوات، ومع ذلك يبدو وكأنّ الإنسان لا يستطيع الحياة بدون الإله ولا حتّى يريد ذلك، إنّه لا يعيش فقط من الخبز. عليه أن يكون لديه كَشف روحي، اعتقاد يحرّك رغباته وميوله الدّاخلية، ويترفّع به عن غرائزه الحيوانيّة. إن السّقوط ثانية في الوثنية القديمة مع ممارسة عبارة الأوثان ليس جذّاباً أو محبّباً في أيامنا الحاليّة، وعلى الرغم من ذلك أعتقد أنّه بإمكاني القول إنه في القرن الحالي (العشرين) سيتشكل دين جديد، أحب أن أسميه «دين التكنولوجيا».

دين التّكنولوجيا هذا له هدفان: الأوّل بلوغ دار النّعيم، أي حلم تحقيق السعادة المطلقة، وذلك بالحصول على الحاجيات والمتطلبات بدون عوائق أو حدود. الحاجات جميعها يعاد تصنيعها دوماً، أي بدون توقف ولا حدود، والإنسان كالرّضيع الدائم، ينتظر وفمه مفتوح، يتلقّى طعامه بشكل دائم وبلا توقّف. هذا الفردوس يتنعّم فيه الإنسان بتلذذ مطلق. نعم الرّفاه الزائد، النّعيم إلى درجة الخمول والملل. هدف التكنولوجيا هو إزالة الجهد والتعب.

الهدف الآخر لهذا الدّين ـ دين التكنولوجيا ـ معقّد. إن الإنسان ومنذ بداية النّهضة الأوروبيّة ركّز تفكيره على اكتشاف أسرار الطبيعة وفهمها، لكنّ أسرار الطّبيعة كانت بنفس الوقت أسرار من خلقها ولو بشكل جزئيّ. لأربعمائة عام استخدم الإنسان كل قدراته من أجل معرفة ألغاز الطّبيعة

وللتحكم فيها وتسييرها، وقد كان أعمق الاهتمام هو المتعلق بالطبيعة وبالكون، ليس فقط بالنّظر إليه بعين فاحصة، ولكن بمحاولة صنعه، وأنا هنا، وبتطرف، عليّ أن أقول: إنه صعبٌ جداً أن نجد المعادلة الصحيحة: الإنسان يحاول أن يكون ربّاً، وما استطاعه الربّ يستطيعه هو أيضاً. أنا أعتقد أن هذه المسرحية، التي شاهدناها، والاندهاش الذي رأيناه عندما مهر ملاحو الفضاء سطح القمر بأحذيتهم، كانا عمليّة وثنّية، كان ذلك هو الخطوة الأولى على الطريق التي عليها يتأله الإنسان الذي أصبحت له الجرأة على أن يتجاوز حدوده، حتى في الصحف المسيحيّة استطاع المرء حينها أن يقرأ: إنّها الظّاهرة الأعلى منذ خلق الكون. والآن، بالنسبة للإنسان المسيحي، لم يعد الحذر يتملك به كي يؤكد، أنه بعد عملية خلق الكون فقد كانت الظاهرة هي الأكبر في تتويج الإنسان للألوهية. لكن في هذه اللّحظة نسي الإنسان حيث عايش بشكل شخصيّ وحقيقيّ، أنّه قد تجاوز قوانين كانت متحكمة فيه، حيث تحرّر من قوانين الجاذبّية الأرضية... والآن يتحرُك في ممرٍ ضيّقٍ محدد إلى اللانهاية.

يبدو بعض ما أقوله هنا غريباً أو مبالغاً فيه، لكنّي ألفت النظر إلى نواحٍ، لا تزال متخفيّة تحت السطح. هل البهجة العارمة في الهبوط على القمر لا تعدو كونها تصفيقاً للنجاح العلمي الذي قلما حقق الإنسان مثله؟. لقد حقق الإنسان اكتشافات مذهلة أخرى، ولكن لم يحرّك ساكناً (ولم يستدرج القطة من خلف الفرن)...كلاّ، لقد حدث شيء جديد، شكل جديد ضدّ التقيد الدّيني، أخذ يشقّ طريقه، حيث يتجلّى الإله الجديد في

التّكنولوجيا، أو في أن يصير الإله الجديد نفسه إلهاً، ورجال الفضاء هم رجال الدين الجديد. لذلك كانوا محلّ إعجاب واحترام كبيرين. لكن على الإنسان ألا يوافق، لأن هذا الإنسان هو مسيحيّ أو يهوديّ أو أي شيء آخر، لكن ليس وثنيّاً. لذلك يجب أن يخفي الأمر ويتعامل معه بالمنطق والتّفكير. لكن ـ كما أعتقد ـ وراء كل هذه التّمثيليّة (لعبة الغميضة) يتشكل دين جديد، وفيه تتحوّل التّكنولوجيا إلى أمّ كبيرةٍ تطعم كلّ صغارها وتسعدهم. أعلم أنّ ذلك كله صعب، فالدّوافع التي منها سينبثق هذا الدّين ليست خالصة نقيّة تماماً. لكن في هذه الحالة لا يعلن الدين الجديد عن أسس دينيّة أخلاقيّة ـ فيما عدا واحدة ـ أنّ على الإنسان أن يعمل، وكل ما هو فنيّ ممكن. لأن الإمكانيّة الفنيّة تصبح هي الواجب الأخلاقيّ، وتصبح هي نفسها مصدر الأخلاق.

لقد قال «دستويفسكي»: «عندما يموت الإله، فإن كل شيء مسموح، معتبراً أن الأخلاق حتى الآن تقوم على الاعتراف بوجود الإله. فإذا لم يعد الإنسان مؤمناً بالإله، فالإله بالنسبة له لا يمثل واقعاً، أي لا حقيقة له تستوجب التفكير فيه والصلاة له. وهذا يستدعي السؤال التالي: هل يعتبر الإنسان هنا غير أخلاقي بكل المقاييس، أم إنه لم يعد ملتزماً في أيّ من المعايير الأخلاقية؟ يجب أخذ كل هذه الأسئلة بجدّيّة. أما إذا أراد الإنسان أن يكون متشائماً، أي بمعنى أن ذلك قد حدث فعلاً، فإن المعنويات لدينا تتهاوى بشكل مستمرّ. ثمة فوارق فعلاً بين أمس واليوم، على سبيل المثال: كان على المرء عام /1914/ أن يراعي قاعدتين

معتمدتين عالمياً: عدم تشويه المدنيين في الحروب وعدم تعذيب النّاس. في أيامنا هذه كما هو معروف للجميع، وفي الواقع: يُقتل المدنيون أثناء الحروب، لأن تحديد استعمال القوة لم يعد معمولاً به. التّقنيّة لا يمكن لها حالياً أن تأخذ بهذه الفروقات، هي تقتل من خلال كبسة ذر. وبما أن ما يجري في الجهة المعادية غير معروف، فإن نداءات الاستغاثة وطلب الرحمة لا تفيد. وثانياً: التعذيب قائم. علماً أن الكثيرين يشكّكون في ذلك. ولكن هذا معلوم للجميع. إن التعذيب منتشر بشكل واسع من أجل نزع الاعترافات، وسنصاب بالدّهشة عندما نعلم كم هو عدد البلدان التي يجري فيها التعذيب. قد لا يكون صحيحاً أن التعذيب قد ازداد، ولكن هذا لا يعني نكران أن المشاعر الإنسانية قد تناقصت ومعها المشاعر الأخلاقية.

لقد جلب معه كل ذلك تغييرات كبيرةً في العالم، وفي الجهة الأخرى نلاحظ ـ وبخاصة لدى الناشئة ـ أن أنظمة أخلاقية عديدة قد اختفت، بعض منها في الصراع من أجل السّلام، من أجل الحياة، ضد التّخريب، وضدّ الحرب. وهذه ليست أساليب وطرق جديدة، ولكنّها تبني قيماً وأهدافاً لكثير من الشّباب (وآخرين أيضاً). فملايين الناس أصبحت لديهم حساسيّة كبيرة ضدّ عمليّات الإبادة الغاشمة لحياة الآخرين، ضدّ الحروب اللاإنسانيّة، التي لا تهتم أبداً بالحفاظ على بقاء الجنس البشري. كما أن هناك قيمة معنويّة جديدة للحبّ، على عكس ما يعني المفهوم الاستهلاكي. هذه القيم تعلن عن نفسها. قد تكون تغيّرت بمظهرها هنا أو هناك، ولكن باحتجاج عنيف ضد ما أصّابها من تهميشٍ وتفريغٍ لشكلها

ومضامينها. وهناك أيضاً التضحيات الذّاتيّة في مجال السّياسة، على خلفية جديدة، تتمثل في صراعات هائلة وكثيرة من أجل التّحرير ومساع حثيثة من أجل تقرير المصير. وتتشكل الآن تطوّرات، ومن أجلها أعتقد، أنّ «دوستويفسكي» لم يكن على صواب، عندما ربط المبادئ الخلقيّة مع الاعتقاد والإيمان بالله. إنّ البوذية هي مثال نيّر، من حيث أنّ في بعض الحضارات أسساً وقواعد حضاريّة بدون أساس سابق لأنظمة عشائريّة سلطوية. فالسّلطة البوذيّة تستند ـ إن أردتم ـ على أساس إنسانيّ. هذا يعني أنّ الإنسان لا يمكن أن يعيش، بل يكون مضطرباً وغير سعيد، عندما لا يعرف نظاماً، يكون فيه له وللحياة من حوله نظام يصلح لاستمرار حياته. هذا النظام لا يجوز أن يفرض عليه من الخارج، إنما يجب أن يكون نابعاً من شخصه ولشخصه. وهنا لن أستطيع الآن الخوض في الأشكال المتنوعة لهذه القضيّة. لكنّني سأشير كما كنت ألمحت سابقاً إلى للإنسان في دخيلته حاجة متجذّرة، وعليه التّعامل معها: بدون أخلاق يفقد الإنسان توازنه ويفقد انسجامه النفسيّ والمعنويّ. والأمر غير أخلاقي، عندما يطلب منه ـ بذريعة الفضيلة والأخلاق ـ أنّ عليه أن يقتل أحداً وأن عليه أن يطيع الأمر، وأنّه فقط بذلك يستجيب لرغباته. وإذا أسكتت هذه النداءات فقد يؤدّي ذلك إلى أن صوت ضميره ـ صوت الضميّر الإنسانيّ فيه ـ لا يعود يُسمع. فهنا قد تحضر لأحد ما الفكرة القاتلة بأنه، عندما يكون الإله ميّتاً، فإن كل شيء مباح.

6- ضدّ تحديد النسل:

في أزمة مأساة الأخلاق الإنسانية، التي نعيشها حالياً، يلعب جيل الشّباب دوراً مميزاً. إنّني أفكر بشكل خاص بالمتطرفين من بين الشباب الواعين. وأنا هنا لا أعني بكلمة في كلمة (متطرف) أولئك الذين يسمون أنفسهم هكذا، ويظهر أنّهم يعتقدون أن تسويغ القوّة من أي نوع يعطي الحقّ لهذه القوّة بأن تتقلد اسم المتطرفين. إن كثيراً من الشباب هم بالأحرى أطفال عوضاً عن أن يكونوا متطرفين، كما كان الزعيم الروسي لينين قد أوضح في محاضرته بعنوان: أمراض الطفولة في الشيوعية.

لكن يوجد جماعات كثيرة ضمن هؤلاء الشّباب ليسوا متطرفين في مطالبهم السّياسية إلاّ في نقطة واحدة، والتي تلتقي مع محاضرتي السابقة برفض السلطة الديكتاتورية. هذا الموقف لا يناقض فقط الحكم المطلق (إذ من المعلوم أن الأحكام الديكتاتورية قد رفضتها كل الثورات) لكنه ضد النظام الأبوي المتسلط والأنظمة المتجذرة فيه، والتي تعتبر طاعتها فضيلة وعصيانها رذيلة. نتيجة لهذا النظام انبثقت ظاهرة ذات أهميّة كبيرة هي: إنّ المرء يعاني كثيراً من مشاعر الذنب عندما لا يقوم بما يتوجّب عليه القيام به، أي ذلك الذي كان عليه أن يؤديه حسب ضميره وحسب أحاسيسه الخاصة، وحسب مشاعره الإنسانيّة، فقد وقع تحت كابوس نظام حكم، يظهر فيه وكأنّه قد خالفه، وبالتالي عليه أن يدفع ثمن ذلك بسبب الذّنب الذي يقضّ مضجعه. لقد تشكّل عندي انطباع بأن محاولة التحرّر من ظواهر الشعور بالذّنب، التي تسبّبها السّلطة الحاكمة، كانت

الصفة المميزة للجيل الشّبابي، والتي كانت بالنسبة لكثيرين، ولي أيضاً، محل الرّضا والتّقدير. هذا التحرّر وضع حداً للشعور بالذنب الذي حُقنت به الشُعوب الغربية، طبقاً للتّقاليد اليهودية والمسيحيّة وعلى مدى ألفي سنة تقريباً، وفيه ومن ضمنه أيضاً الخوف من الخروج عن تلك القيود التي كانت قد حدّدت تعاملنا في المستقبل. لقد وضع هذا الجيل المعاصر نهاية لذلك العهد جملة وتفصيلاً، بدون أن يصبح بسبب ذلك خارجاً عن الأخلاق... وأكثر من ذلك، انطلق جيل الشباب ليقوم بالبحث عن أنظمة أخلاقية جديدة وجيدة للتعامل بها.

هنا يجب أن نذكر ظاهرة جديدة، أعتبرها ظاهرة جيّدة مميّزة لجيل الشّباب، وهي شرف التعامل الاجتماعي. فالإنسان الجديد لم يعد يشعر بنفس ذلك المقدار ـ كما كان سلفه ـ بأنّه مذنب، ومضطّر للاعتذار والتعقل والحذر، وألا يسمّي الأشياء بمسمياته هو.

يجب استعمال تعابير ومصطلحات لا تحمل معاني دينية قاسية، قد تخيف البعض ممن تربوا في تقاليد دينيّة معيّنة. والحاسم في الأمر ـ في كل الأحوال ـ هو الضمير في البنية الاجتماعية، حيث يتوجب على المرء في هذه البنية ـ طبقاً للتقاليد ـ أن يخفي شعوره بالّذنب، كما يتوجب عليه أن يظهر وكأنّه دوماً طاهر ويتحلّى بالأخلاق الحميدة، من حيث أنّ الإنسان شخص غريب عن كل ما هو غير إنسانّي، ويجب عليه ألاّ ينصاع لأنه يجد نفسه بذلك قد بلغ حدود العصيان، لكنْ مباشرة وعلى التّوّ عندما يعرف ويعترف، أنّ حقيقة الإنسان تؤكّد أنه يمكن أن تتمثل في

داخله الفضيلة والرّذيلة في آنٍ معاً. هذا من طبيعة الإنسان، وبدلاً من أن نغضب من ذاتنا بما يخصّ القوى السّلبيّة داخلنا، فإننا نحياها حقيقةً من حيث كونها جزءاً من وجودنا الإنسانيّ الذي نعيشه في الواقع.

لأجل هذه الثّقة المحترمة ـ كما يبدو لي ـ فإنّ العالِم «سيغموند فرويد» قام بجهود كبيرة في هذا المجال، ويبدو لي أيضاً، أن هذا العالم « فرويد» قد فعل الكثير من أجل ترسيخ مبدأ شرف التعامل. لقد رسّخ قواعد ومقاييس لهذا المبدأ. قبل «فرويد»، كان يكفي أن يعبر أحد مؤكداً نواياه الحسنة. ومنذ أن كشف فرويد عن العقل الباطن للإنسان واختبره نظامياً، لم يعد التعبير عن النّوايا الحسنة كافياً، حيث أن المصلحة الخاصّة تختبئ داخل ما يسمّى النّوايا الحسنة. هكذا توصّل إلى النتيجة التالية: من النادر أن يكون هناك فارق بين أن يكون أحد على علم بنواياه الذاتية الخبيثة وبين أن يكون ذكياً بكفاية، بحيث يتدبر تلك النوايا فيخفيها ويكذب أمام نفسه وأمام الآخرين. على العكس من ذلك: قد يكون لأحدهم ممن له فعلاً نوايا سيئّة، أن ينال إلى حد ما ثقة الآخرين، أكثر ممن كانت رغباته الخبيثة وليدة وعي وتفكير، ويمكنه تحقيق هذه الرغبات بنجاح أكبر، لأنّه استطاع من خلال خبرات جيدة وناجحة، أن يخفيها ويسوّقَها.

منذ فرويد صار الإنسان يواجه تحدّياً، ذلك أنه صار مسؤولاً ليس فقط عن وعيه ورغباته بل عن ضميره الباطني أيضاً. فبالنسبة لتصرّفاته، لم تكن فقط كلماته التي تتحدّث عنه كافية، قد يكون من الممكن ألا يعني الكلام شيئاً. وعلى هذا ليس فقط «فرويد» مذنباً، بل هو من غرر

بالشعوب، فقد اشتعلت الحروب، ومئات الملايين لقوا حتفهم، أو أنهم من أجل «شرف أكبر»، ذهبوا إلى الموت، وكان كل ذلك مؤسساً على الكذب بحيث أننا اليوم يجب أن نكون متأثّرين بشكل أقلّ بما يقوله النّاس. لقد باتت الأفكار رخيصة، ويمكن أن تسوّق بطرق عديدة. لذلك، قلما يُسأل الشباب عن أمر: ماذا حدث برأيك؟ لكنهم يسألون: ماذا فعلت؟ ماذا كانت دوافعك ومواقفك الشخصية؟

أعتقد أنّ تأثير «فرويد» في استخدام طريقة الثقة في التعامل الاجتماعي هي أكثر مراعاة للشك من تلك الثورة الجنسية التي نسبت إليه. إن «الثورة الجنسية» ـ كما يريد البعض أن يسميها ـ كان يمكن أن تأتي بدون ظهور «فرويد» في مجتمع تسود فيه ظاهرة الاستهلاك والرفاه، إذ لا يمكن لشخص أن يجبر الناس على تقبل كل شيء بما يرضي رغباته الخاصّة، وبنفس الوقت يعاني من الفشل الجنسّي. في المجتمع الاستهلاكيّ يصبح الجنس بطبيعة الحال مادة استهلاكية، ومن أجل الجنس ولخدمته تنشأ صناعات مختلفة وتنفق أموال كثيرة، من أجل تأمين الجاذبّية للجنس. وهناك اختلاف بالمقارنة مع الزّمن السّابق ولكن بالطبع ليس هناك من ثورة. وهذا لا يمكن أن يقع على كاهل «فرويد».

لكن ما هو إيجابيّ وجديد، في معيار السّلوكيّة، أن الناحية الجنسية في جيل الشباب لم تعد تستدعي بالضرورة الشّعور بالذنب. دعوني هنا في هذه المناسبة أتريث وأوضّحْ العلاقة بين الناحية الجنسية ومشاعر الخطيئة. عندما تقرر السلطة الأخلاقية أن الحادثة الجنسية مقترنة

بخطيئة وينتج عنها ينابيع لا تنضب من الشعور بالذنب، عندها يمكن للمرء أن يقول: هذا يعني أن كل واحد منا، منذ سن الثالثة من عمره قد بدأت عنده بطاقة مصرفية للشعور بالذنب. ذلك أن الإنسان، كما هو، عنده رغبات جنسية ضرورية، وهذا يعني شعوره بالذنب، إن كبت الرغبات الجنسية يؤدي إلى ذلك، وهي التي تخضع بعامة للتقويم والحفاظ على الأحكام الأخلاقية.

إن الجيل الجديد (وبعض القديم) يظهر وكأنه قد رمى، ولغير رجعة، مشاعر الخوف خلف ظهره، وهذه تعتبر خطوة تحرّريّة هامّة، ولكن علي أن أضيف في الحال، أنّ ذلك تافه وعادّي، ينطبق عليه المثل: «ليس كلّ ما يلمع ذهباً». فعن طريق توجيه دفة الاستهلاك تصبح الحياة الجنسية، في الحقيقة وبشكل أوضح، حجاباً لتغطية حالة النقص الحادة في العلاقات العاطفية الإنسانية. فالإنسان يستعيض عن الغربة الحميمية الروحية بالعلاقات الجنسية الجسدية. إلا أن العلاقة الجسدية تبقى عاجزة عن تعويض العلاقة الروحية. إن العلاقات الحميمة الصادقة بين شخصين قد تكون أحياناً على انسجام كبير مع العلاقة الحميمة الجسدّية، ويمكن أيضاً أن تفضي هذه أحياناً إلى تلك، لكنهما ليستا بالضرورة متماثلتين تماماً. خصوصاً عندما تكون الرغبة الجنسية الروحية مفقودة، فاللذة تتراجع في مواقفها وتأثيرها إذا لم يكن الإنسان قد أعد لها وأرادها.

إن جيل الشباب ـ كما قلت ـ لا يعترف بالنظام البطريركي (العشائري) السّلطوي ولا بالنظام الاستهلاكي، لكنه ينجرف إلى نوع آخر جديد من المواد الاستهلاكية، كما يحدث ـ على سبيل المثال ـ بالتعويض بالعقاقير

عن المواد الطبيعية، كما هي وصفات العقاقير المخدرة. إنّ الآباء مثلاً يشترون السيارات الفارهة وغيرها، ومواد الزينة، ويُعطى الأطفال مقابل ذلك حبوباً وعقاقير أو غيرها... إن الاتجاه في هذا الطريق، مع زيادة الميل لعادات بديلة، له أسباب كثيرة، يجب فعلاً التفكير بها، إنه التعبير السلبي للنّاس المستهلكين الذين يتعرضون لانتقاد أطفالهم لهم، والذين هم أيضاً نسخة عن ذويهم.

هؤلاء الشّبان الصّغار هم أيضاً من النّاس الذين ينتظرون دوماً ما يأتي من الخارج: من خلال تأثير الحبوب المخدرة، من تأثير الجنس، من تأثير أنغام خاصة تخدرهم، تبعدهم، تجرفهم... هذه الأنغام لا تثير نشاطهم أو حيويتهم وحسب، بل تخطفهم كما في طقوس أعياد الآلهة الإغريق المعربدة، وهذا ما تفعله بعض أنواع أقراص المخدرات، حيث قد يجنّ الإنسان وينسى نفسه، أي إنه يغرق في السلبيّة، أو لنقل باللامبالاة. إنما الإنسان الإيجابيّ لا ينسى نفسه، بل يبقى دوماً وأبداً هو هو. إنه يصبح أكثر نضجاً، أكثر يقظة، هو هكذا صاحٍ. أما الإنسان السّلبي فهو، كما قلنا، دوماً كالرضيع. مهما يستهلك، فالأمر سيان في النتيجة النهائية، إنه ينتظر ـ هكذا ـ مع فم فاغر، ينتظر الزجاجة ليرضعها وعندها وبعدها يكون سعيداً، بدون أن يكون مضطراً ليفعل شيئاً، وليست واحدة من كل قدراته النفسيّة مدعوّة لعمل شيء ما، وفي النهايّة هو تعب ونْعسان، ينتظر النّوم، الذي يلي لاحقاً، ويكون مسبوقاً غالباً بالتثاؤب، هكذا يكون منهكاً من كثرة الملل والخمول، كالحكومة المتخمة. قد يُظن هنا أن الوصف مبالغ فيه، لكن هناك حقاً كثر ممن يفعلون ـ حسب خبراتنا ـ

ما عنيناه تماماً. والمستحضرات الطبية التي تستدعيها الحاجة تؤكد اعتقادنا أن حضارتنا حضارة استهلاكية.

يجب أن نسأل أنفسنا: هل نستطيع حقاً في مجتمعنا ـ مجتمع الرفاهيّة المفرطة والسّيئّة ـ الذي لا يمكن للإنسان أن يتقبّله، والذي لا يحمل للإنسان أيّة قيمة، هل نستطيع عمليّاً بعدُ أن نحقق مجتمع الرفاه الجيّد؟ هل يمكن لنا تقنياً أن نصنعَه، أي بطريقة ما أن يكون مجتمعاً استهلاكياً جيداً، منتجاً أكثر؟ مجتمعاً يخدم النّاس ويجعل من تطورّه ما يفيد المستقبل بشكل جيّد؟ يجب أن يكون هذا ممكناً، عندما نتفّهم أن هذا يعني: أن نزيد حاجياتنا ونطوّرها، ونجعلها أكثر فائدة، ونجعل الإنسان أكثر نشاطاً، وحيويّة، وأكثر حرّية، بحيث أنه لم يعد محكوماً عليه بالمعاناة المؤلمة، ولم يعد وجوده موقوفاً على المثيرات المحيطة به، إنما هو نشيط، متفائل. ومهتم، والقدرات الكامنة فيه جاهزة للتحرر والإنتاجية، وأن يعيش ويترك الآخرين يعيشون، علينا أن نحسّن من أحوالهم وقدراتهم ونزيد من نشاطهم. هذا يفترض بالطبع أنه يجب بالنسبة لأوقات الفراغ كما لأوقات العمل أن تنظّم بشكل جيد، حيث أوقات الفراغ لدينا غالباً ما تكون أوقات كسل. يجب أن يُضبط لنا استثمار القوة بحيث نستطيع بكبسة زر ـ كما التلفاز ـ أن ندخل الدنيا إلى بيوتنا، أو أن نركب السيارة أو أن نشغل المحرك من استطاعة مئة حصان. فالوقت الحرّ الحقيقيّ نمتلكه بمقدار ما تتطلّبه احتياجاتنا، والتي هي متجذرة في الإنسان، علينا أن نثيرها بما يؤّدي إلى تفعيل وتحرير حيويّته

الكامنة. فلا يبقى العمل رتيباً، إن مهمّة تنظيم العمل تتلّخص بالسؤال التالي: كيف يمكن أن يكون العمل ممتعاً، محفّزاً ومنشّطاً؟

هنا يفرض السؤال المحوريّ نفسه عن هدف عملنا: هل الهدف هو تنشيط الإنتاج والاستهلاك؟ أم هو تفعيل وزيادة السّكان؟ غالباً ما يجري التوكيد على أنّه لا يمكن فصل الأمور عن بعضها. فما هو جيّد للصناعة، جيّد للناس وبالعكس. إن هذا يبدو وكأنه فكرة جميلة ومتناغمة جداً، لكنها في الحقيقة كذبة كبيرة. فمن الصعوبة بمكان أن نبرهن على أن أشياء كثيرة مفيدة للصناعة ولكنها سيّئة للإنسان، وهذا ما يعبّر عنه بالمثل: خياران (أحلاهما مرّ). عندما نستمر كما فعلنا حتى الآن. فهذا يعني أن يكون التطوّر على حساب النّاس. ولذلك كان علينا اتخاذ قرار. لقد تحدثنا بلغة الإنجيل، أن نختار بين «الله والقيصر». إن هذا يبدو «دراماتيكياً»، لكن عندما يتكلم الإنسان بجدّية عن الحياة، فالأمر هو حقاً كذلك. في هذه اللحظة ـ بالنسبة لي ـ ليس السؤال فقط عن الحياة والموت، بل حول تكاثر ظاهرة الموت أو ظاهرة الحياة، بمعنى أن يعيش الإنسان بنشاط أكبر وبحياة مليئة بحيوية أكبر. فالنّاس وهم مخدوعون، يبتعدون دوماً عن الحقيقة. إنهم يعيشون وكأنهم توقفوا عن الحياة أو أنهم لم يبدؤوا الحياة بعد.

وحسب القول الشّعبي فإن كل إنسان يصبح بعد سن الأربعين مسؤولاً عن وجهه، يعني أنه لكي يعرف الإنسان تاريخ حياته الخاص عليه أن يحدد ما إذا كان قد عاش حياته بشكل خاطئ أو صحيح، ليس من

منطلق الأخلاق، ولكن من منطلق حياته الواقعية. إن أروع خطابات التأبين وما يرافقها من بيانات الإنجاز البديعة، لا يمكن له أن يجيب على السؤال المطروح، والذي لن نتجاهله: هل نحن أحياء أم كنا كذلك؟ هل نعيش أو يعاش بنا؟ إنني أتفق مع «ماركس» ومع «دزرائيلي»، إذ كانا يعتقدان، أن الترف في الحياة ليس أقل وبالاً من الفقر، فهما نفس ذلك الذي نفهمه نحن عن الحياة الفارهة كما وصفناها سابقاً. عندما نريد عوضاً عن ذلك ـ كهدف ـ أن نسعى للوصول إلى نظام مرفه، فذلك يعني بالضرورة أن تكون عاداتنا العقلية والحياتية قد تغيرت كلية، إن الصعوبات وهي قاسية جداً، تكمن في أن هذه التغيرات يجب أن تشمل أيضاً العلاقات الناظمة، هذا مقنع جداً بالنسبة لي، وأنا أعتقد في كل الأحوال أن هذه التغيرات فقط يمكن إدخالها على أساس خبرات الناس العميقة، في أن يعيشوا أكثر ويبتعدوا قدر الإمكان عن الروتين والملل، وأن تتوفر الإمكانيات لكي يتمكنوا من تحقيق حياة أكثر خصباً وترّقباً، أكثر حرّيّة، وأكثر سعادة وفرحاً، إن شعوباً كثيرة (أغلبها هم الأقل تطوراً من ناحية التكنولوجيا) تحلم في أنّها كانت ستكون سعيدة لو استطاعت أن تحصل على كلّ شيء، كما هم الأمريكيون. من جهة أخرى ومباشرة، وفي أمريكا، فإن العدد الأكبر من الكبار من ذوي الخبرات يرون أنهم رغم كل مظاهر الترف الحديثة، ليسوا أكثر سعادة، بل هم أكثر سلبيّة من أولئك الناس العاديين والعمال اليدويين. إن طبقة الشباب الثائرين لا تنحدر من الطبقات الوسطى والعليا، التي تمثل الطبقة المرفهة. هؤلاء

يعيشون في الخيال أعلى درجات السعادة ظاهراً، ولكن ليس في العمق الروحي للإنسان.

يخيل إلي أنه من الأهميّة بمكان أن نكون على بيّنة من نظام نوليه كل الاهتمام من أجل وضع نظام فني مناسب لحياتنا: إنّ الإنسان يخطئ الحياة عندما يتبع أهدافاً متناقضة وبدون وضوح رؤية، ما يؤدّي إلى تناقض وضياع. تعرفون قصّة الكلب (بالوفشي) ـ لقد درّب هذا الكلب على أن يشعر بالجوع عندما يرى أمامه دائرة، وأن يعرض عن الأكل عندما يرى قَطْعاً ناقصاً، ثم صار يُقرّب القطع الناقص من الدائرة حتى بات الكلب لا يميز: أهو أمام دائرة أم أمام قطع ناقص؟ لقد وقع في ارتباك، ومرض الكلب وظهر عليه عارض عصبيّ. أصبح خائفاً، مضطرباً وغير واثق. كذلك يصبح الإنسان مريضاً نفسيّاً عندما ينقاد إلى أهداف متضاربة، يفقد توازنه ووعيه الداخلي وقدراته على التمييز. هو لا يعود يعرف ما الجيد وما الرديء. لذا علينا أن نسأل أنفسنا قبل كل شيء وبدون تردد: أية أهداف متناقضة تلك التي نتعامل معها؟ لماذا لا تنسجم هذه الأهداف مع بعضها؟ أية أضرار تحدثها تلك التناقضات فينا؟ هذه التساؤلات لا تكون بالصراخ ولا بالدعايات، والتي يسعى الإنسان بطريقة عصبيّة إلى أن يجيب فيها على الأسئلة. بل أكثر من ذلك: يجب على كلّ فرد، وبشكل محسوب، أن يحاول الإجابة مع كثير من التفكير: «أنت تعيش حياة قصيرة، من أنت؟ وماذا تريد حقاً؟». عندما نريد لأنفسنا الترف الذي يولّد الفقر المادي

والروحي ويكبت الغنى المعنوي الذي يعيش في داخلنا والذي كان سيتفتق عن قدرات... فإن القرار لصالح الرفاه الجيد أو السيء، يتوقف عليه مستقبل حياة الإنسان.

حول مصادر العدوان

ما من أحدٍ يستغرب أنّ النّاس مهتمّون أكثر وأكثر بمسألة العدوان. لقد مرّت علينا حروب، ونعيش الحروب الآن، ويرعبنا أن تقع علينا حرب ذرّية قادمة، تستعّد لها القوى العظمى. بنفس الوقت يشعر النّاس بالعجز الكامل أمام هذا الخطر، فهم لا يستطيعون تغيير شيء. إنّهم يرون أن الحكومات على ما يبدو، وبكلّ ما لديها من حكمة وإرادات طيّبة، ليست بقادرة على أن تقلل من سباق التسلّح، أو تؤمّن حالة التوازن. إنّه لمن الطبيعي، بل ومن البديهي، أنّ النّاس يحبّون من ناحية أن يفهموا من أين يأتي العدوان، ولكن من ناحية أخرى يكون عندهم استعداد لتقبّل النّظريّات التي تقول إن العدوان ليس من طبيعة الشّعوب كي تعمل على صنعه، كما أنّ هذه الشّعوب ليست واقعة تحت شروط اجتماعية مناسبة للعدوان، لكن قد يكون العدوان من طبيعة النّاس في مجتمع ما، وقد يكون هذا المفهوم، بشكل خاصّ، قد اكتسب شعبيته من خلال كتاب «كونراد لورانس»، الذي نشر منذ عدّة سنوات: «ويدّعي فيه أن الشّر هو التّاريخ الطبيعي للعدوان. إن «لورانس» يدّعي أن العدوان دوماً وعفوياً يولد داخل الإنسان، وذلك في مخّه، فهو إرث من أجيالنا الحيوانيّة الأولى، وهذه العدوانيّة تنمو باطراد، وذلك عندما لا يكون هناك مانع يمنعها. وعندما يُفتح الطّريق أمامها، فإنّها تندفع بذاتها خارجاً، أما عندما تكون المخارج ضعيفة جدّاً أو معدومة، فسوف يكون الانفجار لتلك العدوانيّة المتراكمة

محتملاً، وإزاء ذلك لا يكون أمام الإنسان إلاّ بعض الوقت ليقوم ويمارس أعمال العنف، ذلك أنّ القدرة العدوانيّة في داخله قد تراكمت وانفجرت. هذه النّظريّة يمكن أن نسمّيها «النّظرية الهيدروليكيّة»، كلما ازداد الضّغط تكون الاحتمالات متوفرّة للانفجار، «إنّ الماء أو البخار ينفجر». لقد أعطى «لورانس» مثالاً جميلاً. أوضح بواسطته هذه النّظرية التي تدور حول عمته في فيينا. هذه السّيّدة كانت تستخدم خادمة جديدة كل نصف سنة، وكان ذلك في الماضي البعيد. عندما كانت الخادمة تصل، كانت السيدة تمتلئ بالسّعادة وتبني لنفسها أحلاماً ورديّة. هذا الوضع كان يدوم أسبوعين، ثم تزول البهجة شيئاً فشيئاً... وأخيراً تصبح الحالة خانقة، غير مرضية، وبعد حوالي ستة أشهر تصبح هذه السيّدة حانقة على الخادمة وغير محتملة، ثم تنذرها بالتّسريح، كان هذا يحدث تقريباً كل ستة أشهر بشكل نظامي، من هذا المثال يتضح كيف أن العدوانية تتراكم تدريجياً بطريقة أو بأخرى حتى تصل إلى نقطة تُفرّغ فيها الشّحنة.

ربما يرى المشاهد الخارجي الأمور كذلك. ولكن عندما يأخذ المرء يفهم الناس أكثر ممّا فعل «لورانس» ـ أي يعلم أكثر عن الحيوانات ـ فإنه نعلم أن ما سبق لا يصح أن يكون توضيحاً صائباً. إن المحلّل النّفسيّ ـ ليس فقط السيّد «لورانس»، لكن أيضاً أكثر النّاس، مع بعض الإدراك ـ يرون أن تلك العمّة من النوع «النرّجسيّ»، امرأة مستغلّة، فحين تستأجر خادمة فليس ذلك فقط من أجل ثماني ساعات عمل تخدمها فيها، لكن أيضاً تريد منها المحبة، والإخلاص، التعلّق، والصّداقة، وأيضاً خمس عشرة

ساعة عمل في اليوم. هكذا تكون عندها كلّ هذه الرغبات لدى استئجارها خادمة جديدة، وتكون في البدء لطيفة وجذابة، لأنها تتوقع أن تكون تلك الخادمة هي المطلوبة والتي تطابق رغباتها. ولكن من خلال معرفة أكثر بالخادمة يظهر جلياً أنّها ليست المثاليّة التي تلبّي رغبات العمة. وهكذا تبقى هذه العمّة دوماً وأبداً خائبة، غضبى، تأمل في المستقبل أن تحظى بالشيء المناسب. ولأنّها، إضافة لذلك، ليس أمامها الكثير لتفعله، فإن الأمر يعطي لحياتها بعض الدراما. المهمّ عندها شيء هام تتحدث عنه، ربما يكون ذلك الموضوع الرئيسيّ للدردشة، وحول ذلك تتحدث مع صديقاتها. كل هذا ليس له علاقة بما يسمّى تراكم العدوانيّة، لكن له علاقة مع صفات أخلاقيّة أخرى. إنّني على يقين بأن كثيرين ـ خاصة وأن كبار السّن منكم يعرفون كثيرين من النّاس الذين لا يبالون إن كان عندهم خادمات أم لا ـ سيتصرّفون في الحالة المماثلة تماماً بنفس الطّريقة.

إن نظريّة محرّض نشوب العدوان، والّذي لن أتناوله بالتفصيل الآن، تقترب جداً من النّظريّة القديمة لمحرّض الموت. ومنذ عشرينات القرن العشرين افترض «فرويد» أنّه في كل إنسان وفي كلّ الخلايا المكّونة من مادة حيّة، ثمة محرضان: محرّض للحياة وآخر للموت. إن المحرّض على أن يموت الإنسان، والأصحّ أن نقول: محرض الموت، يعبّر عن نفسه في أنّه إمّا أن ينعطف للخارج وهذا يعني التدمير العام، أو نحو الداخل وهذا يَظهر كقوّة تحطيم الذّات بالمرض أو الانتحار، أو عندما يكون مرتبطاً بدافعٍ جنسيّ، فإنه يقود إلى ما يسمى الانحراف الجنسي. إن محرّض

الموت هذا يكون ـ لحد ما ـ مولوداً مع الشخص ذاته، وليس محكوماً بعوامل خارجيّة محيطة، لقد وُلد من لا شيء، إنما كان أمام المرء خيار وحيد، هو الموت أو عمليّة الإبادة، أن يقوم بذلك ضدّ نفسه أو ضدّ الآخرين. وبذلك كان عليه أن يتخذ قراراً محزناً.

وللحقيقة فإن هذه النّظريات حول العدوانية المولودة مع الإنسان، قلّما عُولجت سابقاً من قبل العلماء المختصّين بشكل كامل. وبالإجمال ففي علم النفس افتُرِض أن العدوانية مرهونة بظواهر اجتماعيّة. أو هي غيّرت وجهتها بعوامل مؤثرة مثل الفنون والآداب وغيرها، أو من خلال عوامل كثيرة أخرى. لكن نظريّة «لورانس» في العدوانيّة لاقت حقاً شعبيّة كبرى، هذا ما أعتقده، وذلك للأسباب التي كنت أوردتها سابقاً. هذه النّظريّة تعطي توضيحاً يوهم أنّه بإمكان الإنسان أن يفعل شيئاً. إنّها تعطي ما يشبه الاعتذار، بمعنى: أنّ كلّ هذه الأخطار وكلّ هذه الاعتداءات هي بالحقيقة مولودة مع الإنسان. والآن ماذا يستطيع الإنسان أن يفعل ضدّ ما هو مخلوق معه؟

لقد كان هناك دوماً وجهتا نظر. إحداهما تقول: الإنسان بفطرته سيّء، مخرّب، لذلك كان لابّد من الحروب. والأنظمة المطلقة لا يمكن تجنبّها. لذلك يجب أن يبقى الإنسان تحت السيّطرة، يجب أن يُحفظ الإنسان أمام عدوانيّته. ثم كانت النّظريّة الأخرى: الإنسان طيّب بفطرته، هو يصير سيّئاً نتيجة الظّروف الاجتماعية التي تحيط به، إذا استطاع تغيير هذه الظّروف، فهو يستطيع أن يخفّف من عناصر الشرّ والعدوانيّة، أو

حتّى أن يزيلها تماماً. كلتا وجهتي النّظر تتضمنان مبالغة. أولئك الذين يتحدّثون عن العدوانية الطّبيعيّة المولودة مع الإنسان، ميّالون إلى أن يغضوا النظر عن أن في التّاريخ حقبات مميّزة لمجتمعات أعطت الكثير من الحضارات وكثيراً من الشّخصيات الجيّدة، وقد كان فيها العدوان قليلاً جداً. ولئن وقعت حروب، فقد كان الراجح هو ألاّ تقع. على الطرف الآخر كان هناك المتفائلون: أعداء الحرب ميّالون للعمل من أجل السلام، من أجل العدالة الاجتماعية، وهم غالباً ميّالون للقيّم الإنسانيّة، يواجهون القوّة العدوانيّة الإنسانيّة، وإذا كانوا لا يعادون هذه القوة فهم على الأقلّ يقلّلون من شأنها. وهذا كان رأي فلاسفة الثّورة الفرنسيّة، وكذلك كان الرأي المتفائل الذي نجده عند «كارل ماركس»، وفي عقائد الاشتراكيّين الأوائل.

وأنا هنا أتبنّى موقفاً ثالثاً، ولو أنّه أقرب للثاني منه للأول. في المقام الأوّل أنطلق من أن الإنسان ميّال للتخرّيب، وأكثر شراسةً من الحيوان، فالحيوان ليس سادياً، الحيوان ليس ضدَ الحياة، ولكن تاريخ البشرّية حافل بأعمال شنيعة لا مثيل لها وأعمال تخريب خارجة عن الوصف. من وجهة النّظر هذه فليس من حاجة أبداً للتّقليل من قوّة وحدّة العدوانيّة. لكنّي لا أعتقد أنّ جذور هذه العدوانيّة تقع في الحيوانيّة، ولا في الغرائز، ولا في أصولنا الحيوانية. وعلى الغالب فإن عدوانيّة الإنسان، إذ تكون لديه أكثر مما هي عند الحيوان، فإن تفسير ذلك يكون في الشّروط الخاصّة التي يعيشها الإنسان.

إن العدوانيّة عمل آثم، التخريب عمل آثم ـ ولكن ليس كما يعني «لورانس» أي فقط ما يدعى آثم ـ بل هي ذات صفة إنسانيّة. قد تكون

إنسانية، بمعنى أنه من الممكن أن تكون ظاهرة تتواجد داخل كل منا، وتؤكد ذاتها، وذلك عندما لا يستطيع الإنسان أن يطوّر نفسه إلى الأفضل والأكثر نضجاً.

إن «ما وراء العدوانيّة»، أي تلك التي تفوق ما عند الحيوانات، مبرّرة في أخلاقيّات الإنسان، ولا أعني هنا بالمعنى القانوني، ولكن بعرف التحليل النفسي كنظام يتضمن علاقة الإنسان بالحياة. تحت مفهوم الأخلاق، أفهم شيئاً، من خلاله وجد الإنسان البدائل للغرائزية الحيوانيّة، والتي هي عنده قد تطوّرت قليلاً. ماذا أقول هنا عن الأخلاق؟ قد يبدو ذلك وكأنّه نظريّ وحسب، لكن عندما تسألون طبقاً لخبراتكم، فإنني واثق من أنّ الكثيرين منكم يعلمون تماماً ماذا تعني «الأخلاق» هنا في هذا السياق. وبالتأكيد فقد رأيتم أناساً، تقولون عنهم إنّهم ذوو أخلاق سادّية. وقد قابلتم بالتأكيد أيضاً آخرين وصفتموهم بالناس الطيّبين. أنتم بذلك لا تعنون أن الرّجلَ قد تصرف مرة كرجل ساديّ، أو أنه مرة أخرى تصرف بلطافة كرجل طيب، لكنكم تردّون ذلك إلى مواصفات أخلاقيّة، تميّز حياته كلها. ثمة أشخاص ساديّون، لكنّهم لم يتصّرفوا مطلقاً بسادّية، لأنّ السبب لذلك غير موجود، إن المراقبة الدقيقة والذكيّة فقط يمكن لها حقاً أن تقرّر التصّرفات السادية. هناك يوجد سلوكيّات، وطبقاً لميولها فهي ليست مركزة، ولكن رغم ذلك فإنّ مثل هؤلاء الأشخاص في حال الغضب الشّديد أو الرّيبة، قد يُرْدون شخصاً بالرصاص، ومع ذلك لا يعتبر هؤلاء حتى اللحظة من ذوي الميول السّادية الإرهابيّة الهدّامة.

من هذا المنطلق، فإن الشّرير إنساني، أي مؤسّس على الشرّ في حاضره الإنسانيّ، وليس في ماضيه الحيوانيّ، هكذا يمكن تجنب التناقض الذي يبدو منطقياً ويصعب على عالم الغرائز تجنبّه. أنت تحاول هكذا، أن تفسّر العدائيّة الأكبر عند الإنسان من خلال العدائية الأصغر عند الحيوان. كيف يجب أن يكون ذلك؟ لا يمكن أن يفترض الإنسان أن ذلك الذي ورثه الإنسان من الحيوان يمكن أن يؤدي إلى أن يصير أكثر عدوانية، وأن يكون مخرّباً أكثر من الحيوان الذي توارثه. على الإنسان بالرّغم من ذلك، أن يفترض من وجهة نظر منطقية، أن ذلك يكون لحد ما من حيث أنه يتصرّف بشكل مختلف عن الحيوان، أي في الوحشية الأكثر ضراوة، أي في بعضٍ مما لم يأخذه عن الحيوان، والذي يقع بسببه في الشرّوط التي تأسّس عليها وجود الإنسان.

لكن الآن، من ناحية أخرى، وبالعودة إلى العدوانيّة الحيوانيّة؛ نرى أن العدوانيّة الحيوانيّة منسجمة من النّاحية البيولوجيّة، كونها تخدم غريزة البقاء للجنس والنّوع للحيوان، ويتم إثارتها عندما تهدد غرائز أساسية نشيطة للحيوان من الخارج، بمعنى التّهديد لحياته، لغذائه، لعلاقاته مع الجنس الآخر من فصيلته الحيوانيّة في منطقة تواجده..الخ. عندما يحصل هذا التهّديد يكون ردّ فعل الحيوان ـ وكذلك الإنسان ـ إما بالتصّدّي العنيف ـ العدوانيّ ـ أو بالهرب أمام هذا الخطر، فإذا لم يحصل هذا التهدّيد، فلا تثور أية عدوانيّة مضادّة. إن العدوانيّة إذن موجودة في المخّ كأداة، كوسيلة دائمة جاهزة للتّفعيل، لكن بالمقابل، عندما لا يوجد

محرّض فإنّه لا يوجد مبرّر للفعل، فهي لا تتحضّر ولا تجهّز للفعل، هذه الغريزة هنا لا تعادل نفس النموذج «الهيدروليكي» الذي ذكرناه سابقاً. وهذا يُذكر لأول مرة من قبل العالِم الفيزيولوجي «هس» الذي أوضح أنّ أيّة مراكز أو أيّة مناطق في المخ تنتج العدوانية، عندما تتوفر المثيرات، حيث يوجد تهديد لغرائز حياتيّة تثير هذه المراكز.

تختلف عن ذلك عدوانيّة الحيوان القنّاص. هذا الحيوان لا يهاجم لأنه يشعر بالتّهديد، هو يهاجم لأنه يبحث عن طعامه. أيضاً من الناحية العصبيّة لأعضاء الجسم، فإن عدوانية الحيوان القنّاص تقوم في مراكز أخرى من الجسم، وفي مناطق أخرى من الدّماغ، تكون مرتبطة بقوّة مع بعضها كعدوانيّة دفاعيّة. وبعامة يجب القول إن عدوانيّة الحيوانات قليلة، إنما فقط عندما تشعر بالتهديد. فبين الحيوانات لا يوجد ما يسمى إهراق دماء، حتى عندما تتصارع. إن مراقبة قرود الشمبانزي، مثل سعدان الرباح والحيوانات الرئيسية الأخرى، توضح كم هي الحياة الجماعية سلمية فيما بينها. يستطيع الإنسان القول: لو أن الإنسان عنده مقياس للعدوانيّة كالتي عند قرود الشمبانزي، فلن نكون بحاجة إلى أيّ نوع من القلق حول الحرب والعدوانيّة. لكن يبدو أنّ الناس قد ابتدعوا لأنفسهم تلك الصورة للذئب، إنه حيوان عدوانيّ مريع. لقد خلط الإنسان بين صورتيّ الذئب، بعدائيته وهو جوعان يبحث عن الطعام، مع عدائيته عندما لا يحتاج طعاماً. إن الذئاب فيما بينها جد أليفة وغير عدائية البتة، لذلك ليس من الإنصاف أن نقارن عدائية الناس فيما بينهم مع تلك التي فيما بين الذئاب، عندما يقال: ذلك الشخص يتصرف تجاه الآخرين كما

يتصرف ذئب تجاه آخر. وفي كل الأحوال يمكن القول: كما يتصرف الذئب تجاه الشّاة ولكن ليس كما ذئب تجاه آخر. وهكذا نرى أن عدوانيّة الحيوان لا تتبع النظام الهيدروليكي كما عند الإنسان. فما دام الحيوان غير مهدّد، فلا يوجد لديه عدوانيّة تتزايد باستمرار وتتطور، وبالنهاية تنفجر. ويمكن أيضاً القول: إن العدوانيّة لدى الإنسان هي في المخ كإمكانيّة وليست اضطراريّة، هي ليست مثبتة، عندما لا تكون واجبة التحريك والتفعيل لأجل تحقيق مقاصد ضرورية للحياة. مقابل هذه الفرضيّة، فإن العدوانية تلقّن، يجب أن نحفظ أن الإنسان يكون عدوانياً فقط في ظروف خاصة موجبة، لكن ليس الأمر إلى هذا الحدّ من البساطة، لأنّه كما كان عليه أن يتعلم هذه العدوانيّة طبقاً لظروف معيّنة، فإنّه يكون من الصّعب إعادة تشكيل وتكييف هذه الظروف، كما يتطلب الأمر الرّاهن، وأيضاً كما يجب أن يكون. وهكذا فإن العدوانيّة عضويّاً كاستطاعة، وإمكانيّة متوفرّة، يمكن تجهيزها سريعاً، إذ أنّ آلية الاستعدادات العصبيّة الفيزيولوجيّة متوفرّة وجاهزة أولاً، وثانياً لا يمكن العمل بدون جاهزيّتها. ومن أجل توضيح كل ذلك ثمة مثال بسيط: عندما يضع شخص ما إلى جانبه على السرير ليلاً مسدساً للدفاع عن نفسه، أو في النهار على طاولة المكتب، فهذا لا يعني أبداً أن هذا الشخص سيقوم باستمرار بإطلاق النار. ولكن هذا يعني أنه في حالة الخطر سوف يستعمل المسّدس. وكذلك فإنّ فيزيولوجيا المخ وضعت أيضاً في حالة الاستعداد، والمسدس في مخّنا كما يقال ـ جاهز كإمكانيّة لأيّ ردّ فعل سريع للاستخدام، ولكن هذا ليس كما في الفطرة الغريزيّة. إنّ وجود مثل هذا الاستعداد يقود إلى أن هذا الشخص مشحون

بالعدوانيّة التي تقود بالنتيجة إلى الانفجار لا محالة. وختاماً فإنه مع الكاتب «هس» ومع الفيزيولوجية العصبيّة، يجب التوقّف عند كون أن ردة الفعل عند الحيوان ليست فقط بالهجوم، بل قد تكون أيضاً مصحوبة بالهرب أكثر منها بالهجوم. إن الهجوم هو الحساب البديل، وذلك عندما لا يستطيع الحيوان الهرب، لذلك يهجم، ثم يبدأ الصّراع.

من يتكلّم عن «غريزة العدوانيّة»، عليه أيضاً أن يتكلم عن غريزة الهرب عند الإنسان، وإذا كان دعاة نظرية العدوانية المتأثرة بالغرائز يقولون إنّ الإنسان دوماً مسلّح بمسامير العدوانيّة، ويستطيع فقط بجهود كبيرة أن يسيطر عليها، وعندها قد يكون صحيحاً بنفس القدر القول إن الإنسان يكون مشحوناً بموجة الميل للهرب لا يمكن السيطرة عليها، أو يصعب السيطرة عليها. كل إنسان قد عايش أو راقب الحروب يعلم حقيقة كم هو قويٌّ حافز الهرب. إن للإنسان في دفاعه احتمالات للردّ على هجوم عليه: أن يرّد بالهجوم المعاكس أو أن يهرب. لكنّ أياً منهما ـ حافز الهرب وحافز التصدّي ـ ليس فعّالاً، عندما لا يكون هناك خطر محتمل. لذلك لا يتشكّل هكذا، وبدون مبرّر، حافز العدوان أو الهرب على الإطلاق.

لقد رأينا أنّ «النظريّة الهيدروليكية» حول مسألة العدوان لم تصمد، كما عُرضتْ من قِبَل العالم «لورانس»، وبطريقة محددة من قبل العالم «فرويد» ضمن نظريّة «تحريض الموت». إن معطيات الفيزيولوجيا العصبيّة تشير إلى أن العدوانيّة للإنسان كما للحيوان ليست باستمرار قوة محرّضة متنامية بشكل عفوي تلقائيّ، لكنها تُهيأ وتُحفّز بمثيرات ومسبّبات، مما يشكل للوجود الإنساني والحيواني خطراً داهماً. إلاّ أنّ النظرية الهيدروليكية

ليست قادرة على الصمود بناء على معطيات الفيزيولوجيا العصبيّة، وهي أيضاً لا تستطيع الصّمود أمام معطيات علوم الإنسان الوصفية وعلم المستحاثّات وعلم الطب النّفسي وعلم السّيكولوجيا.

لو فرضنا أن النظرية الهيدروليكية صحيحة، فعلينا عندئذٍ أن نعتبر أن العدوانيّة ـ على العموم ـ عند الخاص والعام ولدى الحضارات والمجتمعات هي واحدة. لكننا استطعنا ـ كما يحدث مع الأذكياء ـ أن نفهم، أنه ثمة خلافات في درجات الشّدة، لكنّها بالرّغم من كل ذلك تعتبر صغيرة نسبياً، إنّما على العموم يجب على جميع النّاس أن يتبنوا نفس المقاييس للعدوانية ولعوامل التّهديم فيها، لكن الأمر ليس كذلك في كلّ الأحوال. نأتي الآن إلى معطيات علم أصل الإنسان «Antropology»: هناك مجموعة كبيرة من القبائل البدائيّة، والتي لا نجد عندها بالمطلق عدوانيات محددة، لكن بالعكس نجد روح الصداقة العامّة. عند وصف هذه القبائل نجد مجموعات منها تشكل مجموعة أعراض متآلفة: قليل جداً من العدوانيّة، لا جرائم، لا اغتيالات، وأكثر من ذلك لا أملاك خاصة، لا استغلال أو ابتزاز، ولا ملكيات فرديّة. هذه القبائل تجدها مثلاً في شمال أمريكا، من يسمّون «هنود البويبلو»، وكذلك تجدهم موزعين في أنحاء الكرة الأرضية. السيد «كولين توربغول» عرض وصفاً رائعاً عن إحدى القبائل، والتي ليس أفرادها كما لدى هنود البويبلو، بل هم بمجملهم صيّادون بدائيون، وهم يسمّون بيغماين Pygmaen في وسط أفريقيا، ولا يختلفون كثيراً عن أولئك الصيادين قبل ثلاثين ألف سنة، إنهم يعيشون وسط

الأدغال، وقلما تحدث عداوات بينهم. بالطبع قد يحدث أن أحدهم يثير إزعاجاً، لكن لن يكون أبداً سبباً لتجاوز التّقليد عندهم في مسالة ندرة العدوانيّة، وإذا صادف أن أحداً يثير مشاكل ليشعل حرباً ويهدف إلى قتل الناس، فهناك في العرف شيئان مختلفان تماماً. يجب أن يكون لدى أحدهم قلّة بصيرة لدرجة كبيرة، عندما لا يستطيع أن يرى الفرق الكبير فيما بين أمرين: بين أن يكون هذا مثيراً للإزعاج، أو أن يكون قلبه مملوءاً بالكراهية والحقد.

هؤلاء الصّيادون يعيشون في الأدغال، يجدون في الأدغال أمهم الحانية والحامية لهم. إنهم يصطادون وحسب، إنهم يصطادون ـ كبقيّة الصيّادين ـ كثيراً من الحيوانات حسب حاجتهم وإمكانياتهم لسد حاجتهم من الطعام، أما أن يحتفظوا بلحوم الصّيد فهذا غير وارد، لاستحالة حفظها. لكن أيضاً لا يبقى عندهم وفرة، وإنّما بشكل عام عندهم دوماً ما يكفيهم، وكذلك ليس عندهم أملاك خاصة، وليس عندهم قائد، من أجل ماذا القائد؟ الحياة تنظم ذاتها بذاتها، والكّل يعلم ما عليه وما له، وإذا كنتم تريدون: فعند هذه القبائل الكثير من الديمقراطية المتأصلة فيهم، لا أحد يجبر آخر على فعل شيء، ولا حاجة لأيّ سند، ولا مبّرر لذلك، وما من أحدٍ له مزايا خاصة أو مطالب يريدها من الآخرين. كما لا يوجد ابتزاز من أيّ شكل، لماذا يحتاج أحدهم إلى أن يستغل أحداً؟ أمن أجل الصيد، وأنا هنا لا أحتاج الذّهاب للصيد؟ عندها تصبح الحياة كلّها مملّة. من أجل ماذا إذن؟ لا يوجد شيء يمكن أن يفعله لي أحد. حياة الأسرة آمنة، وبشكل عام يسود في القبيلة نظام الزواج الأحادي وشروط بسيطة للطلاق.

قبل الزواج، العلاقات الجنسية حرّة، الممارسات الجنسيّة حرّة من أيّ شعور بالذنب، هم يتزوّجون بالعادة عندما تصبح المرأة حاملاً، ومن ثمّ يعيش الزوجان العمر كلّه معاً، إلا عندما لا يريدان المتابعة أو يريدان الانفصال، أو أنهما بصراحة لا يريدان الاستمرار في الحياة الزوجية.

النّاس ليس عندهم أحزان، مع العلم أن مهمّة الصيد ليست سهلة، لأنه أحياناً لا تمر الحيوانات البّريّة، أو قد يحدث المحْل بعض السّنوات، ولكنهم يثقون جداً بالغابة التي تؤمنهم بالغذاء. ليس عندهم عقدة التّوفير، فبقدر ما يحتاج أحدهم ما عليه أن يوفّر، وبالتالي أن يملك أكثر، وبالتالي تجدهم بالعموم سعداء جداً. هذه القبائل هي فعلاً الأصليّة، هي فعلاً مجتمع الرفاه، ليس لأنها غنيّة لهذه الدّرجة، ولكن لأنّها لا تريد أكثر من ذلك، أكثر مما عندها، وهذا الذي تملكه يكفي من أجل بناء حياة سعيدة وأكثر أمناً. هنا سأشدّد على ما يلي: كم هو مهمّ أن نرى ذلك النّظام والبناء بعيداً عن أي نظام آخر نتعلق به؟ عندما نتساءل: هل هذا عدوانيّة أم غير عدوانية يكون من الصعب جداً الإجابة، لكن، التفتْ تبيّنْ إلى بنية النظام، وسترى أمامك أناساً أحباباً، مسالمين مع بعضهم، بعيدين عن الحسد، فقلّة العدائية فيما بينهم نتيجة منطقيّة طبيعية، وتشكّل جزءاً هاماً من مجتمعهم الخلقّي، الروحيّ، والاجتماعي، هنا تشاهدون أيضاً النظام النفسي متداخلاً مع النّظام الاجتماعي بتناغم.

إن واحدة من أمتع المراحل في تاريخ البشرّية هي ما يُسمّى «ثورة العصر الحجري الجديد»، منذ ما يقارب عشرة آلاف سنة. لقد قام المجتمع في آسيا الصغرى بتطوير النظام الزراعي.

ومن المحتمل كثيراً ـ ولو لم يكن هناك برهانٌ على ذلك ـ أنّ النساء هنّ من اكتشف الزراعة، لقد اكتشفن أيضاً أنه يمكن للإنسان أن يطوّر نباتاً بريّاً إلى نبات القمح. لم يكن الرجال موهوبين بما فيه الكفاية للتطوير والاكتشاف، كان شغلهم الشّاغل الصّيد ورعاية المواشي. مع الزّراعة اكتشف الإنسان أنّ حياته لا تقتصر فقط على ما تقدّمه الطّبيعة، يمكنه أن يبدع أشياء جديدة بتفكيره وبمواهبه الخاصّة. وهذا حدث ـ كما قلنا ـ منذ حوالي أربعة آلاف سنة من ثورة العصر الحجري الجديد، حيث ساد ـ كما يعتقد ـ في المجتمعات الجديدة السّلم والتّفاهم، وعلى الأرجح هذا ما حدث أيضاً لدى تلك المجتمعات في قرى الهنود الحمر في أمريكا الشّماليّة، إذ يعتقد أنهم كانوا منظمين في مناطقهم في مجموعات من القرى. لقد أخذ الإنتاج يفيض شيئاً فشيئاً عن الحاجة، وأصبح الإنسان أكثر اطمئناناً وأخذ النّاس يتزايدون، لكنّهم لم يجمعوا الكثير من الأرزاق، بحيث أن أحداً يمكن أن يحسد الآخرين. في هذا العصر الحجري الجديد، من الممكن أن يكون قد سيطر ـ كما كان الأمر عند القبائل التي سبق وتحدثتُ عنها ـ شكل ديمقراطي أصيل، مع دور أقوى وأشمل للأم والمرأة، ثم ظهر الحكم البطريركي (العشائري)، وهذا تشكل حوالي (3000 ـ 4000) ق.م. في وقت تغيّر فيه كل شيء. لقد أخذ الإنسان ينتج أكثر بكثير مما يستهلكه، أخذ الناس يقتنون العبيد، ومتطلّبات العمل تضاعفت، وصار عند الناس الجيوش والحكومات وقاموا بالحروب، وفجأة يكتشف الإنسان أنه يمكن لأحدهم أن يستخدم أناساً آخرين ليعملوا لصالحه وبإمرته. هنا ينشأ النظام الملكي مع ملك على رأس الهرم، والذي هو ممثل الإله، ومتحالف غالباً مع الكاهن الأكبر بشكل دائم. في هذه

الحالة طوّرت العدوانيّة نفسها كثيراً عند النّاس، وهكذا أصبح بإمكانية البعض السّرقة والسّلب والاستغلال. لقد آلت الديمقراطية الطبيعيّة، حيث الكل يحكمون، إلى الملكية.

في هذه النّقطة قد يحق لي أن أبدي ملاحظةً حول أسباب الحروب. هناك جماعة نظرّية الغريزة البشرية يقولون غالباً: أن الحرب لها دواعيها في غرائز الإنسان العدوانية. هذا التبرير ليس فقط ساذجاً، بل هو أيضاً خاطئ، حيث أننا أولا نعلم أنّ أكثرية الحروب قامت، لأنّ الحكومات تحدثت لشعوبها أنها ستهاجَم، وأن عليها أن تحمي مقدّساتها، حياتها، كما تحدثت عن الحريّات والديمقراطية وغير ذلك الكثير.

قد تدوم البهجة بالحرب أسبوعين أو أكثر، لكنها تزول بعد ذلك، ويتعرض الناس للتهديد بالعقوبات من أجل أن يستمروا في الحرب. فلو كانت العدوانيّة من طبيعة الإنسان، لكانت الحرب تستجيب لمشاعره وتشبع غرائزه العدوانيّة، وعندها لن تكون الحكومات بحاجة لإجراءاتها، بل على العكس، يكون عليها باستمرار أن تقوم بالدعاية للسلم، كي تصرف الناس عن الحروب التي يريدونها من أجل الحصول على تنفيس لعدوانيتّهم. بالتأكيد ليس الأمر كذلك كما نعرف جميعاً. يستطيع الإنسان أن يؤكد أنّ الحرب عرفت كتقليد بعد بداية ثورة العصر الحجريّ، أو هكذا وجدت. لقد كان ذلك عندما بدأت البلدان بتنظيم الجيوش، وتنصيب الملوك، وأيضاً استقدام العبيد، وسلب الثروات....الخ. إن تنظيم الحروب وإيقادها كان مفقوداً لدى الرّعاة والصّيادين والمزارعين البسطاء. إذ ليس لديهم الإمكانات. وفي هذا السياق فالحقيقة الهامة هي أننا نجد في

مجموعات عديدة من الفصائل البدائية نظاماً تتدنّى فيه العدوانيّة كثيراً، وعلى العكس فيه الكثير من اللطافة والتعاون.

وإذا كان الأمر كذلك، فلا يمكن للعدوانيّة طبقاً لنظام نظريّة الغريزة الهيدروليكيّة أن تقف على رجليها، وزيادة على ذلك، نجد في ثنايا مجتمع ما أن المقياس للعدوان متقلب باستمرار. خذ على سبيل المثال ألمانيا في بداية الثلاثينات من القرن العشرين. إن أسّ النجاح النازي كان في جزئه الأكبر في الطبقة الصغيرة أو في دوائر الضباط والتلاميذ الذين انفصلوا عن نظرائهم في الطبقة الوسطى للمجتمع. لا أريد القول هنا: إنّ هذه الطبقات لم تكن من نسيج النظام النازي، إنما النازيون المبهورون لم يأتوا من هذه الطبقات، وبالتأكيد ليسوا من طبقة العمال، هم كانوا نازيين متألقين بنازيتهم كما نعلم جميعاً، قبل أن يكونوا استثناء، ومع ذلك فإن المشهورين بعداوتهم للنازية بين العمال، كانوا أيضاً استثناءً.

هذه الملاحظة نفسها يمكن التعبير عنها في دول أمريكا الجنوبيّة: بين الرجال البيض في الجنوب يوجد مستوى مرعب من العدوانيّة، أكثر بكثير مما هو في الطبقات الوسطى، وأكثر أيضاً مما هو في طبقة العمال في الجنوب وفي الشرّق الأمريكي. هناك دوماً يوجد طبقات في أسفل السلّم، على أرض الهرم الاجتماعي، والذين لهم في حياتهم القليل من المتعة، هم غير مثقّفين، ويظهرون وكأنهم قد أبعدوا خارج النّظام الاجتماعيّ، ليس عندهم دوافع، ليس عندهم رغبات، وفي داخلهم يضطرم الحقد والسادّية التي هي في الناس الذين حصّلوا القليل، والذين يتصورون أنفسهم مركز

القوم، والذين ـ على أقل تقدير ـ لا يشعرون بأنهم منبوذون. أما الآخرون فيسيرون مع بقية الشعب. لذلك لا نجد بين هذه الطبقات نفس مقامات المقارنة للسادية وللعدوانية، كما هو الأمر على سبيل المثال، في الأجيال الوسطى الصغيرة القديمة في ألمانيا أو في بعض مناطق معلومة في أمريكا.

هناك توجد أيضاً اختلافات فيما يتعلق بالعدوانية الفردانية حسب الخصوصية الشخصية للفرد. حيث قد يأتي إنسان إلى الطبيب النفساني ويقول: يا دكتور أنا أكره كل الناس، أكره زوجتي، أكره أطفالي، أكره رفاقي... أكره الكل...بالنسبة للطبيب النفسي فقد نطق المريض بالوصفة الطبيعية المطلوبة، وأنا أتمنى، لغالبية الناس أيضاً: أن يقول المريض منهم إنه مريض. لا. يقولنّ أحد: « لا بأس، الأمر هُنا واضح، ومحرض العدوان هنا فعّال». إنما يقول إن الرجل عنده خُلقُ، هذا الخلقُ الذي هو هكذا، من النوع الذي يولّد العدوانية باستمرار. هنا يمكن السؤال: كيف إذن أصبح الإنسان على هذا النحو؟ ما هي الظروف الاجتماعية؟ ما هو تاريخ العائلة؟ ما هي الظروف التي عاشها الإنسان؟ وذلك من أجل أن نفهم لماذا تطورت هذه العدوانية القوية في البنية الأخلاقية للشخص، لكن الشخص لا يقول شيئاً حول ما يفعله المنظرون الغرائزيون، عندما يتحدثون عن الحرب: «نعم، هنا لا يستطيع المرء أن يفعل شيئاً، حيث تعبر من جديد عن نفسها شدة العدوانية المولودة مع الإنسان».

كل واحد منا يعرف أناساً عدوانيين، وهنا لا أقصد بالناس العدوانيين أولئك الذين يعودون عن غيظهم ويرضون بسرعة، بل الناس الساديين،

ممن عندهم روح الكراهية والميل للتحطيم. وكل منا يعرف أناساً طيبين، الذين ليسوا كذلك ظاهرياً، وإنما بالعمق، خلوقين تجاه الآخرين، وغير عدوانيين بأي شكل، بدون أن يكونوا ـ لهذا السبب أو ذاك ـ ضعافاً أو مستضعفين. عندما لا يستطيع أحدنا أن يلاحظ الفارق، فإنه يكون سيّء الحظ، وكثير من الناس هم كذلك، لأنهم لا يلاحظون. إلا أنّ جلّ الناس، الذين هم، إلى حد ما قادرون على الملاحظة، يعلمون تماماً أنه يوجد مثل هذه الاختلافات الطبيعية.

يجب علينا الآن أن نسأل أنفسنا بشكل أدّق: كيف هو الأمر بالنسبة للعدوانية الإنسانية بخاصة؟ لقد تكلمنا حتى الآن عن أسباب عدم تبعية ذلك للناحية الانفعالية. بشكل مبدئي يمكن التمييز بين نوعين من العدوانية عند الناس، أحدهما من النوع البيولوجي، أي من النوع الدفاعي كما هو عند الحيوان، ونوع آخر لا يوجد عند الحيوان، إنه النوع الإنساني، بما يعني العنف الإنساني من جهة، ومن جهة أخرى العداوة للحياة الإنسانية، إنه كراهية الحياة، بمعنى حالة (نعي الموتى) (وهنا لن أعرج على ذلك).

نتوقف الآن مع النوع الأول، والذي تكون فيه العدوانية ذات العلاقة الحيوية عند الإنسان والحيوان متشابهتين. لقد رأينا أن ردة الفعل عند الحيوان، من منطلق علم النفس العصبي الحيوي، هي تماماً كما عند الإنسان، عدوانية، أي عندما تكون رغباته الحيويّة الأساسية مهددة. هكذا يفعل الإنسان أيضاً. لكن عند الإنسان تكون ردة الفعل هذه، تلك

العدائية المرافقة، أكثر شمولية، وبشكل رئيسي انطلاقاً من ثلاثة أسباب: أحدها أن الحيوان يعيش التهديد فقط في حينه، إنّه يعيش فقط لحظة التهديد بالخطر على حياته..«هو يعيش هذه اللحظة وكأنه يقول: الآن أنا في خطر» أما الإنسان الذي يستطيع التفكير، أي يفكر في المستقبل، فهو يستطيع أن يعايش الخطر الذي يمكن أن يقع عليه في المستقبل، وتكون ردة الفعل عند الشخص هذا عدائية، ليس فقط على ما يمكن أن يلحق به التهديد حالياً، بل على التهديد الذي قد يخبئه له المستقبل، هذا بالطبع يعطي ردود فعل لعدوان أكبر حجماً، ولعدد من حالات التهديد التي يكمن فيها الخطر أكثر في المستقبل، كما يكون عدد الناس الذين يستشعرون الخطر، أكبر.

عدا عن ذلك، تكون ردة الفعل العدوانية عند البشر أشمل، حيث يمكن التأثير عليهم، أما الحيوان فلا. كما يمكن مخاطبة الإنسان بأن حياته، حريته، مهددة، ولهذا الغرض يحتاج إلى كلمات، ويحتاج إلى رموز وإشارات. أما بالنسبة للحيوان فلا يمكن غسل دماغه، كذلك يحتاج الأمر معه إلى رموز، وليس إلى كلمات. يخبر أحدهم الإنسان بأنه مهدد، وتكون ردة الفعل الذاتية، كما لو أنه مهدد فعلاً، أي لا يحدث ذلك أي اختلاف لردة الفعل، فهو فقط يصدق أنه مهدد. إنني لست بحاجة إلى الحديث عن ذلك أكثر، فكم من المرات قد نشأت فيها حروب بهذه الطريقة، بسبب أن شخصاً ما أخبر أناساً أنهم مهدون، وبذلك خلق الظروف المناسبة التي تؤدي بالناس إلى الحرب.

وهناك سبب ثالث: أن الإنسان لديه رغبات حيوية خاصة به، ويؤسس عليها أنها ذات قيمة مهمة له، أهداف، رغبات...الخ، ويحقق ذاته بها، وبذلك يكون للعدوان على تلك الأهداف والرغبات، أو على الأشخاص الذين هم مهمون لحياته ولرغباته ومؤسساته والتي هي مقدسة بالنسبة له، نفس القيمة، كما لو كان الهجوم سيكون على حياته هو وعلى وسيلة عيشه هو. إنها تعني: المُثُل، الحرية، الشرف، الوالدين، الأب والأم، الأجداد والأسلاف والحضارة. الوطن والعلَم والدولة، الدين، الآله...الخ. كل هذه القيم والمؤسسات والأعراف لها قيمة كبرى في حياة الإنسان الحضارية تماماً كما في حياته الصحيّة والجسدية، فإذا كانت هذه مهددة، فسوف تكون العداوة والكراهية هما ردة الفعل الحتمية لديه.

عندما نأخذ العوامل الثلاثة معاً، نفهم أن العدوانية الدفاعية عند الإنسان، بالرغم من أنها تستند على نفس التقنية المعتمدة عند الحيوان في الموضوع ذاته، إلا أنها أكبر مما لدى الحيوان، لأن التهديدات تجاه الإنسان أكبر ومصادرها أكثر مما هو الحال عند الحيوان.

يشترك الإنسان مع الحيوان بشأن العدوانية الدفاعية ذات المنشأ البيولوجي التي تحقق الذود عن رغباته الحيوية ضد الهجمات الخارجية، أضف إلى ذلك أنه يوجد لدى الإنسان أشكال متعددة من العدوانية التي لا نعرفها لدى الحيوان. وهي من الناحية العضوية غير ملائمة، ولا تخدم الناحية الدفاعية، لكنها متأصلة في صفاته الأخلاقية. لماذا طوّر الإنسان فيه هذه العدوانية مثقلة بهذه الصفات؟ إنه سؤال معقّد، ولن أعرج عليه

الآن للإجابة... ذلك أن هذه الصفات محملة بالعدوانية وموجودة فقط عند الإنسان. هنا أريد فقط أن أعرج بالتوضيح على ظاهرة، هي ظاهرة السادية الخلقية.

غالباً ما يفهم من السادية الانحراف الجنسي. إن الإثارة الجنسية للرجل مرتبطة هنا بأن الرجل يضرب المرأة أو يسيء معاملتها، لكن مفهوم السادية يعني المعاناة أو الرغبة في أن يُلحِق أحد الأذى الجسمي بإنسان آخر. إن حقيقة السادية تندرج في أن يقوم شخص ما بالتحكم في مصير كائن حي آخر بشكل كامل ومطلق. هذا الآخر يمكن أن يكون حيواناً، طفلاً، شخصاً....الخ، يمكن تحديده في أن يكون هذا الآخر كائناً حياً قابلاً للتملّك وأن يكون تحت سيطرة السادي.

عندما يتمكن أحدهم من أن يجبر إنساناً على أن يتحمل الألم، بدون أن يستطيع الدفاع عن نفسه، ساعتئذٍ يكون ذلك هو الشكل الأقصى للتحكم، لكن ليس الشكل الوحيد للسادية. إنك تجد مثل هؤلاء الساديين بين المعلمين، وبين المشرفين على السجناء...الخ. ويمكن تتبع الأثر لسلوكهم، وكيف أن هنا الشكل من السادية، وإنْ لم يكن جنسياً بالمعنى الشائع، في أضيق وجوهه، فإنّ بوسعنا القول ولو لمرة إنه شكل دافئ وعاطفي للسادية. لكن هذا ليس إلا شكلاً واحداً. «إن السادية الباردة» وهي الأكثر انتشاراً ليست عاطفية، بل وليس لها علاقة بالناحية الجنسية، إنما لها الحالة المميزة نفسها التي للسادية الجنسية الناعمة، ويبقى هدفها النهائي هو التحكم، أي فرض كامل السيطرة على شخص

آخر بشكل كلي ليطيع ويكون في قبضة اليد، كما العجينة في قبضة صانع الفخار.

ثمة أنواع حميدة من السادية، كما هو الحال عند الأمهات، ولدى بعض رؤساء العمل عندما يقومون بواجباتهم تجاه الآخر، ليس بغاية السيطرة أو استجابة لغريزة السادية بما يسيء للآخر، ولكن بما يعود عليه بالفائدة ويوجهه بما عليه أن يفعله، فكل ما يتوجب عليه عمله مكتوب أمامه. وهذا مفيد له، لكنه، بكل الأحوال، يفقد بعض حريته ويصبح غير مستقل تماماً. وفي بعض الأحيان تجدون ذلك في علاقات الأمهات أو الآباء مع الأبناء، حيث لا يعي واحدهم أبداً أنه يقع ـ ولو بشكل ضعيف جداً ـ تحت تأثير السادية، لأنه يعني، «أن ما يفعله جيد» وكذلك الآخر ـ الولد أو العامل ـ غير واعٍ أنه ضحية، بل عليه ألا يرى سوى أنه مستفيد من العلاقة، لكنه يرى أن روحه تتأذى، أنه أقلّ قيمة، غير مستقل، أو أنه شخص غير حر.

سأعطيكم الآن مثلاً عن نوع من أقسى أشكال السادية: حيث يوجد شخص يعاني من القدرة والسيطرة المطلقة، إنه كليّ القدرة، هو يريد أن يكون إلهاً. وذلك ما كان موضوع المسرحية الشهيرة كاليغولا GALIGULA والتي قام فيها الممثل كاموس بدور كاليغولا، القيصر الروماني الحاكم المستبد، بسلطات مطلقة. ربما لم يكن يرغب أن يكون مختلفاً عن الناس الآخرين، لكنه وجد نفسه في وضع يشعر فيه أنه يقف خارج الشروط العادية للوجود الإنساني، حيث أن قدرته غير محدودة. هكذا بدأ بإغواء نساء أصدقائه، كان أصدقاؤه يعلمون بذلك، لكن لرغبة في

نفسه أراد أن يطلعهم على فعلته، وكان عليهم أكثر من ذلك أن يأتوا إليه ويتقربوا منه. كان عليهم، إذا أرادوا ألا يتم اغتيالهم، ألا يفكروا يوماً في أن يظهروا امتعاضهم أو عدم رضاهم عما قد يريده بهم، وإلاّ قضى عليهم، كما تشتهي نفسه. وهو لم يفعل ذلك لأنه كان يرغب ألا يرى أحداً منهم، إنما لأن ذلك دليل قوته ـ كل قوته المطلقة، في أنه يستطيع قتل الآخرين حين يشاء. لكن ذلك أيضاً لا يلبي رغبات ذلك الحاكم، لأنه أمر محدود بالنهاية. وهكذا عبر الحاكم المستبد عن إرادته ـ كما أخرجها كاموس بشكل جميل ـ في الرغبة النموذجية، إنه يريد القمر. لو قدر لذاك القيصر أن يرغب ذلك حالياً لكان الأمر مضحكاً وغريباً بعض الشيء، أي قبل عقدين من الزمن ـ أن يتمنى «أنا أريد المستحيل، أريد القوة التي لا يملكها أحد، إنني الأوحد، إنني إله، أنا عندي السيطرة على كل شيء، وما أريده، أستطيع الحصول عليه».

في حالة الانفعال المحزن للسيطرة المطلقة، يحاول الإنسان أن يناور في تجنب الشروط الملزمة في الوجود الإنساني، في ألا تكون له القدرة المطلقة، ولو قُيّض له الكثير من السلطة، فإن قدر الموت يريه كم هو ضعيف أمام الحياة. إن كاموس يصف بقوة، لا يمكن معها للقيصر أن يكون إلا كما يكون الآخرون، وأخيراً أودى به الأمر إلى الجنون، إذ أصبح معتوهاً! لأنه حاول أن يتجاوز حدود الوجود الإنساني، كما يحدث مع أي معتوه آخر حاول ذلك، ولكن لم يستطع معرفة طريق العودة. نحن نرى هنا، أن الخبل العقلي هو بالتأكيد ليس مرضاً، لكنه طريقة قاصرة من أجل إيجاد

حل للوجود الإنساني، إن المعتوه لا يعترف بالضعف العقلي الذي يسكن داخل الإنسان ويعذبه، حيث أن المعتوه ليس عنده تحديد لتصوراته اللامعقولة. إنه يغش نفسه بنفسه ليثبت أن ذلك الضعف لا وجود له. ولكن بما أنه موجود فعلاً، فقد كان عليه أن يفقد إمكانية الاستيعاب، عندما يبقى مصراً على موقفه. هذا بالتأكيد ليس جنوناً، لكنه فلسفة. الأدق، أنه نوع من الدين. إن الخبل هنا، هو محاولة استبعاد الضعف الإنساني من خلال إنكاره له، بحيث أن الإنسان يخدع نفسه بشكل ما، بما ليس له وجود.

من الصحيح بالتأكيد أن الإنسان قبل خمسين عاماً كان يصدق أن جماعة كاليغولاس قد عاشوا في العصر الروماني. وفي القرن العشرين عاصرنا مجموعات عديدة من جماعة الكاليغولاس في أوروبا وفي أمريكا وإفريقيا وفي العالم. إنهم جماعة الكاليغولاس الذين فُصّلوا على نفس المقاس، وهم جميعاً عاشوا الجبروت اللامحدود ولم يستطيعوا التحرر من المعاناة، ومن سعيهم الدائم لحل قضايا وجودهم، حيث لا يصدقون بمحدودية القوة لديهم. نحن نرى ذلك عند ستالين كما عند هتلر، لقد تمّ تجاهل محدودية الوجود الإنساني. وهنا يدخل هؤلاء حالة محتمة من الجنون والخبل.

إن الكثير من الناس لحسن الحظ يقتنعون أنه يجب عليهم، طالما هم ساديون ويرغبون بالسيطرة، أن يعيشوا السادية الباردة كاملة بأساليب متواضعة، والتي تؤمّن لهم السعادة. كلنا يعلم أن الآباء والأمهات يمكن أن

يتصرفوا بسادية تجاه أولادهم، بحيث يمارسون عليهم سيطرة كاملة. هذا ليس منتشراً في هذه الأيام، لأن الأولاد في عصرنا لا يرضخون لمثل هذه المعاملة. لكن قبل عشرين أو ثلاثين أو أربعين سنة كان ذلك من التقاليد. والأطباء يعرفون حوادث كثيرة، يحضر الأطفال فيها إلى المشفى وهم يعانون من جراح خطرة، أصابتهم جرّاء معاملة ذويهم لهم بقسوة. وهذا يمثل نسبة صغيرة من سوء معاناة الأطفال من ذويهم، حيث أنه طبقاً للقانون وحسب الحاجة، يمكن للآباء والأمهات أن يفعلوا أي شيء ضد الأولاد، طالما أنهم يدعون أن ما حدث كان لصالحهم، وما دام ليس من مؤشرات لسوء التعامل، أو لما يمكن تسميته بالسادية حول المقاس الخاص بالسيطرة. إن سوء معاملة الوالدين لأبنائهم، يمكن أن تؤلف كتباً. وهذا ما ينطبق على الشرطة والممرضات وحراس السجون...الخ. لكن قوى السيطرة تلك ليست من «كاليغولا»، حيث عليهم أن ينصتوا لصوت العقل بأنهم أناس صغار، ليس بإمكانهم فعل الكثير، لكن تجاه الأطفال، تجاه المرضى، تجاه السجناء، لهم نسبياً سيطرة كبيرة. وهكذا تجدون ساديين كثيرين في هذه الحرف الوظيفية. ولا أريد القول بهذا إن معظم المعلمين أو الممرضات ساديون، على العكس، هناك بالفعل عدد كبير من الناس الذين سيصبحون معلمين أو ممرضات، لأن عندهم ميلاً كبيراً لمد يد المساعدة، لأنهم بطبيعتهم طيبون، لأنهم يحبون الناس. إني أتحدث عمّن هم عكس ذلك، عن الذين نشأوا يعانون من أجل ممارسة السيطرة على الآخرين.

هذه المعاناة تصادفها عند الناس البيروقراطيين غالباً. سأعطيكم مثالاً بغاية البساطة، وقد تكونون أنتم رأيتموه. فكروا بذلك الموظف خلف كوة

البريد. هناك وقف بالانتظار خمسة عشر رجلاً ينتظرون منذ السادسة صباحاً، وعند نهاية الدوام كان لا يزال هنا شخصان ينتظران. موظف البريد يغلق عند السادسة تماماً، والشخصان اللذان كانا ينتظران منذ أكثر من نصف ساعة عليهما أن يغادرا. هنا تلاحظ الابتسامة الساخرة حول فم الموظف. إنها ابتسامة خفيفة سادية. إنه يتلذذ بأن على اثنين من الزبائن المغادرة. لقد كانت له سلطة على اللذين انتظرا: أن يغادرا وأن يعودا مجبرين غداً، لقد كان من الطبيعي أن يعطي الموظف دقيقتين من وقته لهذين المنتظرين، لكن كلا! هذا ما كان سيقوم به الموظف الطيب وقد يقوم به الكثيرون. أما ذلك السّادي فهو يقوم بإغلاق الكوّة، بل إنه لا يغلق وحسب، لكنه يجد متعة في ذلك، ولو أنه لا يتقاضى أجراً كبيراً، إلا أن متعة السادية التي تلذذ بها هنا تعادل بالنسبة له جزءاً من الراتب الذي لا يريد أن يفقده.

سأقدم لكم مثالاً لرجل سادي بامتياز، قام بأشياء كثيرة أشد سوءاً من ممارسة السيطرة: إنه «هاينرش هملر». إنني أقرأ لكم رسالة، كان قد كتبها لأحد القادة النازيين: «دالبرت غراف كوتولينسكى»:

«الحبيب كوتولينكسى: لقد كنتَ مريضاً وقد عانيتَ كثيراً من المرض وعانيت الكثير من مرض القلب. من أجل صحتك أحظر عليك ولمدة سنتين ممارسة التدخين. بعد سنتين يتوجب عليك تقديم تقرير طبي، وبناء عليه أتخذ قراري في رفع حظر التدخين أو أقوم بتمديده ـ يعيش هتلر». إنها السيطرة، إنه الإذلال، إنه يعامل هؤلاء الناس وكأنهم تلاميذ أغبياء: إنه يكتب له بهذه الطريقة كي يشعره بالإذلال. هو يسيطر عليه، هو لا يترك

للطبيب أن يحدد ما إذا كان يستطيع العودة للتدخين، إنما يقرر متى يستطيع العودة للتدخين. ثمة منحنى آخر للطبقة البيروقراطية كأناس ساديين، حيث السادية تظهر نفسها في أن المصاب يرى الناس وكأنهم مخلوقات تتحول إلى أشياء، ولا علاقة لهذا البيروقراطي بهم. جماعة أخرى الساديين ترى أن الناس المعدمين هم من يستثيرونهم، وليس أولئك الذين هم ذوو قيمة، والسادي عادة يسيطر على الجبان، لكنّ هذا إما أن يكون أيضاً لا حول له ولا قوة، أو ثمة من يجعله كذلك، كما في حالة الطفل، أو المريض، أو ذلك الخصم السياسي في ظروف سياسية خاصة. لا يستشعر السادي كيف يمكن أن يكون الإنسان الطبيعي ذا رحمة، وهو بنفس الوقت لا يوجه كلمة طيبة للضعيف. إن الضعف يثيره أكثر بكثير، لأن هذا الضعف ييسر له أن يستعمل كل صلاحياته السادية.

شيء آخر بالنسبة للساديين: إن حب النظام شيء مميز، وهو سمة ملازمة للبيروقراطيين، النظام هو كل شيء، النظام هو الشيء الأكثر ضمانة، والوحيد الذي يستطيع المرء أن يسيطر عليه. إن من يتمتعون بأكبر قدر من حسْن الطاعة، عندهم عادة الخوف أمام الحياة، ذلك أن الحياة ليست تلقائية، إنها مضطربة، تحمله كثيراً من المفاجآت. إن الضمانة الوحيدة التي نمتلكها، هي الموت، أما ماذا بشأن الحياة، ففي كل يوم جديد، ومع ذلك فبالنسبة للسادي الذي لم تحسن تربيته، كل الموجودات تصير إلى أشياء، هذا الرجل يكره كل ما هو حي لأن ذلك يهدده، إنه يحب النظام وحسب.

لذلك ـ على سبيل المثال ـ كان ما هو مميز بالنسبة للسيد «هملر» أنه حمل لمدة عشر سنوات دفتر مذكراته، ومنذ كان عمره أربعة عشر عاماً، بكل ما فيه من مواضيع فيه مبتذلة. مثلا: كم سندويشة أكل؟ أو أن القطار كان على الموعد بدقة، كل شيء، كل صغيرة، كل ما فعله، كل شيء مسجل. أو أنه وضع سجل العناوين، وحتى عندما كان شاباً صغيراً، حول كل الرسائل التي كتبها أو استلمها. إنه النظام. وهكذا يمكن أن يقال: إنها الدقة، الدقة بكاملها لصنف معين من الناس، الصنف القديم للبيروقراطيين، والذين ليست الحياة بالنسبة لهم أكثر من: النظام والقاعدة لكل شيء وفوق كل شيء.

كان «أيخمان» قد سئل خلال محاكماته في إسرائيل من قبل عالم نفسي ـ وحيث على ما يظهر كان يشعر بكامل الحرية ـ سئل فيما إذا كان يشعر أنه مذنب، أجاب أيخمان: نعم، عندي مشاعر بالذنب. وعندما سئل من جديد: لماذا عنده مشاعر بالذنب؟ قال إنه عندما كان تلميذاً صغيراً عُلق له ذنب مرتين. أيخمان لم يكن ذكياً، إذ يجيب هكذا وهو في المحكمة، يقف كمتهم. لو كان ذكياً كفاية في المدرسة لكان بإمكانه أن يقول إن عنده مشاعر بالذنب لأنه قتل كثيراً من اليهود. لكنه كان صادقاً جداً، وكان كل شيء بالنسبة له طبيعياً: هنا هو يجرح النظام، فالبيروقراطي يعرف نوعاً واحداً من الذنوب هو الإساءة للنظام، أي عندما يخالف القانون. وختاماً فإن نزعة الإذعان هي صبغة مميزة للإنسان السادي. إنه يرغب في السيطرة على الضعفاء، بل يسعى لإذلالهم. وهو يملك القليل من حب الحياة، لذلك يمارس عملية الإخضاع كي يستطيع الحياة تحت سيطرة

الأقوى منه. على سبيل المثال: جعل «هملر» من «هتلر» مثال الإله الوثني. لو لم يكن ذلك الذي خضع له إنساناً، لكان التاريخ، الماضي، قوى الطبيعة التي هي أقوى من الإنسان نفسه. إن السادي يصيح دوماً: عليّ أن أكون تابعاً، أي أن أخضع لمن هو أقوى مني، للقوة الأكبر، خضوع الضعيف للقوي كما يقال دوماً. وأنا الأقوى على الأضعف الذي تحت سيطرتي! هذا هو النظام: البيروقراطية السادية ـ السادية الباردة على العموم.

ينطبق على ما سبق على نحوٍ لا يصدق، وعلى ما قمت به من، توصيف للسيد «هملر» هذا الذي قاله «كارل ج بوركهارت Karl J Burckhart» الذي كان في حينه مستشار الحكومة الألمانية في مدينة دانتزيغ. لقد وصف هملر بما يلي: «إنه على درجة عالية من الثّقة الكبيرة لمعالجة القضية المكلف بها، والتي تستوجب بعض الضمير الحي. [Zit.nach.Ackermann][1970 S.17] إنه وصف لشخص سادي. والآن يمكنكم أن تسألوا: أكان ممكناً أن يكون «هملر» غيره لو لم يأت في هذه القضية هكذا، وفي وقت لم يوجد فيه الحزب النازي الاشتراكي؟ أي رجل كان سيكون عندئذ؟ يجب أن يقال إنه سيكون واحداً من موظفين كثر جداً. إني أستطيع أن أتصور بوضوح، أنه عند لحده في القبر، أن الكاهن والحاكم كانا سيقولان في كلمات التأبين: «لقد كان أباً محترماً للعائلة وأحب الأطفال، وأعطى كل إمكاناته للوظيفة ولمكتبه، ونذر نفسه للمؤسسة التي عمل بها». هكذا كان «هملر» حقيقة. يحب أن يكون الإنسان واضحاً، أن السادي في مكان ما أيضاً بحاجة إلى أن يبرهن بنفسه

على أنه إنسان، وأنه يمكن أن يكون لطيفاً، وعندما لا يستطيع إنسان أن يبرهن على أنه في مكان ما أيضاً إنساني السلوك، فإن هذا يعني أنه أحمق، وهذا يعني أن عليه أن يعيش منعزلاً عن الآخرين، مما لا يتحمله إنسان، وقد كان هملر كذلك حقاً. فحسب التقارير، فإن العديد من أعضاء الفريق الذي كانوا يعملون معه، والذين قاموا بتنفيذ أحكام الإعدام للسياسيين، لليهود وللروس...الخ.. أصيبوا بالجنون، وكثيرون انتحروا وأصيبوا بأمراض نفسية، وقد كتب واحد من قادة هذا الفريق: كان عليهم أن يعرضوا على الناس كيف يتم إعدام اليهود بالسلاح أمام أعينهم، وذلك بإطلاق الرصاص عليهم أو الإعدام بواسطة المحرقة، كي يبقى الناس محافظين على توازنهم ومشاعرهم.

إنني أعتقد أنه يمكن للإنسان أن يقول: يوجد الكثير من هذا الذي يدعى «هملر»، الكثير من الساديين، لكن ليس معهم شهادة أنهم ساديون، لأن الفرصة لم تتوفر للجميع. لكنني أعتقد أنه أيضاً من الخطأ التفكير في أن في كل منا يختبئ «هملر»، ذلك أنه في كل منا بواعث للسادية، والتي فقط في ظروف خاصة أو ملائمة قد تظهر للعلن، وهنا بيت القصيد، وعن ذلك أتكلم هنا: نعم توجد أخلاق سادية، كما نقول لا توجد أخلاق سادية. إن بعض الناس الذين عندهم أخلاق سادية يوصفون بالساديين، ويعطون الشهادة بذلك عندما تكون الظروف مناسبة. وثمة آخرون ليسوا ساديين، حتى لو كانت الظروف مناسبة، لأنهم يتخلقون بأخلاق أخرى. لذلك من المهم جداً تكوين تصور صحيح للتعريف والتعليم، وذلك لمعرفة من هم ساديون ومنهم غير ساديين، ولا يسمحون بأن يتأثروا ويحيدوا عن

أخلاقهم، وفي أنهم لطفاء للأطفال وللحيوان، وجيدون لهذا وذاك من الناس. وبالنظر إلى الأخلاق يلاحظ الإنسان ماذا يختزن في خلقه، وإدراكه، وخلف جميع التصرفات والسلوكيات؟ ما هي الأسس الأصيلة لأخلاقه؟ كذلك ماذا تعني السلوكيات الظاهرية وعلاقات السلوكيات المركبة داخل الإنسان؟ هل فهمنا حقاً أكثر وأكثر عن الأخلاق؟ هل لم يعد من السهل حقاً أن ننجر إلى سلوكيات شاذة؟ بالإجابة نكون قد أحرزنا تقدماً ونجاحاً كبيرين، ليس فقط لحياتنا الخاصة، ولكن أيضاً للسياسة، حيث يتوجب على الإنسان وقبل أن تقع الكارثة، أن يعرف، هل هؤلاء الذين سيقودون حياتنا السياسية، ساديين أم غير ساديين؟

الحلم هو لغة الإنسان العالمي

نحن نعتقد أننا نتكلم لغة واحدة، نعرّفها باللغة الأم. ربما نكون تعلمنا لغات غريبة أخرى مثل الإنجليزيّة، الإفرنسيّة، الإيطاليّة، لكننا ننسى أننا جميعاً نتكلم لغة أخرى، ونعني بها لغة الأحلام. هذه اللغة ذات ميزّة خاصة، والموضوع يختص بما يسمّى اللغة العالميّة، والتي ظهرت خلال تاريخ الإنسان وخلال كلّ الحضارات. إنّها لغة الأحلام حتى للإنسان البدائي. لغة الأحلام للفرعون في الإنجيل، لغة الأحلام للإنسان الساكن في شتوتغارت وفي نيويورك، إنها كلها واحدة تقريباً. نتكلّم هذه اللغة في اللّيل يوميّاً، بالرغم من أنّنا ننسق أحلامنا، ولذلك نقول، بأنّنا لم نحلم، لكننا للحقيقة نحلم اللّيلة تلو الليلة.

ما هي صفات لغة الأحلام هذه؟ أولاً هي لغة اللّيل، لغة النوم. إنها، كما لو أننا فقط نتكلم الفرنسية ليلاً ولا نفقه كلمة واحدة منها نهاراً. إضافة إلى ذلك هي لغة مرمّزة، نستطيع أن نقول: إنّ هذه اللغة عالمية بواقعيتها تجاه الأشياء الحسيّة والملموسة والمرئيّة، فهي تعبّر عن المعايشات الداخلية، لما يحدثه الخارج على الداخل من تأثير. والأمر كما في الشّعر، عندما يقول الشاعر: «الوردة الحمراء تجعل قلبي دافئاً». هذا لا يعني أبداً أن درجة الحرارة ترتفع، لأنه هنا يعبّر عن الشعور بحالة يعيشها، والتي يعبر عنها بطريقة شعورية حقيقيّة، ويفسّر ما أعنيه ـ على سبيل المثال ـ ما يؤدّيه حلم جميل يراه الإنسان من آثار السّعادة التي أعنيها.

يروي العالم «سيغموند فرويد» حلماً رآه، حلماً قصيراً جداً، «فرويد» يحلم: عنده حوض زهور، وجد في ذلك الحوض زهرة ذابلة. هذا كلّ شيء، كان هناك أمامه عدّة احتمالات من التفسير، بمعنى: أن تلك الزّهرة هي زهرة الحب الخاصة بزوجته، وزوجته دائمة الشكوى من أنه لا يهديها زهرة. بنفس الوقت لهذه الزهرة علاقة بالكوكائين، وفرويد يعتبر نفسه المكتشف لأهمية الكوكائين لغايات طبيّة، إنه رمز بسيط: زهرة في حوض الزهر. لكنّ ذلك يعني الكثير، إنه يكشف عن نواحٍ كثيرة في شخصيّة «فرويد»، الزهرة هي رمز الحب، والجنس والإثارة الجنسية والحيويّة، لكن الزّهرة في حوض الزهر كانت يابسة، تحمل معنىً آخر وهدفاً آخر، هو التحري العلمي للظّاهرة. إنها موضوع للبحث والاكتشاف، لكنها لم تعد تعيش مزهرة متفتحة حيّة... لكن من يعرف شخصيّة «فرويد» عن قرب تجاه ظواهر الجنس والحب، فسوف يرى الحقيقة: إن «فرويد» جعل من الأمر موضوعاً للبحث والدراسة العلميّة، إذ أن «فرويد» في حياته الخاصة والاجتماعيّة كان رجلاً محتشماً محترماً جداً. وقد كتب في أوائل الأربعين مرةً لصديقه: كم كانت مفاجأة أنه رأى سيّدة، ووجدها جذّابة! هذا مثال كيف كان «فرويد» في عمره، لا يندهش للرجال أبداً ممن رآهم! عندنا هنا رمز أمام أعيننا، ويرى أحدنا في هذا الرمز البسيط الذي لا يحتاج لأكثر من عدة كلمات لإعادة صياغته، يرى وصفاً لمعالم تلك الشخصيّة للعالم «فرويد» والتي يمكن كتابة العديد من الصفحات حولها، من أجل إعادة صياغة وتفسير ماذا يريد هذا الحلم أن ينبئنا به من خلال تلك اللغة المرمّزة.

ثمة تميز آخر للغة الأحلام هو أنه يمكن فيها معرفة الأكثر عنّا وعن الآخرين مما هو معلوم لدينا. إننا قد نكون ـ وهذا سأعود إليه ثانية ـ في بعض النواحي غير منطقيين فيما نراه، ولكن في نواح أخرى نكون أكثر منطقيّةً، وأكثر وضوحاً منا خلال أوقات صحونا. ما يقوله لنا حلم «فرويد» على سبيل المثال: هو لم يكن على دراية كاملة فيما شاهده أو بناءً على التحليل الذي قام به، ولكن من خلال الحلم استطاع أن يستبين بوضوح ازدواجيّة وتشظّي الموقف بما مثّلته تلك الزهرة.

في لغة الحلم هذه تتداخل المعالم، ففي هذا الحلم ليس التقييم مميّزاً لمعْلَمٍ محدد، عندما يكون الحلم: (إن غالبية الناس وأنا أقول «غالبية»، إذ ليس عندنا إحصائيات حولها، لذلك علي أن أكون حذراً بعض الشّيء، لأقول من أناس كثر أو بالأصوب أن أقول من «عديد من الناس»، الذين قابلتهم في عيادتي) يكونون في الأحلام ـ بطريقة ما ـ أكثر إبداعاً، منهم في اليقظة ولا يحلمون البتّة. إنهم في الحلم يصبحون مبدعين في السّرد وفي الشّعر وفي الأساطير، إنهم أنفسهم هؤلاء الذين لا يستطيعون وهم متيقظون، وفي أحسن الأحوال ومع كل المحاولات، أن يبلغوا هذه السّوية كما في الحلم. ففي كثير من الأحلام التي سمعتها، والتي نشرت كلمة كلمة كما حدثت، والتي أمكن إخراجها بتقارير من «كافكا» علاوة على ذلك، عندما يستيقظ هذا الشخص، ويأتي من يقول له «اكتب من فضلك تقارير على غرار «كافكا»، عندها يجحظ بعينيه وكأنّه في لحظة عكر. هذا العمل بالنّسبة له ليس ممكناً. هذا الشّخص يرى في الحلم أنّه شاعر ـ فنّان، وهو

نفسه في حالة اليقظة ليس في شيءٍ من ذلك، وكأنّه قد فقد كل تلك الإمكانيات، نعم، هو يستطيع أن يحدد توصيف فنان موهوب، إذ يقول: إن الإنسان مبدع، لا ينام، هذا يعني أنه خلاق» مبدع ـ متيقظ دوماً، إنّه مبدع وهو مستيقظ.

إن واحدنا يشبه شيئاً من حضارتنا في النهار، فما أقوله في النهار يتوقف على مكان ولادتنا. الأفريقي الذي ينتسب إلى شعب صيّاد، يتكلم عن أشياء أخرى تختلف عما عندنا، وهذا مفهوم بحدّ ذاته. ما نقوله له علاقة بالمجتمع، أما في الأحلام فنحن نتكلم لغة عالميّة. اللغة اليوميّة التي نتعامل بها هي اللغة الأمّ أو لغة أجنبية تعلمناها... هي لغة تحمل صفة حضاريّة معيّنة. وعلى النَقيض فإن لغة الأحلام هي لغة عالميّة، لكنها لغة الإنسانية.

كيف نستطيع أن نوضح ذلك؟ سأعرج على شيء ما، يظهر وكأنّه معقّد. لكنّه بالحقيقة في غاية البساطة، ويقوم على تحديد الفرق بين اليقظة والنوم. نحن نعيش في شكلين قائمين من الوجود. وهما موجودان طبعاً، بدون أن يكون في وعينا هذا التعايش: جزء من حياتنا نعيشهُ ونحن متيقّظون والجزء الآخر من حياتنا نعيشه ونحن نيام. لكن ماذا يعني أنّنا متيقظون؟

أنْ نكون متيقظّين يعني أننا في وضع يتوجب علينا فيه تأمين احتياجاتنا، أي علينا أن نعمل، علينا تحضير مستلزمات الحياة ـ تأمين ما نحتاج ـ كي نستطيع الحياة، علينا أن نكافح لنحمي أنفسنا ضدّ أيّ

عدوان، باختصار، علينا أن «نسعى ونكافح». هذا له نتائج على تجاربنا، كما له نتائج على تفكيرنا. من أجل تجاربنا: علينا أن ننظم أنفسنا، يجب أن نتصرف هكذا، كما ينتظر منا المجتمع الذي نعيش فيه، وذلك من أجل أن ننتج، من أجل أن نمارس العمل. لكن ما هو أهم، وهذا له تأثير كبير على نماذج تفكيرنا وعلى مشاعرنا، أننا في النهار يجب أن نرى الأشياء هكذا، كما يجب أن نراها فعلاً، وذلك من أجل معالجتها بالطرق التي نراها، وكيف علينا أن نحولها من أجل أن نستخدمها، ونستطيع أن نحضّر منها شيئاً، علينا أن نتصرف بوعي، التصرف بوعي يعني أنه كما أن علينا أن نتفهم الآخرين، على الآخرين أن يتفهمّونا، أن يحسنوا معاملتنا، يقدرونا ويحترمونا ولا ينوون بنا السّوء من حيث اعتبارنا أناساً مغفلين ومراوغين، إننا نفكر ونشعر بماذا قد أعَده لنا ذوو العقل السليم وأصحاب الحس السليم، إننا نفكر ونشعر أننا جميعاً نحب الوالدين، حيث أنهم والآخرون ممن في السلطة هم الذين يخطّطون ويدرسون ويقدّمون الأحسن وبما يؤدي للأفضل. إننا نشعر بأنفسنا أكثر سعادة وأكثر نشاطاً عندما تسنح لنا الفرصة المناسبة. ونشعر بالحزن عندما لا نكون كذلك، بالرغم من أننا أحياناً لا نشعر، بل فقط نفكر أننا نشعر، وذلك حسب الوجه الذي ركبناه، فرحين أو بائسين ـ كم يبدو ذلك سخيفاً وتافهاً، عندما نعتقد أنه «لا يمكن أن يكون ما لا يسمح أن يكون»! إن أحلى مثل يقال في هذه المناسبة هو ما نسب إلى أساطير «أندرسن» عن ثياب القيصر، والقيصر عريان، في حين كان الجميع يعتقدون أنه يرتدي ثياباً جميلة جداً، لأنه هكذا ينتظر، إلا ذلك الصبيّ الذي يرى أن القيصر

لا يرتدي شيئاً، لماذا؟ لأنّ تفكيره لم يُقولَب بعد كعقل الكبار من أكثر الناس الموجودين. إننا نفكر ونشعر كما يتوقع الآخرون منا وذلك عندما نكون في حالة اليقظة.

أختار الآن مثلاً آخر: أحد رجال الأعمال له مركز عالٍ في تعهداته، هناك فقط يوجد مدير فوقه. وهو يقول بكل ثقة إنه ورئيسه على ثقة متبادلة جيدة، إنه يحبه وما من مشاكل معه البتّة. لقد رأى يوماً حلماً: رأى نفسه في الحلم مقيداً بواسطة شريط الهاتف، كانت يداه مكبلتين بالشريط والهاتف إلى جانبه يتدّلى، ويرى المدير على الأرض كأنه نائم. يشعر الرجل بداخله بإزعاج مرِيع، يكاد ينفجر، لقد اكتشف على مقربة منه مطرقة، أخذها بكلتا يديه وحاول أن يحطم رأس المدير، ولكن يرى أنه لم يحدث شيء، يفتح المدير عينيه ويضحك هازئاً به... هذا يعني: في حين أن الرجل كان يعتقد أنه تربطه مع مديره علاقات طيّبة، يجعلنا الحلم نكتشف أنّه في قاع نفسه يكره ذلك المدير حتى العظم، يكره ذاك الذي قيّده وأذّله، ويشعر أنه عاجز تجاهه، لا حول له ولا قوة. هذه هي الحقيقة، إنه يعيش الحقيقة في الحلم. إنها الحقيقة التي يعيشها في الحلم، وفي حالة اليقظة ـ ظاهريّاً على أقل تقدير ـ لا وجود لها فعلياً.

ماذا يحدث في حالة النوم؟ إننا أحرار. هذا يستحق التقّدير ولكنْ له في الأذن وقع غريب، هنا بكل تأكيد يمكن أن نقول: فقط عندما ننام، نكون أحراراً. هذا يعني: حيث نحن هنا في النوم غير مسؤولين عن الصراع في حياتنا، نحن لا نحتاج إلى أن نجني، لا نحتاج للدفاع عن أنفسنا. إننا

نفكر ونشعر تماماً كما نفكر ونشعر، ولا نحتاج أن نكيّف أنفسنا مع الآخرين، إننا نشعر ونفكر تماماً كما يجب: تفكيرنا وشعورنا خلال النوم يتطلب كل الصفات الذاتيّة. في النوم لا نحتاج إلى أن نعمل شيئاً، فقط نحتاج إلى أن نكون، في النّوم ليس عندنا مقاصد. إننا نستطيع أن نعيش حياتنا كما نراها على حقيقتها، وليس، كما يجب أن تكون، من أجل تحقيق أهداف معينة، وبتعبير آخر: في النوم يظهر الوعي الباطن على خشبة المسرح. الوعي الباطن ليس أسطورياً. إن ذلك يعني فقط: في النوم يظهر لنا ذاك الذي لا نعيه في حالة اليقظة كما هو في الحقيقة. وبالعكس: إننا لا نعرف في اليقظة ما نعرفه في النوم. حتى ليمكن للمرء أن يقول: في اليقظة يكون وعي النوم غير مدرك، وفي النوم فإن وعي اليقظة غير مدرك، إنهما سوّيتان مختلفان، إحداهما في النوم والأخرى في اليقظة، في حالة الوعي أو اللاوعي.

هل يعني ذلك أننا أثناء النوم حمقى وغرائزيون؟ أحياناً بالتأكيد، ولكن ليس دوماً، حتى ولا لمرّة واحدة في أغلب الظّروف، مع أنّ العالِم «فرويد» كان يعتقد أن الأحلام دوماً ضدّ المنطق تجاه ما هو منطقي. مع كل ذلك ـ كما يقال ـ تكون عندنا في النوم، على الأرجح رؤيا أكبر، وحكمة أكثر، لأننا في النوم نكون أكثر استقلالاً، ولأننا متحررون من كمّاشة الخجل، حيث نستشعر ونرى بحرية. حتى أنّنا في النّوم نختبر حلمنا، نحن لا نجرؤ على أن نتقبل حرّيّة الأحلام، إنما نغيّر، بل نتستّر على المحتوى الحقيقي للحلم، كما قد يكون مطلوباً فعلاً، عندما لا نريد أن يفهم أحدٌ

ماذا يعني ذلك الحلم. في هذه الحال لا يريد الحالم نفسه أثناء النوم أن يفهم ما حدث، لذلك نحاول أن ننسى الحلم، ومن ثمّ فإن غالبية أحلامنا تذهب منسيّة في الحياة المعاشة ولا يُسمح لها بالظهور، كيلا تزعجنا وتقلقنا.

إننا في الحلم أكثر قدرة على الخلق. إننا في الحلم نفجّر طاقات الإبداع التي لا نعرفها في واقعنا المعاش، ولا نحسب لها حساباً. إنني أفكر على سبيل المثال بذلك الحلم لأحد الأشخاص، الذي كان رجل أعمال ناجحاً جداً (إن الأحلام التي أرويها هنا، ليست صادرة عن مرضى عندي، إنما مصدرها بحوث دراسية، خصصت لرجل أعمال كبير كنّا ذكرناه آنفاً) هذا الرجل كان يشعر بنفسه سعيداً جداً، لأنه كان ناجحاً جداً، وبالحقيقة، كان دخله وتأثيره كبيرين، كان ذلك يجعله سعيداً، نحن نشعر أيضاً بغالبيتنا، نشعر كذلك كما يجب أن نشعر فعلاً. إذن فالرجل يشعر أنه سعيد جداً، ثم بعدها رأى حلماً. في المرحلة الأولى من الحلم يرى أنه على شاطئ بحيرة صغيرة، إنها قذرة، الرؤيا سيئة، والطقس رديء وبشع. إنه يتذكّر ـ من خلال الحلم ـ هذه البحيرة تشبه تماماً تلك البحيرة التي عاش بجانبها مع والديه. إنها ذكرى غير سعيدة، ليس فقط بخصوص البحيرة، ولكن بخصوص ذلك الظرف المحزن والفقر المدقع لطفولته.

في المرحلة الثانية من الحلم يرى نفسه في سيارة من أفخم وأغلى السيارات على طريق حديثة برّيّة يصعد بها الجبل، وبسرعة عالية وبشعور من القوّة والنجّاح وبسعادة كبيرة. وتأتي المرحلة الثالثة التي تحدُث بعدما وصل إلى قمّة الجبل. وفجأة يجد نفسه في محل دعارة. كان

وحيداً بمفرده، في السيارة مع زوجته، ليس من إنسان هناك، كل شيء مغبّر وقذر، ويجد نفسه وحيداً تماماً ومنسيّاً. هذا الحلم يخبرنا عما يشعر به هذا الإنسان في الحقيقة حول حياته الخاصّة وحول مصيره، وبتعبير مبسط: في الطفولة كان كل شيء محزناً ووسخاً. والآن فأنا رجل في قمّة النجاح، ولقد سرت في حياتي بسرعة إلى قمة النجاح. ولكن في الختام، عندما يزول كل هذا الصخب والضجيج، سأعود إلى نفس ذلك الوضع، في نفس الفقر وفي نفس الألم، وفي نفس الضياع، كما كنت في الطفولة. كل شيء يزول، وأعود ثانية إلى هناك من حيث أتيت. هذا ليس رغبة، إنها وجهة نظر في حياته الخاوية، عبر عنها بلغة فنّيّة بديعة.

نستطيع أن نقول إنّ هناك الكثير من النّاس كان بإمكانهم أن يكونوا أشخاصاً عظاماً، ولكن في الوقت الذي يطغى فيه ضغط المجتمع على من سماه «هايدغر»: [الرجل]، يتوقف أولئك الذين ليست لهم الجرأة على أن يكونوا شيئاً مذكوراً، عن أن يفعلوا شيئاً ذا قيمة. إنه عرض محزن حقاً لمجتمعنا الذي لا يسمح للشخص الذي يعيش فيه أن يحقق طموحاته التي تعيش فيه.

في الحلم نعلن على أنفسنا نبأً، كما جاء في التلمود (Berachot 550) حيث نقرأ: «الحلم الذي لا يفسّر هو كالرسالة التي لا تقرأ». في الحقيقة إن كلمة «يفسّر» ليست حتى صحيحة. المرء ليس بحاجة إلى أن يفسّر الحلم، حيث لا يوجد شيء للتفسير. بل هو شيء قليل للتفسير كما يفسر المرء النص الصيني أو الإيطالي، عندما يتعلم اللغة. إنها اللغة التي يتعلمها

المرء، التي لها قواعدها، ولها أشكالها، إنها اللغة التي تُعبر عن طريقة الحياة، والتي لا تخدم وصف الحقائق. إنه لمن السهل تعلم لغة الأحلام. ومن أجل ذلك لا يحتاج المرء إلى أن يكون محللاً نفسياً، إذ يمكن تعلمها في المدرسة، في نفس الوقت الذي يتعلم فيه المرء لغات أجنبيّة. ولئن رغب الإنسان أن يتعلّم لغة الأحلام، فهذا يعني ـ حسب رأيي ـ فوائد جمة، لأننا بذلك نعلم أكثر وأكثر عن أنفسنا وعن الآخرين، عندما نفهم أحلامنا. وأقول ـ الآن ـ إن ذلك يمكن أن يكون له فوائد كبرى، كما يمكن أيضاً أن يكون له مساوئ. على العموم لا نرغب أبداً بأن نعلم الكثير عن أنفسنا ولا عن الآخرين، لأن ذلك قد يزعجنا فقط. ومع ذلك نكون أكثر غنى وأكثر حيوية وأكثر قوة، كلما عرفنا أكثر عن أنفسنا، وكلما ابتدعنا تصورات وتخمينات أقل عن الآخرين، إضافة لذلك، نحن نبتعد ـ عندما نفهم الأحلام، أكثر قليلاً ـ عن التركيز العقلاني من طرفٍ واحد، وهذا يشكل حقاً العلامة الفارقة لغالبية الناس.

نحن لم نعد نفكر وحسب بالأعراف الدارجة، ولكن نتجاوز ذلك إلى علاقات طيبة بين المشاعر المختلفة. بمعنى أنّنا نوحّد هنا بين ما هو عقلاني ووجداني، ونترك ما يثير الخلافات خلفنا. وأنا هنا لا أوجّه كلمتي ولا أدعو بشكل من الأشكال إلى اللاعقلانيّة الخطرة أو لتلك النزعة العاطفية... لكنّي أعني أن لغة الأحلام يمكن أن تعلّمنا قليلاً مما نحتاجه الآن وفي كل حين للحياة: في الأحلام يمكن أن نصبح شعراء.

علم النفس لغير علماء النفس

1- علم النفس الحديث وما قبله...

من هم الآخرون غير علماء النفس؟ ما هو علم النفس؟

من هم الآخرون غير علماء النفس؟ يمكن الجواب بكل بساطة، كما يلي: بالتحديد هم الذين لم يدرسوا علم النفس، الذين لا يضعون قبعة الدكتوراه لهذا التخصص على رؤوسهم. هذا يعني أن كل الناس تقريباً ليسوا علماء نفس، لكن هذا غير صحيح مطلقاً: أريد هنا أن أؤكد على النقيض، الآخرون من غير علماء النفس غير موجودين، ذلك أن كل إنسان في حياته ـ بطريقة ما ـ يمارس علم النفس، بل عليه أن يمارسه. هو يجب أن يعرف ماذا يجري لدى الآخرين، يجب أن يحاول أن يفهم الآخرين. يجب عليه أن يحاول حتى معرفة ما سيحدث، وكيف سيتصرف الآخرون. من أجل ذلك لا يذهب إلى مختبر في الجامعة. على العموم، ليس بحاجة إلى أن يذهب، إنما هو بحاجة إلى أن يذهب إلى مختبره الخاص، إلى مختبر حياته اليومية، حيث يستطيع أن يقوم بإجراء كل الاختبارات والحالات التي فكر بها أو التي يتخيلها... والسؤال عندئذ لا يطرح هكذا: هل فلان عالم نفس أم هو غير ذلك؟ إنما يكون السؤال: هل فلان عالم نفس جيد أم عالم نفسي سيء؟ هنا ـ كما أعتقد ـ يستطيع علم النفس أن يساعده، ليكون عالم نفس جيد.

والآن نأتي إلى السؤال الثاني: ما هو علم النفس؟ الجواب على هذا السؤال أصعب بكثير من سابقة. يجب أن نأخذ لذلك بعض الوقت. بالحرف: يدعى علم النفس علم التخصص بالنفوس أي بالأرواح. لكن ذلك يقول لنا القليل حتى الآن. ما هو حقاً هذا العلم عن الأرواح؟ ما هي مقوماته؟ ما هي الطرق المستخدمة فيه؟ وما هو هدف هذا العلم؟

أغلب الناس يفكّرون أن علم النفس ـ نسبياً ـ هو علم حديث، وهم يعنون ذلك، لأن هذا المفهوم«علم النفس» ـ في العموم ـ قد عرف حديثاً منذ حوالي (100 ـ 150) عاماً. لكنهم ينسون أن علم النفس موجود قبل هذا بكثير. إنه يعود لأكثر من خمسماية سنة قبل الميلاد حتى القرن السابع عشر ميلادي، وهو لم يكن يعرف بأنه «علم نفس» حقاً، ولكن كان يسمّى «علم الأخلاق» وهو يعني غالباً «الفلسفة»، وهذا لم يكن غير علم النّفس. ماذا كانت طبيعة وأهداف هذا العلم «علم النفس» قبل الحديث؟ يمكن أن يجيب الإنسان على هذا السؤال باختصار: لقد كان علم معرفة أرواح الناس، مع ابتغاء أن يكون الإنسان أحسن خلقاً، إن علم النفس له توجه أخلاقي، دعنا نقلْ هنا: توجه ديني روحي.

هنا أعطي، وبشكل مقتضب، بعض الأمثلة لعلم النفس ما قبل الحديث: البوذية: إن الديانة البوذية تعني «علم النفس» بشكل موسّع، معقّد ومتعدّد الوجوه، وكان أرسطو طاليس قد كتب كتاباً في علم النفس، لكنه سماه «الفضيلة».

الرواقيّون من جانبهم طوّروا بشكل عالٍ علم النفس، ربما بعضكم يعرف «مارك أورلي مديتاتسيون». كما تجدون عند« توماس فون آكوني» نظاماً لعلم النفس، قد تستطيعون من خلاله أن تتعلموا أكثر مما تتعلمون من معظم كتب علم النفس المعروفة اليوم، هناك تجدون أمتع وأعمق المناقشات والتعاريف لمفاهيم مهمة، مثل: النازية، الاعتزاز، الضّعة، التواضع، عقد النقص، وغير ذلك الكثير.

وشبيه بأولئك الفيلسوف «سبينوزا» الذي كتب في علم النفس ـ كما عند أرسطو طاليس ـ وسمّى ما كتبه: «الفضيلة»، لقد كان سبينوزا بجدارة، عالم النّفس الأول، الذي عرّف طبيعة غير الواعين لعلم النفس، وفيهم قال: نحن جميعاً نعي رغباتنا، لكننا لسنا على وعي تام بأهداف هذه الرغبات. هذا في الحقيقة، كما سنرى لاحقاً، هو الأساس لعلم النفس «المعّمق» الذي أوجده «فرويد».

حديثاً ظهر علم نفس آخر هو: علم النفس «الحديث»، وفي العموم لا يزيد عمره عن مئة عام، وهدفه مختلف تماماً: يريد الإنسان فيه أن يعرف النفوس التي لا تريد أن يصبح أصحابها أحسن وضعاً، بل أكثر سعادةً. يُراد للإنسان هنا أن يعرف نفسه وأن يعرف الآخرين، من أجل أن يكسب ميّزات أحسن لحياته، من أجل أن يستفيد من الآخرين، من أجل أن يهيئ نفسه ـ وبأحسن ما يمكن ـ كي ينجح في حياته.

يمكن للمرء أن يفهم بشكل تامّ الفرق في المهمّات والواجبات بين علم النّفس الحديث وعلم النّفس ما قبل الحديث، عندما يرى مدى التّغيير

الذي حدث لثقافة ولأهداف المجتمع. من المؤكد أنّ الناس في اليونان القديم، أو في القرون الوسطى، لم يكونوا أحسن حالاً ممّا نحن فيه اليوم، بل ربما كانوا حتى «أسوأ» في أوضاعهم اليومية، لكن حياتهم كانت فعلاً خاضعة لفكرة محددة، هذا يعني أن الحياة لا تستحق أن تعاش فقط من أجل تأمين رغيف الخبز اليومي، الحياة يجب أن يكون لها هدف أسمى. الحياة يجب أن تساعد على تفجير الطّاقات لدى الإنسان، ومن هذا المنطلق تكون رسالة علم النفس.

يرى الإنسان المعاصر الأمر بشكل آخر، فهو ليس مهتماً كثيراً بأن يكون أفضل مما هو عليه الآن، لكنه مهتم بأن يملك أكثر: مركزاً أكبر، مالاً أكثر، قوة أكبر، مركزاً اجتماعياً أحسن.

نحن نعلم اليوم أن الحديث يدور بين الجميع، إذ يرى الإنسان بوضوح وفي أكثر البلدان تطوّراً في العالم وفي أكثرها غنىً، أي في الولايات المتحدة الأمريكيّة، كيف أخذ النّاس هناك بشكل أكبر وتدريجيّاً بالشّك فيما إذا كان تحقيق تلك الأهداف المذكورة سابقاً يجعلهم فعلاً سعداء، لكن هذا ليس هو السّؤال هنا. وتبقى الحقيقة أنّ هذين الهدفين يعطيان علم النفس اتجاهين مختلفين.

حول علم النفس الحديث سوف أوضّح الآن بعض النّواحي من أجل أن أريكم ماذا على الإنسان أن يكتشف، وماذا تخفي الأمور تحتها.

بدأ علم النفس الحديث بشكل متواضع جدّاً، لقد اهتّم بأن يدرس الذّاكرة، ما هو سمعيٌ منها وما هو بصريٌ من الظواهر، أي ما له علاقة

بالذّاكرة، كما أنّ هذا العلم أبدى اهتماماً كبيراً في علم النفس للحيوان. إنّ العَالِم «فون فوندت» يُعدّ الأكثر شهرة والأهم في انطلاقة علم النفس المعاصر، هؤلاء العلماء لم يكتبوا للطبقة الواسعة من الناس، هم لم يكونوا حينها مشهورين، لقد كتبوا للرفاق المختصّين وللقليل من الناس ممن لهم أوضاع صعبة، واهتمّوا بأعمال هؤلاء وبدراساتهم المطبوعة.

لقد اختلف الأمر كثيراً عندما ابتدأ علم النفس يصبح شعبياً، حيث بدأ يهتّم بالمسألة الأساسيّة، فتركّز السؤال حول حوافز سلوك الإنسان، وهذه الحوافز بقيت الموضوع الأوّل لعلم النّفس الحديث في الخمسين سنة الأخيرة، إن ذلك السّؤال يهمّ كل إنسان. لأنّ كلّ واحد يجب أن يعرف ما هي الحوافز التي تعنيه؟ لماذا هذه الطريقة وليس غيرها تبعث عندي الحوافز؟

عندما يعد علم النفس الإنسان بأن يقول له شيئاً، سيكون ذلك من الأهميّة بمكان. هكذا يكوّن علم نفس الحوافز الأكثر شعبيّة على ما عداه وخاصةً في المئتي سنةٍ الأخيرتين، وحيث أن شعبيّته لم تتناقص أبداً، إنما على العكس زادت.

إنّ لعلم النّفس الشعبي نظريتين ـ مدرستين: النظريّة الغريزيّة ونظريّة السلوك. دعني الآن أقلْ فيما يلي عدة كلمات حول النظريّة الغريزيّة: إنها تدين في نشوئها لأشهر مفكري القرن التاسع عشر «تشارلز داروين» الذي شغل نفسه في الدوافع الغريزيّة لإثارة الحوافز في سلوك الإنسان. وبالاعتماد على جهوده بدأت تنتشر هذه النظرية، وباختصار يمكن القول إن أيّ

تعامل مع أمر ما له حافز وخلف كل حافز تقوم الغريزة الخاصّة به، فالإنسان مولود بفعل الغريزة كما هو الحيوان مولود أيضاً بفعل الغريزة. عندما تكون عدوانياً، تكون الغريزة لديك عدوانيّة، عندما تكون مضطهداً مستعبداً تتكون غريزة العبوديّة داخلك. عندما تكون رغبة التملّك ماثلةً عندك، تكون وراءها غريزة التملّك، عندما تكون غيوراً تكون وراءها غريزة الغيرة، عندما تؤثر التعاون، تكون وراءها غريزة التعاون. عندما تهرب بسرعة، تكون وراءها غريزة الهروب....الخ

لقد رأى علماء نظرية علم النفسي الغريزي، وبحساب الجميع تقريباً أنه قد أحصيت حوالي مائتي غريزة مختلفة، والتي (كما مفاتيح جهاز البيانو عندما يعزف الإنسان عليه) تثير عند الإنسان مشاعر معينة لدى عزفها.

بالنسبة لنظرية الغريزة فقد مثّلها الأمريكيان «وليام جيمس» و «وليام ماك دوثمال». ومن خلال الوصف الذي أقدّمه، قد يمكن لكم أن تتخيّلوا أن إحدى النظريتين مبسّطة جداً، وعلى العموم هي بسيطة جداً، لكنها ليست على الإطلاق هكذا. وعلى الأساس، الذي وضعه العالم «داروين» استطاع هذان العالمان الأمريكيان ـ وغيرهما أيضاً ـ اللذين كانا مفكرين مهمين وثاقبي الفكر، أن يؤسسا بناية جميلة ـ إلا أن هذه البناية ـ حسب قناعتي ـ لم تبْنَ بشكل صحيح. إنها ليست بناية، إنها فقط تصوّرات، والتي هي في الحقيقة لم تتحقق. ونظرية الغريزة الأخرى الكبيرة التّي اكتسبت شعبية كبيرة، وضعت من قبل العالم «Konrad Loranz كونراد

لورانس» الذي أرجع العدوانيّة الإنسانية بشكل أكبر أو أصغر إلى غريزة متأصّلة مولودة مع الإنسان.

يكمن قصور هذه النّظريّة في ميلها الكبير للتّبسيط. إنّه لمن البساطة بمكان، عند أيّة معالجة أحاديّة، التّسليم نظريّاً بمرجعيّة واحدة غريزية. هذا بالعموم لا يفسر شيئاً. ويقال فقط: القضيّة لها حافز، ولكن كل القضايا لها حوافزها المختلفة، وهذه الحوافز مولودة. وهذا مالا يمكن البرهان عليه لكلّ الغرائز. ثمة بعض الغرائز: مثل غريزة الدفاع، غريزة الهرب وإلى حد ما غريزة الجنس، وبالرغم من أن الأمر هنا أقل إقناعاً، من حيث وجود ما يشبه المرجعيّة الغريزيّة ماثلةً فيها، إلا أننا نرى الحقيقة هنا، في أن التعلّم والتّأثير الأدبي والاجتماعي يمكن أن يؤثر في هذه المحرّكات بحيث يمكن تعديلها بشكل كبير، إلى حد أنها عند الإنسان وعند الحيوان، تزول تقريباً، أو، على النّقيض، تشتدّ كثيراً.

وقد كانت المشكلة الأخرى لهذه النظريّة، أنه ثمة غرائز معيّنة عند بعض النّاس، وفي بعض الحضارات، قويّة جداً، بينما هي لدى آخرين أقلّ تطوراً بكثير. هناك على سبيل المثال شعوب بدائيّة، والتي هي بطبيعتها عدائية جداً، وهناك شعوب أخرى ليس عندها عدائية البتّة. ويُلاحظ أيضاً أن أحدهم عندما يأتي إلى الطبيب النفسي ويقول: «يا دكتور إنني أنفعل وأشعر بالضّيق حتى أنني أريد أن أقضي على الجميع، زوجتي، أولادي وحتى على نفسي....» فإن الطبيب لا يجيب، والتفسير واضح: «نعم، إن الغريزة العدائية كبيرة جداً عند هذا الرجل، إضافة لذلك

يقوم الطبيب بتشخيصه ويتأكد مما فيه: هذا الرجل مريض بالتأكيد، لأنّ هذه العدوانيّة التي تُظهر عن نفسها، وهذا الحقد الذي يتراكم داخله، هما ظاهرة مرضيّة بامتياز، ولو كان ذلك غريزة لكانت إذن ردود الفعل طبيعيّة ولَمَا كانت تبدت كظاهرة مرضية.

بل ثمة ما هو أدهى ـ وهذا شيء جدّ مهم ـ فحتى أكثر الناس بدائيةً، كالصيادين واللصوص، الذين هم في أسفل سلّم المجتمع، نراهم الأقلّ عدوانيّة... أي لو كانت العدوانية تولد أيضاً لتوجب أن تظهر أكثر ما تظهر عند هؤلاء، لكن بالعكس، إذ يمكن البرهان على أنّه مع تقدّم الحضارة ـ وذلك منذ أربعة آلاف سنة قبل المسيح. ومع تشييد المدن الكبرى والمملكات، والسّلطنات. والجيوش، جاء اكتشاف الحروب، ونظام العبوديات، وأنا أقول هنا «اكتشاف» متعمداً، لأن تلك لم تكن ظواهر طبيعية، ومثلها السادية والعدوانية والرغبة في السيطرة والتخريب بشكل لا مثيل له، حتى عند أكثر الشعوب بدائيّة وحتى لدى شعوب ما قبل التّاريخ.

هذه الصعوبات حدّدت المدارس المقابلة الأخرى «نظرّية السلوكية» التي تسعى إلى أن تبرهن على أنّه لم يولد شيء مع الإنسان على الإطلاق مما نرى من سلوكيات شاذة، وإنما هي وليدة ظروف اجتماعية، ومن خلال تلاعب ذكيّ لأشخاص من المجتمع أو العائلات مهيَّئين لذلك. ومن أهم وأشهر روّاد هذه المدارس حالياً البروفسور «سكنّر.Skinner» في أمريكا في كتابه « في الجهة الأخرى للحريّة والمصير» حيث يقول بما معناه: إن

مفاهيم مثل الحريّة والمصير هي خياليّة مفترضة. ولا وجود لها على الإطلاق، ولكن أُوْجِدَتْ من قبل النّاس، ومن خلال هذا التأثير وُجِدَتْ فكرةُ أن يكون الناس أحراراً. لكن في طبيعة بني البشر لا يوجد هذا الشعور لديهم نحو الحريّة ولا نحو المصير. وأبسط مثال على هذه النظرية هو الطفل: «هانز لا يحب أكل السبانخ» وإذ تعاقبه والدتُه بسبب ذلك تراه يرفض السبانخ أكثر ـ وهذا ما يعرفه غالبية الآباء والأمّهات. يقول «سكنّر»: إنه الأسلوب الخطأ، يجب ألاّ يقال الكثير مسبقاً عن السبانخ، بل يؤتى بالسبانخ المطبوخة على الطاولة، وعندما يأكل الصغير القليل منها، تنظر الأم إليه بلطف وابتسامة، وتعده بأن تقدم له قطعة حلوى لذيذة بعدها. في المرة الثانية، حين يؤتى بالسبانخ إلى طاولة الطعام، سيبدأ الصغير بالتهام الطعام بنهم أكبر، وتبتسم له الأم ثانية بلطف أكبر، وتناوله هذه المرة قطعة شوكولا لذيذة، وهكذا حتى يتعوّد الصغير، أي إلى أن يكون قد تعوّد: عندما يأكل السبانخ يحصل على مكافأة. ومن... يا ترى لا يحب الحصول على مكافأة؟ مع الوقت أصبح الصغير هانز يقبل على أكل السبانخ برغبة، وأكثر من أية خضار أخرى، وهذا ما قد يحدث في أمور أخرى. لقد بذل «سكنّر» كثيراً من الجهد على هذا الأمر ليثبت كيف يتوصل الإنسان إلى أحسن النتائج: ليس من الضروري دوماً إعادة استخدام نفس الطريقة بالمكافآت، بل تُوقف بعض الوقت، ثم يعاد استخدامها عند اللزوم. لقد أُجريت الكثير من الاختبارات الذكيّة ومن التجارب، من أجل الوصول بالإنسان إلى أحسن النتائج: كيف يمكن من

خلال المكافأة الوصول إلى ما تريد ممّن قدّمت له المكافأة؟ أما لماذا يريد هذا أولاً المكافأة، فهذا لا يهم، يقول «سكنّر»: «لا توجد قيم لها معانٍ حياديّة من شكل ما»

من المفهوم جداً أن نقدّر الوضع الذي يحيط بعالم النفس، فسواء أكلت الفئران والأرانب تحت التجربة أم لم تأكل، فهذا ليس مهماً أبداً، المهم فقط، أن نجعلها بواسطة هذه الطرق تقبل على الأكل أو لا تفعل. وهؤلاء علماء السلوك الإنسانيّ يتعاملون مع النّاس وكأنهم أرانب تجارب، فبالنسبة لهم ليس السؤال مهمّاً: من أجل ماذا؟ ولِمَ يجب خلق الظروف الجديدة؟ إنما فقط تبيان: أنه يمكن تحقيق ذلك، وأيضاً التفكير في كيفيّة الوصول إلى ذلك على النّحو الأمثل. إن السّلوكية تفرّق بين تصّرف الإنسان والإنسان ذاته. والطبيب لا يفحص الشخص الفاعل، لكنه يتفحص سبب ونتيجة ذلك التصرف. ماذا يكمن خلف التصرف لهذا الشخص، وما يقال عنه حرفياً: هذا ليس هاماً جداً، هو فلسفة: إنه تأمل وتفكير. إنّ ما يهمنا بالضّبط: ماذا يفعل الشخص؟ لكن الطبيب أيضاً لا يحلّل السؤال: لماذا إذن يكون من المدهش، بعامة، أن الكثير من النّاس لا تتكّون عندهم ردة الفعل المناسبة؟ لأن النظريّة صحيحة فعلاً، وفي الحالة النّفسيّة المتّزنة للإنسان غير المتأثرة بأيّة ظروف. هذه النّظرية تنطلق من أن غالبية النّاس يفضّلون أن يقبلوا الرّشوة، على أن يفعلوا ذلك بأنفسهم، بسبب أن ذلك ينبع من كيانهم ومن مهاراتهم الشخصيّة.

تتفق النّظرية الغريزيّة والنّظريّة السلوكية بعض الشيء، رغم التّناقضات الأساسيّة فيما بينهما، على أن الإنسان لا يمثّل بشكل من الأشكال هيكليّة

حياته. إن الكائن في النّظريّة الغريزيّة يسيّر من خلال جنسه الإنسانيّ أو الحيوانيّ، بينما يسيّر إنسان السلوكيّة من خلال الأنظمة الاجتماعيّة، ومن الشروط الاجتماعيّة الفعّالة بامتياز، ويكون ملتزماً بالمناسبات وفنون التّأثير التي يخضع لها من قبل مجتمعه، تماماً كما أن الشّخص الآخر يخضع لجنسه ومرتبط به، ولكن ليس في كلا النظريتين لأحد من النموذجين البشريين، أو لأي نموذج بشريّ أن يحدّد ماذا يريد، من هو، أو ماذا يماثل كيانه؟

هذان الاتجاهان يمثّلان الغالبيّة العظمى لما يعرف اليوم بـ «علم النّفس الحديث» وبالتالي يجب أن يقال إن علم نفس السّلوكية يحمل راية النّجاح لعلم النفس. إن أغلب علماء النّفس في الجامعات الأمريكيّة هم من أتباع علم نفس السّلوكية، وعلم النّفس السوفياتي على صلة قرابة معهم، من خلال أسس اجتماعية ذات اتجاه وحيد، والتي لن أتابعها هنا أكثر.

2- المصطلحات الثّلاثة عند «سيغموند فرويد»:

إلى جانب الاتجاهين السّابقين، هناك اتّجاه ثالث هو التّحليل النّفسي ـ أو كما يقال ـ التّحليل النّفسي الباطني، والذي أسّسه «فرويد». منذ حوالي ثمانين عاماً كان هدف «فرويد» هو التّالي: إن المعاناة الإنسانية ـ وبخاصة غير المتزنة ـ يجب أن تُفهم بحكمة، كي نعرف ما هي الأسباب، وما هي الشروط للكراهيّة، وللحبّ، للاستزلام، للتّهديم،

للحسد، للغيرة... ولكل أنواع معاناة الألم، والتي كتب عنها عظماء الكتاب من أمثال (شكسبير، بلزاك، دستويفسكي...الخ) الرّوايات والمسرحيّات بشكل مباشر؟ لقد أراد «فرويد» أن يجعل كل تلك الأسباب والشروط محور دراساته وتجاربه. لقد اوجد علم النفس التحليلي، وكان يريد به أن يحيط بها، ليس بشكل فنّي، بل بشكلٍ منطقيّ وعلميّ. ولذلك فمن المفهوم أن نظرّية «فرويد» قد أثرّت على الفنّانين كما على علماء النّفس والأطباّء النّفسانيين، الذين لا يعتبرون في الأساس أيّ معنى لكل هذه الأفكار. لقد تطابقت تحرّيات «فرويد» بشكل دقيق مع تساؤلات الفنّانين عن ماهيّة الآلام الإنسانيّة، وكيف يستطيع الإنسان أن يفهمها. لكن الأطبّاء النفسانيين يريدون غالباً أن يعلموا فقط كيف يمكن أن يشفى الإنسان من هذه الأعراض، والّتي إمّا أن تزيد من آلامه أو لا تجعله على وفاق مع متطلبّات المجتمع وحاجاته، بينما أراد «فرويد» ـ وهذا مهمّ جداً ـ أن يخبرَ تلك الأعراض، ليس فقط من وجهة النّظر العلّمية والبواعث لنواح تجاريّة، وبالتحديد للرّغبات الدّاخلية. لقد كان له هدف روحي وأخلاقي، تماماً كما كان عند علم النفس ما قبل الحديث، وعلى عكس الفروع الرئيسية عند علم النفس الحديث، كان هدفه أن يفهم الإنسان نفسه وأن يكشف عن مكنوناته، من أجل أن يصل إلى استقلاليته، كان هدفه سيادة العقل وتحطيم الخرافات كي يصبح الإنسان حراً طليق الذهن، وأهدافه الأخلاقيّة كانت ـ يمكننا أن نقول ـ الانفتاح والبصيرة. لكنه يُبرز هدفاً جوهريّاً يتجاوز كل ذلك، وهو أن يبقى علم النّفس خاضعاً

لمفهوم الإنسان أو لخدمته، فلم يكن له من هدف سوى ذلك الذي يخدم الإنسان لكي يعمل بشكل أفضل. إن هدف «فرويد» كان الإنسان النموذجي الذي يشبه إلى حد بعيد ما تتبناه الفلسفات العظيمة.

لقد تأثرت نظريّة «فرويد» حقاً بمفاهيم العصر: (الداروينّية، المادّية، الغريزيّة) ثم جاء بنظرّيته، وكأنّه شخصياً كان فيلسوفاً غرائزيّاً، وهذا ما جرَّ عليه سوء فهم. وفيما يلي سأحاول توضيح ما أعتبره جوهر اكتشافات «فرويد» (وأمثّل بذلك طبعاً مفهوماً شخصياً لي رفضته أكثريّة المحللّين النفسيّين).

الفكرة الأولى: المركزيّة هي مفهوم اللاوعي:

وهذا يعني الخافية، هذا المفهوم الأساسي كاد اليوم أن يُنسى. عندما يتعلق الأمر بالتحليل النّفسي، يكون التفكير في الذّات (الأنا)، عن (الأنا) وعن (هو = ضمير غير العاقل)، أي عن نظرّية العقدة الأودوبيّية والليبيديّة، وهما مباشرة الموضوعان اللذان تركهما «فرويد» خارج التّحديد الأساسي للتّحليل النّفسي لديه.

بالنّسبة لما هو خارج البحث، نكون نحن غالباً مرتبطين بمجموعة دوافع، وغير واعين لها. دعوني أبدأ بمثال عادي صغير: قبل فترة قصيرة زارني صديق، وقد علمت أنه لا يحبني. ولم أستغرب أنه يريد زيارتي، دقّ الجرس، فتحت الباب، مدَّ يده يصافحني وقال فرِحاً: «نراكم بخير ـ

مودّعاً». هذا يعني طبعاً أنه في اللاوعي يريد المغادرة. هو لم يكن يرغب بلقائي، وهذا ما عبّر عنه بلسانه، حيث قال مودّعاً «نراكم بخير»، ولم يقل مستقبلاً «نهاركم سعيد». ماذا نقول في ذلك؟ لا شيء. كان هو المحلل النفسي إذ علم تماماً ماذا وكيف كشف نفسه. لم يستطع الاعتذار ليقول: «عفواً لم أكن أقصد!»، كان ذلك سيكون ساذجاً، حيث كلانا يعرف أن ذلك لا يتوقف على أن وقوع هذا الخطأ بحاجة إلى شرح وتبسيط، ولكن يحتاج للتفحّص والتدقيّق فيه. فقط كان الموقف حرجاً، لذلك صمتنا. لكن هذا كان مثالاً، يحدث مئات المرات، والعالم «فرويد» كان قد بنى دروسه على الكثير من هذه الأمثلة.

أو لنأخذْ مثالاً آخر: أبٌ ساديّ، وقد ضرب ابنه بعنف. أعتقد أن ذلك يحدث اليوم أقلّ منه قبل خمسين عاماً. الأبّ الساديّ هو ذلك الشخص الذي يجد لذّة في أن يسبب آلاماً للآخرين، أو أن يفرض سيطرته عليهم. عندما تسأل: لماذا يتصرف هذا الأب هكذا؟ (وأنت في العادة لا تحتاج إلى أن تسأله هذا السؤال، لأنه يخبر عن ذلك، وبرغبة، دوماً، ويجيب: «أنا أفعل ذلك حتى يصبح ابني رجلاً مستقيماً أو يبقى مستقيماً، أفعل ذلك من منطلق حبّي له». هل تصدقه؟ ربما نعم، وربما لا... لكن تمعّنْ بالنظر إلى وجهه. انظر إليه بدقة، انظر إلى عينيه ـ وهو يوسع ابنه ضرباً ـ كيف هما حاقدتان، أنت ترى بكل تأكيد في ذلك الوجه رجلاً ملآن بالحقد، وبنفس الوقت هو سعيد لأنه يستطيع إنزال العقوبة بالضحيّة. هذا يمكن أن تلاحظه عند رجال الشرطة (ليس بالطبع عند الجميع)، أو عند

المَرضات، أو عند حرّاس السجون، أو في أماكن خاصّة وبحالات خاصة. قد يكون الموضوع مستوراً قليلاً أو كثيراً حسب الظّروف، وحسبما يريد الشّخص ـ لغاية في نفسه ـ إخفاءه أو إظهاره. دعنا نبقَ عند هذا المثال لهذا الأب السّاديّ. عندما نشاهده، نعرف أن دوافعه ليست تلك التي يظهرها. وهو أيضاً ليس في وعيه لاستقامة ولده، لأن ذلك من علامات الوعي، إذ أنّ الدوافع عنده هي السّادية، لكنه شخصياً لا يعي ذلك.

أو لنأخذ مثلاً من نوع كبير الأهمية من النّاحية التّاريخية: «أدولف هتلر»، هتلر افترض أنّه هو فقط من يستطيع أن يفعل الأفضل لألمانيا، عظمة ألمانيا، صحّة ألمانيا، دور ألمانيا في العالم وإلى ما عدا ذلك. وبالرغم من أنه أعطى الأوامر المرعبة، لم يشعر يوماً ـ حسبما نعلم ـ أنه كان يتعامل بتلك الوحشيّة. كان يشعر دوماً أنه يتعامل، من خلال رغبته، في مساعدة ألمانيا، إنه يتعامل من أجل أن يحقق الأسس التّاريخيّة، باسم تقرير المصير، باسم القوميّة، باسم المستقبل. إلا أنه لم يكن على وعي بأنه ذلك الرجل الذي يصخب بغريزة التدمير. لم يكن يستطيع أن يرى جنوداً مقتولين ولا بيوتاً مدّمرة، لذلك لم يذهب مرة في الحرب العالمية الثانية إلى مقدّمة الجيش في الجبهة، وليس ذلك بسبب الجبن، ولكن الأكثر من ذلك أنه لم يستطع أن يتحمل أن يرى النتائج الملموسة لرغبات التدمير لديه. هذا هو بالضبط ما يحصل لأناس مفروض عليهم الحمّام. في حالة الوعي هم يرغبون بأن يكونوا نظيفين، ولكن عندما يتم تحْليل هؤلاء الناس، نجد أنهم عن غير وعي يحسبون أن هناك دماً أو قذارة على أيديهم ويريدون

التخلص منها، وما هو خارج الوعي موجود الآن في داخلهم: إنه إجرام كامن، إنها إرادة القيام بجرم يجب دوماً غسله. وهتلر نفسه كان عنده شيء من ذلك، فهو لم يكن بحاجة إلى الإكراه على غسل اليدين، وإن كثيراً من المراقبين قد أكدّوا أنه كان نظيفاً فوق العادة وفوق مستوى القياس للناس النظيفين.

لم يشأ هتلر أن يرى حقيقة رغبته التدميرية التي كانت في طويّة نفسه حقاً، فقد عاش فقط مقاصده الجيدة. كان ذلكْ فقط ممكناً إلى حدّ ما، ولكن عندما وصل الأمر أخيراً إلى ذلك الحد، حيث علم، أن ألمانيا ـ بل الأفضل أن نقول أنه هو نفسه ـ خسرت الحرب، عندها فقط توقفت رغبته المكبوتة في التدمير. فجأة أراد أن تدمر ألمانيا كلها والشعب الألماني كلّه. لقد قال بنفسه: «هذا الشعب ليس جديراً بأن يستمر في الحياة، لأنه لم يستطع أن يحقّق النصر». وهكذا أخيراً عبرت بجلاء رغبة هذا الرجل التدّميريّة عن نفسها. هذه الرغبة كانت في الحقيقة موجودة، كانت في صميم أخلاقه، لكنّها كانت خفيّة ومغفلة، إلى أن جاء اليوم الذي لم يعد فيه الإخفاء والتّستر ممكناً، وهو شخصياً بذل جهداً في النّهاية كي يبّرر قائلاً: «على الألمان أن يموتوا؛ لأنهم لا يستحقون الاستمرار في الحياة».

مثل هذه الأمثال الدرامية وغير الدرامية توجد في كل مكان وفي كل يوم، حيث هناك أناس يتغاضون عن دوافعهم الحقيقيّة لمعرفة ما يتعارض مع مالا يتعارض ضمنيّاً مع أخلاقهم ومع الرأي العام، ولو حدث ذلك لتوصلوا إلى تناقض داخلي «نفسي» مؤلم، لا يتناغم مع الهدف الذي

كانوا يسعون إليه، لذلك يفضلون عدم التعمق في التعّرف على الحقيقة، وبذلك يتجنّبون التصادم بين العقليّة الصّالحة والعقلّية الطّالحة، داخل النّفس ومع غالبيّة المجتمع الصّالح.

الفكرة الثانية: المقاومة:

والآن تظهر نتيجة في غاية الأهمية وهي فضيحة الكشف، فعندما يشار إلى هؤلاء النّاس بأيّ حوافز حقيقيّة يتصرفون، تكون ردّة فعلهم (وهنا آتي إلى الفكرة الثانية) التي سمّاها «فرويد» «المقاومة». إنهم يحصّنون أنفسهم ضدّ فضيحة الكشف. حتّى عما يصدر عنهم بنية حسنة ما كان يصب حقاً في مصلحتهم، تراهم يتصدّون له بكلّ عنف. إنهم لا يريدون الاعتراف بطويّاتهم. إنهم لا يتصرّفون حيال الكشف كما يتصرف سائق السّيارة، الذي يقول له قائل إن باب السيارة غير مغلق، أو إن أجهزة الإنارة ليست شغّالة. إنه يأخذ هذه المعلومات شاكراً. من الناس من إذا نبههم البعض لما هو عليهم خفي، من يكون شاكراً جداً. وعلى عكس ذلك يكون آخرون ممن تلفت نظرهم إلى ما هو خفي عنهم. إنهم يبدون ردة فعل قوية معاكسة. وفي كل ما سبق من حوادث تتعلق بموضوع إماطة اللثام عما هو مضمر، يمكن أن تنتظر أن يبدي هؤلاء الناس مقاومة عندما تكشف لهم عما يجري في داخلهم، أي ما هي حقيقة ما بداخلهم، عوضاً من الوهم الذي يبنونه بأنفسهم.

كيف يتصرف الناس هنا في «المقاومة»؟ إن ردّة الفعل النّموذجيّة هي الانزعاج، الغضب، العدوانية. عندما يسمعون ما لا يريدون سماعه، يغضبون. هم يريدون ـ كما يقال ـ أن يبعدوا الشاهد عن الحقيقة. إنهم لا يستطيعون القضاء عليه، هذا سيكون مغامرة، لذلك يبعدونه بكل تأكيد بطريقة آمنة ما، هم يثورون ويقولون: «أنت تتصرف بدافع الحسد. وبناء على ذرائع سيئة. أنت تكرهني، أنت ستكون سعيداً إذ تقول عني ما هو مخجل». وأحياناً يستبّد بهم الغضب لدرجة أنهم يكونون خطرين، وهذا يتعلق بالظّروف المحيطة، عندما يكون الأمر معقّداً، بحيث ينفلت الغضب من عقاله (على سبيل المثال مستخدم أمام سيّده)، فمن الأفضل هنا ألاّ يقول المستخدم شيئاً، بل أن يذهب إلى البيت ويصب جام غضبه على زوجته، ولكن عندما لا يكون الأمر صعباً، ويتعلق بالسيد نفسه، حيث يصدر النقد عن المستخدم (ولا يكون هنا الانتقاد أكثر من إشارة، أو لفت نظر إلى شيء ما حقيقي فعلاً) يكون الرد باحترام، كأنْ يجعل السيد المستخدمَ يشعر بصغر قدره، أو بكل بساطة، يسرحه، ولا يجعله يشعر أن التسريح كان لذلك السبب الذي جرح السيد، بل لأسباب يبدو فيها المستخدم مغتراً وتافهاً لا يؤمن جانبه.

ثمة طريقة أخرى أكثر بساطة للمقاومة، هي ما يسمى «فوق السمع»، وبخاصة عندما يكون التّلميح بسيطاً، أي بدون أن تكون الإشارة فاضحة، إذ يجد المرء غالباً أن الآخر قد أساء الفهم، أو لم يسمع أبداً. وهذا ليس دوماً ممكناً، لكنّه الأبسط شكلاً والأوسع انتشاراً للمقاومة. وثمة شكل

آخر: عندما يكون الشخص تعباً جداً أو مكبوتاً. وهذا ما يعرفه كثير من الأزواج. فحين تقول شيئاً ما كرغبة حقيقية، وتعبر عنه بجلاء في التعامل مع الآخر، يصبح الشخص المعني محزوناً يائساً، غالباً هكذا، بحيث أنه يشكو ويسحب الشكوى، بصمت أو بأن يقول: «أنت ترى، ماذا خطّطت له. وأنا الآن محزون من جديد، لأنك أبديت هذه الملاحظة». وسيّان كانت الملاحظة صحيحة أو غير صحيحة، لا يهم ولا تلعب دوراً، فمن أبدى الملاحظة؛ يتوجّب عليه بعد حين حماية نفسه مرة أخرى من أن يشير إلى رغبة أخرى مستورة، فهو يعرف أن ذلك قد يكلف ثمناً غالياً.

وهذا شكل آخر من أشكال «المقاومة» يتمثل في أن يهرب الإنسان، كما يحصل غالباً في الحياة الزوجيّة، حيث يحدث أن يكون أحد الزّوجين قد اكتشف أن الطرف الآخر يخبّئ شيئاً ما، وقد يكون هذا الطرف لا يعرف ما يخفيه ذاك، ويمكن ألا يستطيع تحمّله، وقد لا يريد شخصياً أن يطّلع على الأمر. إنه يريد أن يبقى كما هو، أي عليه أن لا يحرك ساكناً. إن هذا هو ما يلاحظه الإنسان غالباً لدى التحليل النّفسي. فالمرضى يقاطعون كثيراً المحلّل النّفسي عندما يقول لهم ما لا يروقهم، ويعلّلون ذلك بقولهم: لقد وضعت حداً لهذه المعالجة، هذا المحلّل مجنون، لقد قال عنّي أشياء تبرهن على أنه مختلّ العقل، وإلاّ كيف يمكن له أن يدّعي ذلك! إن كل إنسان يمكن أن يعلم أن المحلّل النّفسي محق، وليس ذلك الذي يتخلله الخوف من أن يغير من ذاته. إن الطبيب يستطيع فقط أن يستجيب بالقوّة (جميع أنواع القوة التي نعنيها هنا)، ويجيب المريض: «لن أراك ثانيةً، ولن أسمع ما تقوله ثانيةً».

من الممكن تغيير كلّ شيء. فحين يفهم الإنسان نفسه، حين يدرك بالفعل الحقيقة التي تعنيه من أجل تغيير ذاته، عندئذٍ يستجيب وبدون غضبٍ، ليس بطريق الهرب أو ما شابه، بل يكون شاكراً، إذ قيل له ما هو ضروريّ لتحسين وضعه، نعم، هو شاكر للطّبيب بكل الأحوال ذلك الذي يشخص له مرضه بما يؤمن له صحته. لكن أغلب الناس لا يفكرون بأن يغيّروا أنفسهم. هم يريدون فقط أن يبرهنوا على أنهم ليسوا بحاجة إلى أن يغيّروا أيّ شيءٍ، على الآخرين أن يغيروا أنفسهم.

مبدئياً يمكن لأيّ كان أن يؤكّد أنّ الجزء الأكبر من قدرتنا تنفق على الإخفاء، ومن ثمّ على المقاومة عندما يتحرّك ما كان خفيّاً. وهذا بلا شكّ هدر كبير للطّاقة، يمنع الكثير من الناس من أن يستخدموا هذا المخزون منها لأغراضٍ مثمرة.

الآن آتي إلى الفكرة الثالثة عند «فرويد» وهي «التحويل». وبالتحديد يعني «فرويد» بذلك أن المريض يتمثل من حياة الطفولة الوالد أو الأم، وأن ردّة الفعل عنده تجاه المحلل في الأساس لا تماثل الإنسان الذي يجلس خلفه أو قبالته، بل ذاك الذي في داخله. إن شخص الطبيب هو الآن الأب أو الأم أو أحد الأجداد يعيشه المريض كما لو أنه طفل له. سأورد مثالاً صغيراً يمثل تماماً التطّرف وأحياناً العنف: حدثني محلل نفساني يوماً عن إحدى مريضاته التي عاينها لمدة ثلاثة أسابيع. بعد هذه المدة نظرت إليه، في الوقت الذي كانت تغادر العيادة، حدقت به وقالت: ماذا؟ ليس لك لحية؟ والطبيب المحلّل لم يكن له يوماً لحية، بينما كانت

ولمدة ثلاثة أسابيع تعتقد أنه ملتح، لأن والدها كذلك. إن المحلّل هو من الفئة الذكورية (X). والمريضة لم تنظر إليه يوماً بحقيقته كرجل، بل كان بالنسبة لها الرجل الوالد ولذلك كانت له لحية.

إن مفهوم «التحويل» ذو معنى أوسع بكثير، وهو ما يمكن ملاحظته في تحريات الطب النفسي. قد يكون هذا المفهوم واحداً من أهم بواعث الخطأ والفتن الإنسانية. ومن خلال هذا المفهوم نرى العالم عبر نظارات رغباتنا ومخاوفنا، وهكذا تختلط الحقائق بالأوهام. إننا نرى الآخرين ليس كما هم فعلاً، بل كما نرغب أو كما نخشى أن يكونوا، وهذا الانخداع بهم لا يحتل مكانة الحقيقة، إننا لا نعرفهم حقاً كما هم، بل فقط كما يخيّل لنا، ونحن نتصرف معهم، ليس كما هم في الحقيقة ـ كشخص بحقيقته الخاصة ـ بل كما تشكلهم تصوراتنا.

سوف أعرض هنا بعض الأمثلة للإيضاح. لنتصورْ شخصين يحبان بعضهما. هذا لا يحدث اليوم كما كان سابقاً، حيث كلّ شيء الآن متوفّر بسهولة أكثر من قبل، لكن لن أتكلم حول ذلك. لنفترض جدلاً أنه حدث أن أناساً قد أحبوا بعضهم بعضاً فعلاً. إنهم مملوؤون بعواطف المحب الحلوة، بالعّفة وبكل الصفات الأخرى الطيّبة، ويشعرون بأنفسهم ذوي أخلاق نبيلة. مثل هذا يقود أحياناً للزواج، وبعد نصف سنة يكتشف أحدهم: ليس هذا هو الشخص الذي وقع في حبه، إنه شخص آخر. لقد وقع في حب شخص شبح. إنّه شخص «التحويل» لأن المحبّ رأى في هذا الآخر فقط الإنسان الذي يحب أن يراه، ربما بإيحاء من الأم أو من الأب،

ربما من الجودة أو التواضع أو الإخلاص. والإنسان لم يلاحظ أن ذلك كان توهماً. الإنسان غالباً يكره ذلك الشخص الآخر، لأنه يعتقد، انه خُدع به. والحقيقة أنه هو خَدع نفسه، لأنّه لم يكن يرى الحقيقة، بل كان يرى شيئاً آخر، وهماً، لكن هذا يجب ألا يحصل، يجب ألا يكون كذلك. وهذا كان لن يحصل لو أن الناس تعلموا كيف يفهمون قضية فلسفة «التحويل».

إن هذا ينطبق أيضاً على السياسة، فقد يقود الإعجاب والتعصب الأعمى الملايين من الناس إلى خلق زعماء قادة (هذا الأمر ليس في ألمانيا وحدها. بل أيضاً عند شعوب أخرى في الكرة الأرضية. كان القادة أحياناً سيّئين، أحياناً أخرى كانوا جيدين، بالرّغم من ذلك ليست هنا المشكلة الحاسمة، ولو أن هذه المسألة جدّ هامّة). إن ما هو أهمّ من ذلك بكثير هو الحقيقة: أن يرى الإنسان أنّ لغالبيّة النّاس ـ بل نستطيع القول: شكراً الله، بالرّغم من أن هذا السّلوك الذي أتحدّث عنه فائق الخطورة ـ اشتياقاً إلى من يأتي ويشفي، إلى ذلك الذي يقول الحقيقة، إلى من يكفل الحماية، إلى من يقود، إلى من ينوي الخير، إلى من يتصرّف، ثم يحمّلونه توقعّاتهم ويعتقدون أنه المنقذ الذي يعلي شأنَ البلد، وأنه المخلّص حتى وإن كان في حقيقته مخرّباً، يقودهم مع البلد إلى التعاسة. هذه التوقّعات الكبيرة يستفيد منها غالباً القادة الصغار. كثير من السياسيين الذين يتركون أثراً، لأنهم يظهرون في التلفزيون بشكل جيّد، لأنهم يجيدون استخدام ألسنتهم، لأنهم يقبلون الأطفال، ولأنهم يوحون بأنّهم يحققون الأحلام، فيجد الناس في واحدهم الشخص الذي يسعى جيداً، وعلى أقل تقدير

يحب الأطفال، أي إنّه لا يستطيع أن يكره الجميع. هؤلاء السّياسيُّون يخدمون أنفسهم طبقاً لخطة «التحويل» المحبوبة من الشعب، ويبنون عليها نجاحاتهم.

كل هذا لن يحدث لو يستوعب الناس مفهوم «التّحويل»، لو يعطونه الاهتمام اللازم، لكي يميزوا أين تنجح توقعاتهم وأين تخفق، وبالتالي كي يكونوا حاذقين أكثر. أحياناً تكون المبادرات والمداخلات الصّغيرة أكثر نجاحاً من تلك التي يدعو لها بعض الناس ومن تلك التّي يطبّل لها الكبار. لو يعطى مبدأ «التحويل» في المستقبل التّمحيص الكافي، فسيكون باستطاعة الحبّ، كما الزّواج وكما أيضاً الحياة السّياسية، تحريرنا من المآسي ومن مصائب لعينة، من لعنة الخلط فيما بين الصورة الوهميّة والواقع الحقيقيّ. إن التمييز بين الحالتين ليس بالأمر السّهل، بل يحتاج ذلك إلى دراسة، وإلى تدريب يوميّ. كل إنسان مختبره في بيته وفي دوائر تحركاته اليوميّة. وغنيّ عن القول أن التلفاز له هنا فوائد جمة ـ مع وجود مساوئ كثيرة له. فمن الفوائد أنه يفضح بشكل حقيقي مواصفات الناس، حيث نتمكن أن نرى الوجوه والملامح والتّعابير، بدون أن نتوسل لذلك. يمكن لنا أن نعرف الكثير عن القائد المنتظر، عندما يتكلم في التلفاز أمام أعيننا ونحن نراه، لكن سنعرف فقط مدى صحة المعلومات عندما نعلم إلى أيّ مدى تتبعناه بشكل صحيح. إضافة لما تقدم فإني أؤكد، أن المعلومات الدقيقة عن مبدأ «التحويل» بشكل شخصي، كما عن طريق الصلات، ذات أهمية كبرى لتحسين الحياة السّياسيّة والخاصّة للإنسان.

3- استمرار التطوّر للتّحليل النّفسي:

يبدو لي أنّه يمكن توضيح المدارس المختلفة للتّحليل النّفسي وتطوّرها، ومستقبلها، كونها متقاربة جداً. إن «سيغموند فرويد» الذي قام بتطوير علم النفس، أقام في عشرينات القرن العشرين نظريته على الخلاف فيما بين المحرّك الجنسي ومحرك البقاء الذّاتي، ثم غيّرها وأوجد نظريتّه الجديدة التي تقوم على الصراع بين قوتين في الطبيعة، قوّة الحياة وقوّة الموت، الأولى تقوم على عامل الوحدة والبقاء والأخرى على عامل الفناء. لا أريد الآن أن أعرضهما أو أن أبيّن أيّة أهميّة كان لهذا التطوّر في النظرية الذي كان يعني ـ وهذا ما لم يرَه «فرويد» نفسه ـ استمراريّة أساسيّة، وبعامة يمكن القول: إنّها مدرسة جديدة أسّسها «فرويد» في علم النّفس.

أما التطوّر الثّاني المهمّ في علم التّحليل النّفسيّ فقد قام به «كارل غوستاف يونغ». يونغ هذا الذي (كما غالبيّة الآخرين، الذين استقلّوا عن «فرويد» وقدّموا أفكاراً جديدة) نقض نظريّة «فرويد»التي تعتمد النّاحية الجنسيّة أساساً لها. لقد اعتبر يونغ أن القدرة الروحية وحدة واحدة، والتي لا تعتبر أن الـ «ليبيدو» تعني القدرة الجنسية، بل القدرة الروحية بشكل عام. وقد حاول بطريقة معمّقة وغنيّة روحيّاً، أن يكشف فيما هو كامن في اللاوعي لدى المريض، عن بعض الرّموز والأساطير الدّينيّة لدى الشّعوب بعيداً وحتّى في أعماق البدائية والحضارات القديمة التي تخالف حضاراتنا.

وقد كان العالم «ألفريد آدلر» على العكس، إذ لم يكن مهتمّاً أبداً بالأساطير الوثنية، ولا في أعماق النشاط الأولى، بل كان اهتمامُه منصبّاً على

خطة كفاح الحياة. لذلك رأى أنّ رغبات الإنسان في السّيطرة هي المبدأ الأساسي من أجل الوصول إلى القوّة. لكن عندما أقول ذلك، يبدو هذا بسيطاً جدّاً كما يقول «آدلر»، إن ما كتبه يعدّ بغاية الذّكاء، وقد كان متنوعاً ويحمل الكثير من المعرفة للجنس البشريّ. من المهم جداً أن نشير إلى أنّه هو ـ قبل فرويد بكثير ـ من خصّ عدوانيّة الإنسان بمركز حاسم في صلب نظريّته.

وأذكر هنا مدرستين أُخريين تلتقيان في نواح كثيرة: أولاهما مدرسة الطب العقلي، والتي أسّسها السويسري «آدولف ماير» وتبعه المحلل النفسي الأمريكي الشّهير «هاري شتاك سوليفان » والذي كانت معلوماته ـ كما أعتقد قد وجدت في أعمال عالم النفس الإنكليزي الشهير «رونالد د. لاينغ» التعبيرَ الحقيقي بأقصى درجات الخصب والقوّة. ورغم كل الاختلافات بين هؤلاء فإنّهم يجمعون أولاً على: رفض أن تكون النّاحية الجنسية هي عامل القوّة والمحرك للتصرفات البشرية، وثانياً على لفت الانتباه إلى الصلات بين الناس، وإلى ما يدور بينهم وكيف يؤثرون ويتأثرون، كيف يتشكل حقل الوصال الذي ينشأ فعلاً عندما يتحاب الناس فيما بينهم. هؤلاء المحلّلون النّفسانيون ركّزوا ـ لحسن الحظ ـ بشكل خاص على مرض انفصام الشّخصية الذي لم يعتبروه مرضاً بالمفهوم العام، إنما هو نتيجة لمعاناة خاصة حياتيّة يتعرض لها الإنسان، والتي يمكن فهمها من خلال تلك العلاقات وما يسبب ذلك أحياناً من عواقب وخيمة، لكنها، مع ذلك تمثّل بالدرجة الأولى، مشكلّة نفسيّة، مثل بقيّة

الظّواهر المرضيّة النفسيّة الأخرى. لقد دقق العالِم «لاينغ» في هذه المشكلة بشكل واسع ومعمّق، لأنه كان في وضع تمكّن معه من أن يرى أن لمرض انفصام الشخصيّة كمرض شخصي خاص، علاقةً مع الوضع الاجتماعي، ليس فقط ضمن العائلة، بل داخل المجتمع بشكل واضح جداً.

وشبيه بذلك تلك النظريّة التي طوّرها فريق من المحللين النفسانيّين من: «فيرباين»؛ «غونتريبس»؛ «بالتيتس» ومن عملي الخاص شخصياً، وهذه النظرية تستند على نفس المبدأ، لكنها لا ترجع بالدرجة الأولى إلى أمراض انفصام الشخصيّة، بل تعود بشكل خاص إلى عوامل اجتماعيّة، هي فعّالة في قيام العلاقات الاجتماعية والأخلاقية.

هكذا، وبعد أن شغلنا أنفسنا بأهّم المنجزات والتطّورات لعلم التحليل النفسي، تظهر الآن أمامنا مسألة هامّة جداً هي: وماذا بعد أمام مستقبل علم النفس التحليلي؟ على ذلك لدّي ما أقوله، والذي ليس من السّهل الخوض فيه، لأن وجهات النّظر هنا متباينة بشكل كبير. ويمكن لنا أن نلخّصها في وجهتي نظر رئيسيّتين: الأولى تعني: أن التحليل لا جدوى منه، عديم النجاح، وسيّان فيما إذا تمت محاولة الاستشفاء بواسطته أم لا. والثانية على عكس ذلك لدرجة قصوى: إنّ التحلّيل علاج وحل ناجع لكل الأمراض النفسيّة، وحين يتعرّض الشخّص لمشاكل عليه دوماً أن يستلقي على سرير المعالجة ويخضع لها ربما عدّة سنوات. لقد كان ذلك ولفترة قصيرة في أمريكا هو الحالة السائدة، لكن تغيرت الحال مباشرة في السنين الأخيرة بعد ظهور طرق جديدة للمعالجة النفسية، وحّدت العزوف عن الطرق القديمة.

إنني أعتقد أن الادعاء في أن المعالجة النفسية لا يمكن الثّقة فيها، ليس ثابتاً. هذا ليس فقط رأيي الخاص، وبعد تجارب شخصية على مدى أربعين سنة، بل هو رأي الكثيرين من زملائي. على العموم، يجب ألا ننسى أنه في العديد من الحالات لم يكن لدى المحللين القدرة الوافية الكافية، وهذا قد يحدث في كل المهن. كما أن اختيار المرضى لا يكون غالباً موفقاً. ومن المفيد أن تُجرى التجربة في التحليل النفسي للمرضى، ولكن قد تكون هذه الطّريقة ليست المناسبة أيضاً. ثمة أناس كثيرون حقاً تعافوا من أمراضهم بالمعالجة، كما يوجد الكثيرون تعلموا ولأول مرة أن يكونوا صادقين مع أنفسهم، واضحين أيضاً، أكثر حرّية وأكثر قرباً من الحقيقة. وهذا بحدّ ذاته يعدّ نتيجة مهّمة جداً، ومع ذلك لم تعطَ حق التقدير.

من الطبيعي أن الوقوف ضدّ التّحليل النّفسي، له بعض المبرّرات التي حدثت في الماضي والتي قد تعني: الشيء الوحيد الذي يفيد الإنسان هو الدّواء، والذي إن لم يؤخذ عن طريق الفم فما هناك من فائدة. ولكن في التحاميل قد يكون العلاج، كل شيء يجب أن يتم بسرعة. لقد ظهر عندنا في أمريكا كتاب «ث.أ هاريس» وترجم للألمانيّة (أن أكون O.K. وأنت أيضاً O.K. - 1975) وهو كتاب في غاية السطحيّة، يمثل دفقة من نظرية «فرويد» قد تساعد عندما يعتقد الناس بذلك، وهذا يعني أن الاعتقاد هو الذي يفيد وليس النظرية. إنّ ما يقدّم هنا سريع الحدوث وبسيط، ولا يحتاج إلى كثير من التفكير والتأمّل، وقبل كل شيء ليس من الضرورة أن يقع الإنسان في خلاف مع ذاته. هذا هو بالضبط ما يحاول علاج الطب

النفسي تجنّبه. كل شيء بسيط، كل شيء سهل، وهذا أيضاً منحى العصر. يعتقد الإنسان أن كل شيء يمكن قبوله بسهولة، كابتلاع حبة الدّواء، وما لا يمكن تعلمه بدون جهد، فالأحسن ألا يتعلمه.

كمثال يروى أن شاباً دخل مطعماً رفيع المستوى، وطلب لائحة الأطعمة، وأطال قراءتها ثم دعا النادل وقال: مع الأسف، ما من شيء عندكم يعجبني، ثم غادر المطعم. بعد أسبوعين يأتي هذا الشاب ثانية، يأتي النادل إليه ويسأله: انظر هناك يوجد مطعم فخم فلماذا لم تذهب إليه في المرة السابقة؟ وأجابه الشاب الضيف «آه، كلا، لقد وجدت شيئاً، لكن الطبيب المحلل قال لي بأنه يتوجب علي أن أتدرب على المماحكات». إنها طريقة يتعلم المرء بواسطتها، كيف يحصن نفسه، كيف يبرز شخصيته، كيف لا يكون عنده أي تخوف أمام رئيس النادلين مثلاً.... وبهذه الطريقة يمكن لهذا الشخص أن ينجح. لكن هنا تكمن ظاهرة التخفّي: لماذا يبقى الإنسان غير واثق؟ لماذا يبقى هناك شيء لم يُكشف عنه، هنا آتي إلى وسيلة «التحويل» ـ حيث يظهر كل الآخرين كذوي سلطة، كآباء محترمين. لنقل أيضاً: عندما يأتي أحدهم إلى المطعم بهذه الطريقة، ويلقى القليل من النجاح ولكن مع قليل من كسب الثقة، فإنه يبقى هكذا خلف هذه الواجهة الكاذبة، شخصاً غير واثق، ويكون في حالة مزرية لأنه ليس على بيّنة من أمره، ونحن نسأل لماذا لا يكون الإنسان مطمئناً؟ ليس فقط لأنه خائف من التسلط، بل لأنه خائف من أنه لم يطور نفسه بما فيه الكفاية، لأنه لا يثق تماماً بقناعته الداخلية، لأنه

لازال طفلاً صغيراً بشخصيّته، ولا يزال ينتظر من يقدّم له العون، لأنه لم يكبر بعد، لأنّه شخصيّاً يشك بنفسه. إنّ وسائل التحليل النفسي وما يسمى المعالجة السّلوكية لا تساعد في التغييّر، إنها لا تشفي، وما يحدث أن الوسخ لا يزال يختبئ تحت اللحاف.

ليس كلّ انتقاد في غير محلّه. سأعرض هنا بعض الأفكار التي أراها محقّة، إذ كثيراً ما تعتبر التحليلات النّفسيّة مجرّد أحاديث. لقد بدأ «فرويد» مع فكرة الصّداقة الحرة، حيث يقول الشخص كل شيء قد يخطر على باله. لقد افترض أن الشخص قد عبر عن الأشياء من داخل أعماقه، والتي هي صادقة وذات معنى. رغم ذلك ففي الكثير من التحليلات يلغط الكثير من النّاس فقط من أجل تفريغ جعبهم للمرّة المئة عن شخص ما أو عن الوالدين أو عما قاموا به تجاههم! لا شيء ينتج عن ذلك، إنّه المعاد المكرّر، لكن مع ذلك هناك من يستمع! إن المريض لديه ذلك الشّعور. وهذا الكلام لا يغيّر أحداً ولا يتغير به شيء... هذه ليست الطريقة، التي كان يعنيها «فرويد»، وبالتحدّيد كشف الغطاء، والكفاح مع الإصرار. لقد افترض «فرويد» ألا أحد البتة يمكن أن يصل إلى مبتغاه بدون جهد، كما لا يمكن أن تحل مشاكل نفسيّة عويّصة بدون جهود. لا يمكن الوصول إلى شيء في الحياة بلا جهد، حتى عندما تعدنا الإعلانات بذلك. من يخفْ بذلَ الكفاح، نعم، وحتى من يخجلْ من الإحباط والألم، فلن يحقّقَ شيئاً، والتحليلات النفسيّة لا تفيد. إنها عمل صعب، والمحلّلون الذين لا يأخذون ذاك في الحسبان، يلحقون الضّرر بأنفسهم وبمرضاهم.

هناك خطأ آخر يتمثّل في أنّ الإنسان يحتكم إلى العقل وليس إلى المعايشة مع الآخر. إنه يجادل نظريّاً بخطابات لا نهاية لها، بما يعني أن جدته صفعته مرة أو ما يشبه ذلك. وإذا كان المرء أكاديميّاً فهو يبتدع نظريّات معقّدة حول ذلك، يضع الواحدة فوق الأخرى... لكنه لا يعيشها البتة. الإنسان لا يعيش ما بداخل الآخر. إنه يعيش مخاوفه الخاصة. هو لا يتنفّس هواء الحبّ بلْ انعزاله عن الآخرين. كل شيء يصان بالمقاومة. وبذلك يساير الإنسان اتجاه العصر الواضح الذي يحترم أولاً العقلاء. مع التفكير العاقل يعمل الإنسان كلّ شيء، أمّا الشعور فهو ثقل توازن ليس ضرورياً، ويمكن للمرء تجاهله.

وأخيراً أحب أن أقول: يوجد كثير من الناس، يرون أن عليهم عند ظهور أبسط المشاكل أن يهرعوا إلى المحلل النفسي، بدلاً من أن يقوموا بأيّة محاولة لحل هذه المشكلة بأنفسهم. عندما لا يستطيع المرء بذاته أن يتعرّف على وضعه، فهو لا يستطيع تحسين وضعه، وعليه عندئذٍ أن يذهب إلى المحلل النفسي.

إن التحليل يبقى دوماً وأبداً هو المعالجة الأفضل لكثير من الاضطرابات النفسيّة، هذه الاضطرابات ذات علاقة بالـ «الأنا» ـ أو بكلمة أخرى ـ مع العنصرّية، وبنفس الوقت مع الانعزالية عن الآخرين، مثل الهرب نحو الأوهام، نحو الاضطراب النّفسي المتزايد، وأعراض أخرى، مثل إلزاميّة الغسل، ومجموعة كبيرة من الأعراض لبعض الأنواع التي تستحوذ على سلوكيّة المريض، والتي لا يستطيع المرء معها أن يعالجها ويشفى منها إلا بواسطة المعالجة النفسية.

لكن التّحليل النّفسي له على أقل تقدير دور كبير أيضاً في المعالجة والشفاء من أمراض دون أخرى، وبالتحديد من أجل بعث الانتعاش الرّوحي والانتعاش الاجتماعي. وعليّ هنا أن أعترف، أن قلة من البشر لهم هذه الرّغبة في الانتعاش الرّوحي، فلأغلبهم هدف آخر: أن يملكوا أكثر، أن يستهلكوا أكثر. عندما يبلغ واحدهم عشرين عاماً، يفكرون أنّهم أصبحوا جاهزين، ومن هنا فصاعداً يهيّئون كل مساعيهم من أجل أن يستخدموا هذه الآلة الجاهزة بشكل جيّد. وإذا ما فكروا في تغيير حالتهم الاجتماعيّة، فقد يبدو ذلك سيّئاً، إذ عندما يغيّر المرء من ذاته، فهذا لا يعني أنه ينسجم مع المسطرة، والتي معها يقدّر ويجري الحساب، لأن المرء لا يدري ما إذا كان سيبقى بعد عشر سنوات على نفس الرّأي الذي يرتئيه الآن، أو كيف سيكون الأمر مع تطوّر الحال. إن غالبيّة الناس لا يريدون أن يكبروا، أو أن يتغيروا، لا يريدون تطوّرهم وتفجير قدراتهم، إنهم يرغبون باستثمار الإمكانيات المتاحة، وأن يسعدوا وأن يزيدوا من رأسمالهم.

بكل الأحوال نحن نعرف أيضاً الاستثناء، أي الاتجاه المعاكس، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يلاحظ كثير من الناس اليوم أننا عندما نملك كلّ شيء ونستمتع بكل شيء، لا نشعر بالكفاية ولا نكون سعداء، وأن لا معنى للحياة، وأننا بؤساء مكبوتون، وأننا خائفون، ونسأل أنفسنا: «لماذا نعيش إذنْ، عندما يكون كلّ ما نفعله يهدف إلى أن نشتري سيارة أفضل؟» هم يرون كم أن الوالدين أو الجدين تعساء، والذين

عندهم كل شيء، وما يريدون، وقد ضحوا بحياتهم كِلّها من أجل ذلك. هذه الأقلية من الناس عندها كلمة قديمة قد اكتشفتُها بوضوح أقل أو أكثر هي أن الإنسان لا يعيش بالخبز فقط، إن الملك والقوّة لا يمكنهما ضمان السّعادة، إنما قبل ذلك يسبّبان الخوف والتوتّر. هؤلاء الناس يريدون تكريس حياتهم لأغراض أخرى: أن يكونوا أكثر، لا أن يملكوا أكثر، أكثر عقلانية، أن يتركوا الوهم، أن يخلّصوا أنفسهم من أوضاعها، أن يخلصوها من الأوهام وصولاً إلى الواقعيّة الرّشيدة. هذه الرغبات الحميمة تعبر عن نفسها بطرق بسيطة: بالإعجاب الكبير بالديانات الشرقية، باليوغا، بتعاليم البوذّية...الخ. وأنا أقول «بسيطة» ليس لأن هذه الديانات بسيطة، إنما لأن الناس بطريقة ساذجة يتوجّهون إليها. هم يرضون أنفسهم، يخدعون بطرق دعائية لبعض فقراء الهنود الذين يقدمون أنفسهم كرجالات دين مقدّسين، ومن جميع الفئات، ويقدّمون لهم عقاقير يوهمونهم أنها تشفيهم، كما أنها، اجتماعيّاً، تساعدهم بنشاطاتهم الاجتماعية. وأعتقد هنا أن المعالجات النفسيّة تستطيع أن تفعل فعلها، وأقصد أنها عملياً تؤكد ذاتها، تحرّر من الأوهام ومن عوامل الخوف والجشع، إنني من أجل البعد عن القنوط ومعايشة الحياة بطريقة جديدة بالتحديد جعلتها محور رغباتي، ومنطلقات حياتي، والقوة الخلاّقة لديّ، والتي أنسى فيها ذاتي، بل أكون الفعّال في معالجة الأمور، وأن أعيشها كما هي...أعيشها بصدق وليس كشخص غريب عنها.

هذه المعايشة يمكن التّدريب عليها. من أجل هذا التّدريب يمكن للتّحليل النّفسي أن يلعب دوراً لأنّه طريقة مهمّة يجب أن يعيشها الإنسان، أن يعرف من هو الإنسان، أين يقف؟ إلى أين يذهب؟ من أجل أن يكون مفيداً ـ عندما يُجري المريض تحليلاً عند المحلل النفسي، الذي يفهم علاقات هذه الأمور مع بعضها، والذي لا يعتقد أن هدف التّحليل هو جعل الإنسان أكثر انسجاماً مع الواقع. هذه المعالجة النفسيّة يجب ألا تستمّر طويلاً لأن ذلك يسبب غالباً الاتّكاليّة... عندما يكون الإنسان قد تعلّم كيف يستخدم سلاح العمل الجديد، فعليه أن يبدأ بتحليل وفهم نفسه. وهذا واجب، مطلوب أن يستمر طيلة الحياة ـ من الأفضل أن يقوم المريض يوميّاً صباحاً بالتدّريب كما التنفس، وكذلك يقوم بتمارين مكثفة، تماماً كما هو متّبع في الطّريقة البوذيّة. المهمّ في الأمر أن يُخرج الإنسان نفسه من الطّاحونة، أن يعود الإنسان لنفسه، أن يستمع لجوّانيته، وأن تكون له باستمرار الاستجابة في تتبع العوامل المشجعة، أن يحرر بواطنه وذلك منَ أجل أن يصبح في جوّانيته نشطاً.

إنّني أعتقد أنّ من يعمل على هذا النحو فهو يضاعف مقدراته الحياتيّة ويتحقق له الشّفاء. ويحتاج الإنسان من أجل ذلك إلى الصبّر، وللحقيقة فالصّبر لدينا ليس مؤّمناً كفاية دوماً.... ومن يحبّ أن يفعل ذلك فأنا أرجو له التوفيق.

باسم الحياة

مقابلة تلفزيونية بين فروم وشولتس

شولتس: سيد «فروم» لقد عزمنا على إجراء محادثة فيما بيننا وليس حواراً، إنه نقاش أو محادثة بدون موضوع محدد وبدون هدف، بدون استعداد مسبق، وبالتالي فهو تداول كلام نسعد به.

عندما أسأل نفسي عن الدّور الذي سألعبه، لا يهيّأ لي إلا أنّي ذلك القارئ الذي يزور كاتباً، والذي درس مؤلّفاته، وهو يحب أن يكتسب خبرة إضافية، كمن يحب أن يحمل معه «أسود على أبيض»، إلى البيت، وبقدر ما يستطيع أن يحمل. إن نشاطي هذا اليوم يقتصر على أن أكون مستمعاً جيداً، أطلب منكم ـ بدون أن أسألكم ـ أن تتحدثوا. «هذا الكلام يبدو وكأنه موضة قديمة»، يذكّر بالصالونات. على الرغم من أنه في محطة إذاعية، في ستوديو الإذاعة لا تجُرى المحادثة. هنا إمّا أن تُجرى المناقشة أو يُعطى حديث، إنّها كبضاعة تُعرض على الجماهير، وبدون الخوف على البضاعة، من حيث أن الرغبات الواعية قليلاً أو كثيراً ما تكون في هذه المحادثات كما نحن نفهمها.

المحادثة ـ كما تعني الكلمة ـ إصغاء وشرح لمدلول الكلمات. على الإنسان أن يكون متواضعاً. بالرغم من كون المحادثة «لعبة» لعبة الخيال، لكن لا يجدر اللّعب بها.

بعد هذه الملاحظات الصّغيرة، بدايةً أريد أن أسألكم سيد «فروم» فيما إذا كان ما نفعلهُ الآن معاً مناسباً من حيث التّوقيت؟ مَنْ ـ فيما عدا قلّة ـ

يريد أن يعود للحياة ثانيةً وهو يعلم أنّ الموت محتّم، وفي أحسن الأحوال ينظر له، وكأنّه من آثار الماضي؟ فكروا بالثقافة والحضارة ومنها تبادل الرسائل في الماضي، مما هو آيل للانقراض وبصمت مطلق. هل يمكن مع ذلك إنقاذ ثقافة التحادث؟ أخاف أن أقول: كلا! وأنا أؤكد ذلك بكل تواضع، للأسف.

فروم: أنا أجد ذلك مؤسفاً ولدرجة كبيرة جداً، نعم، بل كأنّ ذلك إشارة إلى مأساة حضارتنا، التي ليست فقط مأساة محزنة، بل قد تكون ممتعة، قد يكون من الممكن أن أعبر هكذا: نحن نعمل أكثر، ولكن لا جدوى ممن كان ديدنه (ليته، لو). إن الأمر يدور إما على المال أو على الشهرة أو على استمرارنا. نحن لا نفعل شيئاً مهماً، حيث لا هدف لذلك. لقد نسي الإنسان أنّ الممكن ذو قيمة مهمّة، وقبل كلّ شيء هو جميل. أجمل شيء في الحياة أن تعبّر الحياة عن مقدراتها، ليس من أجل هدف ما، ولكن من أجل إرادة الحياة.

ليس للحب الحقيقيّ الصريح هدف. ولكنّ له لدى كثير من الناس هدفاً، قد يكون فقط المتعة الجنسيّة، أو قد يكون الزواج من أجل تأسيس أسرة، أو من أجل بناء حياة اجتماعية، هذه هي أهداف الحبّ. ولذلك فإن الحبّ في أيّامنا هذه نادرٌ جداً. الحبّ بلا هدف، وفي أي حب، هو عمليّة الحب نفسها، حيث أن الجوهر فيه هو الحياة، أي استمرار الوجود وليس الاستهلاك الغريزي، إنه ما يلعب الدّور الفعّال: إنه إثبات الوجود للإنسان، وهو ما يكشف مقدراته الذّاتيّة. ولكن ما يدعى الحبّ

كما هو شائع، ليس غير تحقيق أحد الأهداف الظّاهريّة من نجاحات، إنتاج... مما يذهب بعيداً، بحيث أن المرء لا يكون بعد ذلك معنياً بماذا يمكن أن يكون.

إن المحادثة إما أن تكون بضاعة، أو أن النّاس يتحادثون فيما بينهم من أجل المجادلة. وما داموا يستطيعون أن يتوجهّوا إلى جمهور أعرض، فالأمر ينقلب إلى نوع من أنواع صراعات العبيد أيام زمان، وهكذا ينطلق أحدهم ضدّ الآخر نداً لنّد، وكل واحد يحاول أن يصغّر من قدر الثّاني. أو أنّهم يتجادلون كي يرى الآخرون كم هم متواضعون، أو كم هم متميّزون. أو هم يتجادلون فيما بينهم كي يقنعوا أنفسهم والآخرين بأنهم على حق، وبهذه الطريقة يرون أنّ ما يفكرون فيه صحيح تماماً، إنهم يتحادثون فيما بينهم مدركين أن ليس عندهم من جديد يفكرون به. عندهم رأيهم. وكل واحد يعرف الآن ماذا سيقول الآخر. هم يقنعون بعضهم بعضاً ولا أحد منهم يمكن أن يتزحزح عن موضعه.

المحادثة هي بالحقيقة ليست جدالاً وليست هدايةً. إنها تبادل وجهات نظر بين اثنين أو أكثر، ولا علاقة للتحادث بمن له أو عليه الحق، ولا حتى بمن قال هذا أو قال ذاك ولا ماذا، ولا فيما إذا كان ما قاله مهماً جداً أم لا. هناك علاقة وحيدة هي أن يكون ما قيل صحيحاً، ومن أجل التّوضيح هذا مثال صغير: لنفترض أن اثنين من زملائي، وهما محللان نفسيّان، راجعان إلى منزلهما، أحدهما قال للآخر: «على ما يظهر أنا تعب». وأجابه الآخر: «وأنا أيضاً». الأمر عادي، لكن هذا يجب ألاّ يكون. فلو أنّ الاثنين أدّيا نفس العمل. فهما يعرفان أيضاً مدى التعب لدى

كل منهما، ونحن نعلم جيّداً كم هو كل منا متعب. في هذا الباب هناك كثير من الموضوعات للحديث فيها، وأكثر بكثير مما عند اثنين مبتدئين من المحللين يطلقان تصريحات

الموضوع إذن يتعلق بالتحادث فقط وبشكل صريح ومنفتح، وبتفاهم مع الآخر، والتعبير غالباً بمفردات بسيطة مفهومة، في الرقص مثلاً يتضح ذلك من خلال الحركات والاختلاجات التي تعبر عن نفسها. يوجد الكثير من الأشكال والصّيغ للتحادث. إنه فن التّحادث أو لنقل السّعادة في التّحادث، وهو يصبح من جديد ممكناً، عندما يأخذ تغيير كبير في حضارتنا طريقه، وبالتحديد عندما يمكن التغلب على نوعيّة الحياة وحيدة الاتجاه السّائد، هنا نحتاج إلى موقف واضح يتجلّى فيه أنّ التطور لحياة الإنسان يكون نحو الاستقلاليّة والمقدرة. وبكل بساطة نقول: إنّ المهم هو ماذا نكون، وليس ماذا نملك من أجل الاستهلاك والركض وراءه.

شولتس: عندنا اليوم وقت حرّ أكثر بكثير من السّابق، وفرص أكثر للمحادثات، ولكن الفرص الخارجية يظهر وكأنها بالعكس تتعلق فقط بما لدينا من ترتيبات داخلية، أي أن نكون مع بعضنا بعضا طبقاً لكلامكم، هذا يعاق بواسطة أشياء كثيرة، من تجهيزات، وآلات. و....الخ إنها تظهر وكأنها تمنعنا من اتخاذ موقف وتنفيذه، وهذا ما نسميه «التوقف لأجل المحادثة».

فروم: كثيرٌ من الناس، بالأحرى أكثرهم، عندهم تخوّف من أن يكونوا وحيدين مع بعضهم بعضاً بدون برنامج، بدون أدوات، بدون موضوع، بدون نظام يومي. إنهم يخافون ويشعرون بالضياع، حيث لا يعرفون عما

يجب أن يتحدثوا. أنا لا أدري كيف هو الأمر في ألمانيا. أما في أمريكا على سبيل المثال فإنه من المتعارف عليه أنَّ شخصاً لا يدعو أبداً أحداً بمفرده أو زوجاً مع زوجته لزيارته، يجب أن يكون المدعوّون جماعة، لأنّه سيكون من المخجل أن يكون فقط أربعة أشخاص مجتمعين، لأنه على الإنسان في هذه الحالة أن يبذل جهداً كبيراً لتزجية الوقت، وإلا تكون الجلسة مملة، وكان لابد من استعمال اسطوانات قديمة للتسّلية وهدر الوقت. عندما يكون المجتمعون ستة، يكون التحادث أحسن قليلاً، وهكذا يمكن تفادي النقطة الميّتة، أي تكون هناك فرصة أكبر للتّحادث. عندما لا يجد أحد شيئاً للتحدث فيه، يبدأ آخر بالحديث، أي يمكن أن نقول صار لدينا سمفونيّة مزدوجة، تسكت الأولى فتبدأ الثّانية، وهكذا لا تتوقّف الموسيقى. أما التّحادث الحقيقي فهذا لا يوجد أبداً.

إنني أعتقد ـ ويعتقد معي الكثيرون ـ أن التّمتّع الذي لا يكلّف شيئاً، لا يمكنه أن يكون كافياً ومرضياً. لقد اعتدنا بواسطة الدّعايات الصناعيّة أن نصدق أن كل السّعادة تأتي من المعروضات الصّناعيّة التي يشتريها الإنسان. أما أنّ الإنسان يستطيع العيش بسعادة بدون استخدام هذه التجهيزات. فلم يعد هذا مقبولاً. هذا يخالف كثيراً العادات السابقة. أنا الآن ابن الثّالثة والسّبعين من العمر. قبل خمسين عاماً كان لدى الإنسان القليل من التجهيزات لقضاء احتياجاته، وكذلك القليل من وسائل العيش والتسلية. لم يكن آنئذٍ راديو، أو تلفزيون أو سيّارة، لكن مع ذلك كان هناك تحادث. هل يريد الإنسان أن يسرف في أحاديث التسلية؟ إنه

عندها ينفرط من الجهد، التّحادث يتطلب الجماعة، عندما لا يكون الإنسان حيوياً ونشطاً، لا تكون أيضاً المحادثة معه حية وممتعة. لكن يوجد أشخاص كثيرون يمكنهم أن يكونوا أكثر حيويّة، لو لم يكن عندهم خوف من أن يخرجوا من أنفسهم، إن عليهم أن يشجعوا ذواتهم كي يخرجوا منها، أن يتركوا العكّازة التي يعتقدون أنهم بحاجة لها. ولكي لا يفاجؤوا يوماً أنها تقف أمامهم. هذا يعني أنّهم يصبحون وحيدين مع ذواتهم أو وحيدين مع غيرهم.

شولتس: إنّنا هنا نتكلّم في الراديو والتلّفاز وعليهما أن يذيعا وأن يتحدّثا. هذا منصوص عليه في قوانين المحطة الإذاعيّة عندنا في ألمانيا الاتحاديّة، أمر آخر لقد أشرتم للتوّ أنّ هناك شكاً في أنّ كلاً من الراديو والتّلفاز قد قاما بدور كبير في عمليّة تهديم حضارة التّحادث.

فروم: إنّها نقطة بحث وتهّمني جداً، وأحب أن أسألك ما هي خبراتكم في ذلك؟ بشكل عام، هل لديكم تلفاز بتأثير متشابه وبمهّمة متشابهة؟ أو لنفترض أن وسيلتي الاتصال لهما مهمتان مختلفتان جداً وكذلك لهما مواصفات مختلفة.

شولتس: هذا ما أتوقعه تماماً. وعندما أقول أتوقع ذلكِ، علي حينئذ أن أشير إلى أن علم الاتصال، الذي يتكلّم عن نفسه بوضوح، لم يقم كما يجب بتوضيح فروق التأثير فيما بين الرّاديو والتلّفاز، وبالنسبة للجواب على سؤالكم أستطيع فقط وبشكل غير موضوعي، الرد ببعض الملاحظات والمتابعات لكل منهما. يبدو لي، أن كلاً من الراديو والتلّفاز ليسا في الأساس ناقلين للحوارات. هما غير مباشرين، من جهة يبدو أنّهما

يعطيان، ومن جهة أخرى هما يأخذان. وهكذا لا يوجد ما نسمّيه الجواب المعاكس. عندما يدار الرّاديو أو التلّفاز، يمكن سماع كلام ومحادثات. يمكن للتلّفاز والرّاديو أن يقلّدا محادثة ما ولكن لا يمكن لهما خلقها. وحسب رأيي يبقى هذا من حق الناس الأحياء. الشّيء المميّز في الأمر من وجهة نظري، فيما إذا كان الرّاديو والتلّفاز من أجل المحادثة قد جُهزا، أو شُحنا، أو هُيئا، أو أنهما يلغيان الاستعدادات، بمعنى، إلغاء قدرة نقل المحادثة. في هذه الحالة أجدني أعلّق الأمل على الرّاديو أكثر مما على التلفاز. إن التلفاز يقود أكثر من غيره ـ إلى السلبية، إلى الاستهلاك المريح. إنه الوسيلة الناجحة جداً لـ «إضاعة الوقت». إن الرّاديو ـ كما أرى ـ لا يستهلك الكثير من اليقظة. إنه يتطلّب وينشّط الانتباه أكثر وأكثر من الخيالات الذّهنية، ومن الممكن، إذا أردنا أن يكون «الطنجرة وغطاها»، أن يقدم مادّة المحادثة، أي ليس المحادثة نفسها، بل مادّة المحادثة. ومن ذلك يمكن لي أن أتوقّع أكثر، أكثر مما نحن جماعة الراديو نحتاج.

هذا يعني أن معرفتنا محدودة بما تتطلبه من إمكانيات مجالات العمل: إنني أجد أن السحر الذي يثيره الراديو هو، بالضبط، الذي لا يمكن تأمينه. إنه يشير، عندما تعرف بوضوح حدوده وإمكانياته الفنية والبدائل المطلوبة، إلى إمكانيات أخرى مباشرة وأساسية للاتصال على سبيل المثال، وتقود مباشرة إلى الجمالية الفريدة.

فروم: أستطيع أن أفهم ذلك جيداً. إنني شخصياً أملك فقط خبرتي كمستمع للراديو وأحياناً كمشاهد للتلفاز. لقد دوّنت عندي بعض الملاحظات (كذلك زوجتي) ويمكنكم أن تبدوا تعليقاتكم، وكذلك يمكن

للمستمعين لهذا الحديث أن يتساءلوا فيما إذا كان لهم هذه الخبرات، وفيما إذا كانوا أيضاً يشاهدون التلفاز. عندما أستمع للراديو، فأنا رجل حر، هذا يعني أن أشغل الراديو عندما أريد. ولكن ليس عندي هوس بذلك. أنا أستمع لمحادثة بواسطة الرّاديو، كما أسمعها على الهاتف عندما يطلبني أحد يريد محادثتي، الأمر في الراديو ليس خاصاً كما في الهاتف، لكن على كل حال تعودنا عليه، هذا يعني أنّنا لسنا معزمين به ولا عشاقاً له. وهكذا يمكنني القول فعْلاً، إنني ضمنيّاً حرّ تماماً: أستمع أو لا أستمع. بالنسبة للتّلفاز، أشعر بنفسي شيئاً آخر. هنا لا يشعر الإنسان بكل حرّيته. عندما يعمل التّلفاز وأرى الصّور أمامي تتكّون، لا أشعر أنني ملزم، ولكن، نعم، أشعر بالميل القوي إلى أن أشاهد ذلك، ولو أنني عقلياً أعرف أن كل هذا من البلاهة. لا أريد بذلك أن أقول: إن كلّ شيء في التّلفاز أكثر بلاهة، لكن فقط أقول: وحتى عندما أعرف أن الذي يُعرض هو شيء من البلاهة، فإن لي ميلاً شديداً إلى أن أسمعه وأشاهده.

إن التلفاز بهجة، وله جاذبيّة، أكثر بكثير مما للراديو. إنها جاذبيّة نفسيّة وهي ليست من البرنامج المعروض. لقد سألت نفسي مراراً: ما هي هذه الجاذبية؟ أنا أعتقد أنها رغبات عميقة في النفس متراكمة الطبقات: يمكن للشخص من خلالها، بواسطة كبسة زر وهو داخل غرفة سكنه أن ينتقل إلى عالم ويزور عالماً آخر، إنها تستجيب معبّرة عن رغبة غريزيّة ذاتيّة لدى الإنسان.

شولتس: ... الغريزة الكامنة...!

فروم: التلفزيون يجعل مني إلهاً من حيث لا أحتسب. إنني أحصل على المعرفة، على الحقيقة التي تحيط بي، وعلى حقيقة جديدة تأتي إلي إذ أضغط على زر التشغيل للجهاز. أنا بذلك تقريباً الإله، الخالق. إنها دنياي. هنا يخطر في بالي تاريخ صغير، لما له أفضليّة الوجود بأن يكون وتمّ التعبير عنه بأحسن وجه. لقد أُخبرت بذلك من أحد الآباء، كان مع ابنه ذي السادسة من عمره، يسوق سيارته في يوم عاصف ممطر. وبينما هو يسير على طريق زراعية ضرب الدولاب وتعطلت السيارة. كان عليهما أن يفكّا الدولاب ويستبدلاه. كان الأمر صعباً ومزعجاً. هنا قال الطفل لوالده: «بابا، ألا يمكن أن نغير محطة الراديو؟» هكذا كانت الدنيا بالنسبة للطفل. قناة لا تناسب، فليغيرْها إلى أخرى.

منذ فترة قصيرة حدّثتني زوجتي عن رواية لكاتب بولوني كانت قرأتها. كنت أستمع إليها بانتباه شديد. في الرّواية يدور الحديث عن رجل، كان الابن لرجل غني جداً، ويبدو أن الابن كان مجنوناً. وقد أسكنه أبوه في بيت كبير بدون أن يتعلم القراءة والكتابة وبدون أن يكون على صلة مع أيّ شخص يتحدث معه. كان معزولاً تماماً داخل منزل والده. الشّيء الوحيد الذي كان عنده هو التّلفاز. كان التّلفاز يبث كل النهار. واعتقد الابن أن ما يراه هو كل الحقيقة. توَفي الوالد واضطر الابن إلى أن يغادر البيت ويلتقي الناس، لكنه لم يفهم أبداً أن ما يراه هنا هو من طبيعة أخرى مختلفة عما كان يراه في التلفاز، لم ينبس الولد ببنت شفة، لم يفهم شيئاً البتّة. لقد استطاع فقط أن يرى، وبخاصة أن الدنيا كانت بالنسبة له ذلك التّلفاز. وقد عاد أخيراً إلى البيت، ليصبح أعظم وأشهر

رؤساء أمريكا. فلأنه لم يقل كلمة في حياته، اعتقد الجميع أنه يجب أن يكون رجلاً مهماً وعظيماً، وخلال فترة قصيرة أصبح اسمه يملأ الآفاق، وبالختام تم ترشيحه رئيساً، لأنه لم يقل يوماً كلمة ولم يعبّر عن رأي أبداً.

هنا سنشرح تماماً، ماذا أعني بالقول إنّ الحقيقة وذاك الذي يعرض في التلفاز، ليسا مختلفين البتة. إن مغامرة الحياة التي يمكن بتحريك إصبعي أن أجعلها تصبح حقيقة ـ كما تقولون ـ هي في أساسها بدائية ـ غارقة في البدائية، وهي مغرية بلا حدود، فالتلفاز ليس بحاجة البتة ـ كما يجب أن يقال ـ إلى أن يقدّم شيئاً جيداً. لأنه من خلال وجوده كوسيلة اتصال يجذب الآخرين، هكذا، تماماً كما يحدث إذ تجد الناس يركضون كلهم حين يهب حريق، أو عندما يحدث عارض مفاجئ غريب.

شولتس: حيث لا يحتاج المرء إلى أكثر من أن يرى، وهو ليس مهيئاً لأن يشارك بفعل ما، هذا يعني أن الناحية الأخرى من هذا الخداع المتمثل بالقوة (بواسطة كبسة زر) هي سلبية كاملة، في حين يمكن للمرء أن يتصور، من خلال الراديو، أن الاستماع هو نوع من الاستجابة. إنّ الاستماع بحد ذاته هو اتخاذ موقف إيجابي، ولا يمكن الخلط بينه وبين انتظار ما تأتي به المعرفة وحسب. وهذا سؤال آخر يا سيد فروم: أنتم لا تستطيعون ولا تريدون أن تقيّموا الأوضاع الألمانية، مع ذلك فإن التلّفاز قد غيّر الكثير من عادات الاستماع. لا نستطيع بعد الآن أن نحسب حساب اهتمام المستمعين، إذ أن التلفاز سلبهم الرّغبة في أن يهتّموا وأن يراقبوا.

سؤالي الآن فقط: ألم يتسارع الرّاديو في تراجعه في هذا الاتجاه؟ إن الاهتمام به لم يعد متوفراً بشكل واسع، بل هو يضمحّل بسرعة، أليس من

الواجب أن نعكس إدارة الدفّة؟ ألا يتوجّب على الراديو أن يتجدد من حيث كونه واسطة متواضعة، ولو أننا كنا أكدّنا، أنه لم يعد ذا كتلة شعبية يحسب لها حساب؟ من هذا المنطلق، فإن الراديو أُعفي من هذا الدور، وعلى المرء أن يكون شكوراً لذلك. كما يجب ألا تكون الواجبات الكبرى والدقيقة بعد الآن مطلوبة منه، والتي كانت تراعي الاختلافات التي كنّا تحدّثنا عنها سابقاً.

فروم: إنّني شخصيّاً لا أستطيع أن أقيّم هذه الأمور. لأنّني لا أعرف الرّاديو الألماني بشكل جيد. لكنّي أعتقد الآن، أن ما تقوله يصيب كبد الحقيقة. إنّني أعلم أنّكم في إذاعة جنوب ألمانيا قد قمتم في حلقات متعدّدة بمعالجة قضايا عديدة نوقشت في دورات جامعيّة، وربما بأساليب مبّسطة، وهذا تأكيد لما جرى (كان من الأحسن لو تمت في الدّورات الجامعيّة المعالجة بلغة مبّسطة أكثر وتمّ التوسعّ في المواضيع أكثر) وبالتحديد هذه ـ كما يبدو لي ـ كانت المهمة الأولى، المهمّة عبر الراديو، حيث كان يمكنه أن يقوم بدور تربويّ مهمّ جداً. قبل كل شيء فإنّ ذلك الذي تتحدّثون عنه مهم لدرجةٍ عالية. إنّه لشيء يستحق الاهتمام: كم يفكر إنسان اليوم بشكل سطحيّ، كيف يعيش وكيف يعمل، العمل موضع تساؤل، فهو مهدّد، حيث أنّه بأغلبه ميكانيكيّ ومركّز بشكل جزئي وغير متكامل، وهو يتطلّب التعاضد من الجميع، مثلاً العامل على الدولاب الدّوار، والذي شغله الشاغل تثبيت الفراش باستمرار، يجب عليه أن يبقى مركّزا بحيث يبقى مستعداً عند الطلب، أما هذا النوع من التركيز فهو يختلف تماماً عن كامل جملة الشعور الحقيقيّة للإنسان الذي هو مستعدّ لأن يسمع، والذي

لا يشغله شاغل في نفس الوقت، والذي لا يريد أن ينجز خمسة أشياء بنفس الوقت، لأنه لا يوجد شيء يرضيه. من الطبيعي أنه بدون تركيز لا يمكن لأي شيء أن ينجز بشكل جيّد، أي شيء ينجز بدون تركيز واهتمام يعدّ عديم القيمة تقريباً، لا يوجد مطلقاً شغلٌ لا تتوفّر فيه السّعادة والمتعة، كما قد تتوفر القدرة فيه والنّشاط أيضاً ويتّم تنفيذه تحت شروط التركيّز. هذا لا ينطبق فقط على الفنّانين وكبار العلماء، ولكن أيضاً على كلّ إنسان.

شولتس: هنا، أوقف المحادثة وأقوم بمداخلة أتوجه بها لكم. وأتوجه إليكم أيها السادة، من أجل أن أعطيكم بعض المعلومات حول شريكي في المناقشة: في أمريكا، هذا ليس مهمّاً، هناك يعرف الناس إيريش فروم ومؤلفاته. عندنا الأمر مختلف بعض الشّيء لقد بدأ اسم فروم يأخذ شهرته شيئاً فشيئاً إلى أن وصل إلى ما هو عليه.

ولد فروم في 23 آذار 1900 في فرانكفورت في ألمانيا، كان ولداً وحيداً ـ فيما بعد سوف أسأله مباشرة ـ في مسألة المذهب اليهودي، وعن تواريخ العهد القديم ـ كما يصفها ـ التي حرّكته أكثر من غيرها، قبل كل شيء لترسيخ وجهة النظر في السلم العالمي، حيث يعيش الذئب والخروف جنباً إلى جنب، وقد رسّخت بشكل مبكر في داخله الرّغبة الكبيرة لتعايش الشعوب على المستوى العالمي. في مجال التربية الاجتماعية تحركت في داخله نوازع الاحتجاج ضد اللاأخلاقية و انخداع الجماهير بها، والتي أوصلت العالم عام 1914 إلى الحرب العالميّة الأولى.

إلى جانب ذلك أثاره شيء آخر كان تجربة شخصية، وكان لها أثر كبير في حياته: امرأة جميلة، فنانة، صديقة العائلة، انتحرت بعد وفاة

والدها العجوز. لقد تمنّت أن تدفن معه. لقد تفاعلت هذه المسألة داخل فروم وكانت مثيرة للتساؤل الملح، كيف يمكن تفسير ذلك؟ هذه المرأة أحبّت والدها حتى أنها فضّلت أن ترافقه إلى القبر والموت معه، على أن تبقى مستمّرة في حياتها. هذه المتابعة للحادثة من قبل فروم، وتفاعل تلك الأفكار، أديا به إلى طريق التحليل النفسي. وانطلق في البدء يجمع لنفسه المعلومات ليعرف دواعي ذلك التصّرف.

في الدراسة أصبحت رسالات الأنبياء التي حفظها «فروم» عن ظهر قلب، ورسالات مجموعة باهرة من المفكرين: «بوذا، ماركس، باخوفن وفرويد...الخ» مع هؤلاء، وأمثالهم أصبحت عند «فروم» أهم المراجع وبواعث الإلهام. قد توجد هناك بعض الأصوات المتعارضة. لكنّما «فروم» يجمعها كلّها تحت سقف واحد، منها وحولها سيكون الخطاب، وأنا في هذه المحادثة لن أتركها دون أن أعرج عليها.

درس فروم في هايرلبرغ: علم النفس، والفلسفة، وعلم الاجتماع. في الثانية والعشرين أصبح «دكتور» في فلسفة علم الاجتماع، وتابع دراساته في علوم التحليل النفسي في ميونيخ وفرانكفورت. ثم التحق في نهاية دراساته بمعهد الطب النفسي الشهير في برلين. 1930 أصبح محلّلاً نفسيّاً متخصّصاً. وإلى جانب ممارسته لعمله في برلين، في عام درّس في معهد فرانكفورت للتحلّيل النّفسي، وقد صار مدرّساً وعضواً في معهد التّطوير الاجتماعي في جامعة فرانكفورت، وبعد ظهور الحزب النازي الاشتراكي انتقل إلى جامعة كولومبيا في نيويورك ودرّس فيها. هاجر فروم عام 1934 إلى الولايات المتحدة الأمريكية. درّس في جامعات مختلفة، ودعا معاهد

مختلفة إلى تبنّي علوم التحلّيل النفسيّ وعلم النفس الاجتماعي في الحياة، وإعطائها المزيد من الاهتمام والتقدير. في نفس الوقت كان يمارس مهنة التحليل النّفسي وأنعم من خبراته في هذا المجال على مرضاه وجمع المزيد منها. في عام 1950 غادر فروم إلى المكسيك، وهناك وإلى حين إحالته على التقاعد عام 1965 كان يعمل في الجامعة، ينشر بسخاء علمه وخبراته. والآن هو بروفسور شرف في هذه الجامعة. وحتى ساعة كتابة هذه السطور كان قد أخذ على عاتقة الكثير في المكسيك ونيويورك من واجبات التعليم. في السنين الأخيرة من حياته يسكن في تسّين ويمارس التأليف.

لقد انخرط فروم في العمل من أجل السّلام وكان من المؤسسين لجمعية SANE، وهي أهم حركة سلام أمريكيّة، التي كانت إلى جانب كفاحها ضد التّسلح الذرّي ضد الحرب في فيتنام أيضاً. في الخمسين انتسب إلى الحزب الاشتراكي، لكنه لاحقاً انسحب منه، لأن الحزب لم يجد فيه عضواً راديكالياً. لقد وضع القواعد الأساسيّة من أجل بناء نظرية التحليل النفسيّ في النظرية الاجتماعية الماركسية، والتي تنسجم مع نظريته المعدّلة ـ اجتماعيّاً وإنسانياً ـ لنظرّية «فرويد». لقد نشر في حفلة أقامها حول الاشتراكيّة من أجل الإنسانيّة محاضرات ذات قاعدة واسعة عالميّة، وهكذا يكون قد ضحّى من أجل معالجة هذه القضايا السياسيّة، ما لم يفعله غيره من الرفاق. إن كتابه، «ثورة الأمل» هو رسالة نضال كان قد أطلقها، وفي الوقت ذاته دعم «أويغين ماك كارتي» إلى الرئاسة، كما كان دعمه لمنصب «السناتور». لقد كان الرجل صديقاً للشعّر والفلسفة، بغضّ النظر عن اتجاهاته، وقد رآه فروم في موقع القادر على إيقاظ الأمل في الشعب. لقد

كان لفروم وهذا ما لا يحدث يوميّاً في العمل الأكاديمي ـ موقفه المتسامح في كل شيء ـ فيما يفكّر ويقول ويعمل، وبدلاً من أفكار ملتهبة في صدره، نجد لديه الجديد المريح اللطيف. لديه صفاء تجاه الآخرين. هو في نشاط وحيوية تجاه الآخرين. إنه يبتعد عن أمر العقائد، عن ذوي العقائد، وذوي المواقف الدّينيّة الجامدة. في العقيدة العبرية الروحانيات ونسيمات الرياح يعنيان نفس الشيء. هذا هو «فروم» لا ثوابت عنده جامدة، لا أصدقاء، لا أعداء، لا هو بالمكافح ولا بالمنافح، إنه حيادي تماماً.

سيد فروم: هل تسمحون لي أن أطلب منكم شيئاً، أن تتحدثوا عن أنفسكم؟ إني أقرأ في وجوهكم ملامح الذكاء، ماذا عن المؤثرات والمؤشرات في مرحلة الطفولة التي صبغت مسيرة حياتكم؟

فروم: قد أستطيع أن أشير إلى بعضها، مما يبدو لي مهمّاً. لقد كنت طفلاً لأبوين جبانين جداً، وهذا بالطّبع لم يجعل تطوّري إيجابيّاً، ولكني مع الوقت حاولت أن أجعل تلك الأضرار محدودة التأثير وأصلح ما أستطيع.

من جهة أخرى، مما ساعد على تحسين تطوري بشكل إيجابي، وكان فعالاً، جذوري العائلية. أنا من عائلة ـ يهودّية أرثوذكسية متعصّبة دينياً، وكان منها رجالات دين، وقد نشأت في تزمّت تلك التّقاليد، هذا يعني، في تقاليد ما قبل المواطنيّة، وقبل الرأسمالية، لنقل عشنا أخلاقيّات القرون الوسطى، أكثر ممّا في العصر الحديث. كنا نعيش كأننا في الماضي أكثر منا في واقع الحياة الحاليّة ـ أي حياة القرن العشرين. طبعاً ذهبت إلى المدرسة

الألمانية في المرحلة الابتدائية والمرحلة المتوسطة والثانوية، درست في الجامعة، لقد شاركت بقوة في النشاطات الحضاريّة للشعب الألماني.

مشاعر الحياة عندي لم تكن عاديّة لإنسان عصريّ، لكن لمن هو قبل العصري. وقد نتج هذا عن دراستي للتّلمود. كما أني درست بشكل مكثف الإنجيل، وكذلك سمعت الكثير من القصص عن أسلافي الذين عاشوا في حياة وجدت قبل وجود الأوطان. أتذكر قصة من التّاريخ خطرت لي الآن: كان جدّ والدي تلمودّياً كبيراً، لكن لم يكن يوماً رابينا... كان عنده مخزن صغير في منطقة بافاريا (جنوب ألمانيا) وكان يجني منه قليلاً من المال. في أحد الأيام جاءه عرض: أن يسافر في عمل إذا أراد، ويجني لقاء ذلك أجراً جيّداً. كان عنده أطفال كثر وهؤلاء يجعلون الحياة صعبة. حينها قالت جدتي: ألا ترى أن تفكّر في الأمر وتنتهز هذه الفرصة؟ ما عليك إلا أن تغادر ثلاثة أيام في الشّهر، ومقابل ذلك يتوفّر لك مال أكثر؟ أجابها الزوج: هل تعنين حقاً أن أعمل ذلك، وأن أضيّع ثلاثة أيام في الشهر بعيداً عن دراسة التّلمود؟ وتابع: لا والله، كلاّ، كيف تفكّرين في ذلك! هذا لا يصحّ ولا يعنّ في البال. وهكذا كان يجلس اليوم بكامله في المتجر يقرأ التلمود. وقد أتى يوماً أحد الزبائن، فانفجر غضباً في وجهه وقال: ألا يوجد متجر آخر؟ هكذا كانت الحياة أيضاً، وهكذا كانت الحقيقة. لقد كانت بالنسبة لي شيئاً يثير العجب.

شولتس: وكم طالت المدة؟

فروم: حتى هذا اليوم... أتذكر وأني كنت في العاشرة أو الثانية عشرة من العمر، عندما قال أحدهم إنه تاجر أو رجل أعمال، وهنا شعرت

بالإحراج وفكرت: يا ألله! كم على هذا الإنسان أن يشعر بالذنب والخوف، وهو يعترف أن كل همه في الحياة هو جمع المال؟ أهذه كانت كل اهتماماته! أثناء تلك الفترة تعلمت أن ذلك كان هو الشيء الطبيعي تماماً، لكني لازلت مستغرباً! وهكذا تراني كما كنت سابقاً أعيش اليوم غريباً في مفهوم عالم (حضارة العمل وحضارة الحياة الاجتماعية). هذه الغربة هي ينبوع غزير، حيث أصبحت مواقفي تجاه الحياة الاجتماعية وتجاه الرأسمالية جد حسّاسة، وبسببها أصبحت اشتراكيّاً. هذا المجتمع وهذه الرّغبات لا أراها تتناسب مع متطلّبات الحياة ومع مراميها. لكن هذا لم يكن القرار العظيم والحكيم والفصل. أشعر أنّه لا يزال غريباً وأستغرب شخصيّاً كيف يكون ذلك ممكناً!

شولتس: لكن رغم ذلك فإنّ خبرةً مغايرةً قد تشكلّت لديكم تقريباً، حيث تبدوالعصرية بجلاء في حياتكم وواقع نشاطاتكم، بل إنها من حيث الأخطار أو اكتشاف الآمال فيها، تمثّل حضوراً متميّزاً.

فروم: يمكن أن أعطي لذلك جواباً بسيطاً: إن ما جذبني لهذه الحياة كان مجموعة عناصر وهي: «سبينوزا، ماركس، باخوفن». من خلال هؤلاء وجدتني في بيتي. بذلك وجدت تكويني بين ما كنت حياً فيه في الماضي وبين ما أحبه الآن في هذه الحياة. هذه المكّونات للحياة الجديدة، التي لها جذورها في الحياة السّالفة، كلها قريبة مني، لذلك لم أجد نقيضاً. هذه هي الحياة التي أعرفها الآن، والتي أريدها. وهكذا صرت ذلك الطّالب المكوّن من كل المعطيات التي مرّ ذكرها.

شولتس: هل كان ذلك في زمن الدراسة أو قبله؟ ومتى التقت أو تقاطعت هاتان الحياتان عندكم؟

فروم: في الفترة التي كانت بالنّسبة لتطوّر حياتي حاسمةً: إنها الحرب العالميّة الأولى. لقد قلتم ذلك للتو. كنت في الرابعة عشرة من العمر عندما اندلعت الحرب. حينها كنت لا أزال صبياً كبقية زملائي، ولا أفهم معنى الحرب، لكن بعدها بدأت أتفحص وأفهم. ثم اشتعل السؤال داخلي، والذي مازال حتى اليوم يلاحقني، أو هو إذا لم يلاحقني، فإنني ألاحقه: كيف يكون ذلك ممكناً؟ الأهداف لعدة أسباب هي غير معقولة، حتى من وجهة نظر سياسية، من أجلها لا يوجد إنسان يمكن أن يعترف بأن عليه أن يدفع حياته من أجل أن مليوناً من البشر يقتلون مليوناً، وأن يعيش الناس أربع سنوات من الجحيم في أوضاع لا إنسانية، وفي النهاية تكون الخاتمة الرهيبة! كيف تكون الحرب ممكنة سياسيّاً؟ وكيف هي ممكنة نفسيّاً؟ ماذا يدفع الناس لقاء ذلك؟ هذا السؤال كان في تلك الأيام يغلي في داخلي. كان السّؤال المركزيّ جداً. إن ما أشعل تفكيري ولا يزال حتّى اليوم هو أن أصولي متجذرة في القدم قبل أن يتكون المجتمع والحرب اللذان كوّنا الخبرات الأكثر بروزاً وصبغا تفكيري ومشاعري.

شولتس: أية دروس أدت دورها في قناعاتكم؟ ولا أعني بذلك الآن تلك الكتب ذات العلاقة بمهنتكم وتربيتكم، لكن أقصد أيضاً ما يختص بوجودكم الشخصي.

فروم: لقد حاولت شخصيّاً أن أفكر بالأمر. ثمة حقاً عدة كتب رسمت طريق حياتي، وكنت متحمساً لها جداً. وأعتقد جازماً، لو قدرّ لي هنا أن

أضع ملاحظة أساسيّة، والتي يجب هكذا أن تكون، لقلت بأنّه يوجد كتب يمكن أن تحدد حياتنا. إن الكثير من الكتب التي نقرأ ليس لها تأثير ولا معنى... وهي إمّا أن تكون علمية أو لا معنى لها. على كل شخص أن يسأل نفسه: هل يوجد كتاب واحد، أو اثنان أو ثلاثة كتب... كان لها معانٍ هامة في تطوره؟

شولتس: يوجد كلمة للكاتب «فلاوبرت» إذا سمحتم لي بعرضها: «أنا لا أقرأ لأتعلم، لكن أقرأ لأعيش».

فروم: تماماً! إنها كلمة جميلة. أنا لا أعرفها. لكنها تلتقي تماماً مع ما أريد قوله. لكنّ كتباً قليلة تستطيع أن يكون لها هذا التأثير. من المؤكد أن كل كتاب جيّد له تأثير جيد. كذلك فإن كل مناقشة جديّة أو مقابلة جدّية يكون لها آثار جيّدة. لا يتكلم المرء عادة مع الآخر إن لم يكن أحدهما أو كلاهما قد حدث له شيء، أو، دعني أقلْ... أو أن تغيّراً ما طرأ لأحدهما أو لكليهما. وقد يكون ما حدث له مواصفات محدودة، بحيث يصعب وصفها. لكن هذا يعود بنا ثانية إلى النقطة التي كنتم تحدثتم عنها سابقاً: يتحدث شخصان مع بعضهما، وفي النهاية لا يغيّر أحد من موقفه شيئاً، كما كان كلّ منهما في البداية فهو في النهاية، وكأنّهما لم يتحدثا، وهذا كلّ شيء، ما فعلاه لم يكن أكثر من تبادل كلمات أو أفكار. هذا أيضاً ما قد يحدث بالنسبة للكتب. ففي حياتي ثمة ثلاثة، أربعة أو خمسة كتب، بدونها لست شيئاً، مثلما أنا ما كنت سأكون لولاها... لا أدري.

بل إنني أجزم أنّ الكتب هي «الرسل» هكذا أعرفها، ولا أقول تلك الوصية القديمة عندما التي قرأت كتب الحروب حول احتلال بلاد كنعان، ولم أشعر بالخجل كما يحدث لي اليوم. أنا لم أحبها، أنا لم أحبها يوماً ولم أرض عمًّا حدث، ونادراً ما قرأتها أكثر من مرّة واحدة أو مرتين، لكنّ الكتب النبّوية والمزامير، قبل كل شيء، الكتب النبوية، كانت ولا تزال بالنسبة لي مصادر ضرورية لحياتي.

شولتس: ألن تقوموا بنشرها والتعليق عليها؟

فروم: لقد كتبت كتاباً عنوانه: (أنتم ستكونون كما الإله. تفسير الترانيم اليهودية GAVI،1966)، وفيه حاولت توضيح الترانيم، توضيح الفرق بين تلك التي تمثّل الانفعالات الدّاخلية، في تحولها من الأحزان إلى المسرّات، وتلك الأخرى التي تبقى ثابتة في نغماتها، التي تبقى هكذا بطريقة معينة ـ ليس دائماً ـ ثابتة تقريباً بالحد الأدنى، ما دام أنه لا يوجد فيها انفعالات داخلية، أي لا يوجد فيها مشاعر داخلية متحركة. كما توجد ترانيم يمكن للمرء فقط أن يفهمها، عندما يلاحظ كيف أن الشخص بدأ في حالة الشك. ثم يتجاوز حالة الشك هذه، لكنه مع ذلك قد يعود إليها ثانية. ثم يتجاوزها، وقد تعود إليه مرة أخرى، وهكذا إلى أن يبلغ الشك حضيض الدرجات الدنيا، أي إلى الأشد حدة، حيث يبرز فجأة وبأعجوبة تحوّل غريب إلى حالةٍ من السعادة والنشوة الإيمانيّة الدينية الكبيرة.

كمثال جيد: المزمور 22، الذي يبدأ بـ: يا إلهي، يا إلهي، لماذا تركتني؟ إنها قضية قديمة، بسببها قال المسيح ـ عند موته ـ كلمات الشّكّ

هذه. وأنا عندما كنت صغيراً تساءلت: أليست حالة الشّكّ هذه تقف متناقضةً مع حالة الموت الطبيعية، أي بما يتلاءم مع العقيدة؟ والآن أرى حقاً أنْ ليس هناك من تناقض، حيث أني في هذا الكتاب قد أوضحت الأمور بالتفصيل. إنّ الطريقة الدينيّة اليهودية، أي قراءة المزمور، لا تتم كما في الديانة المسيحية، من خلال التلميح إلى رقم المزمور، لكن يعود المصلي إلى كل المزمور بإعادة الجملة الأولى أو الكلمات الأولى. إن ما توضحه الإفانجيلية (البروتستانية أو اللوثرية أو المسيحية الجديدة في أمريكا ـ م.) هو التالي: قرأ السيد المسيح المزمور 22. هذا المزمور يبدأ بالشك الروحي، لكنه ينتهي بترنيمة الأمل. ومن ثم ـ وهذا لا يوجد في أي مزمور آخر ـ يرتل دعاء الأمل المقدس العالمي للمسيحية الأولى. هذا يساء فهمه عندما لا يرى المرء هذا التحويل، وعندما يعتقد أن يسوع المسيح قد تفوه فقط بالجملة الأولى من ترنيمة المزمور، لاحقاً قام الإيفانجيليون بتغيير نص بداية المزمور، لأنه أدّى إلى سوء فهم. والآن بالفعل قد تجاوز الأمر كل المقاييس. لكن ليس عندنا بالحقيقة برنامج، وهذا جيد، هذا هو أحد المصادر بالفعل، عندما أقرأ اليوم الأنبياء، يكونون لي بمنتهى الجدّة والحيويّة، تماماً كما كان الأمر منذ خمسين عاماً، وقبل هذا التاريخ ربما كان الأمر أكثر جدة وأكثر حيوية.

المؤثر الثاني الذي أتى لاحقاً كان من «ماركس». لقدْ جذبني إليه بشكل أساسي فلسفته وتصوره حول الاشتراكية، وقد صاغها في قالبٍ مدنيّ مبّسط يهدف إلى بناء الإنسان نفسه بنفسه، وبطريقة إنسانيّة ومن قبل الإنسان

ذاته ومن أجل الإنسان. ولم يعد الهدف الأساسي له الملكيّة، ولا الموت، ولا الاكتناز والحيازة. إنّما الهدف هو وجوده واستقلاله في الحياة. تلك كانت نظريّة ماركس في مؤلّفاته عن الاشتراكية عام 1914. عندما تقرؤون هذه التّعاليم ولا تدرون أن مؤلفها هو «كارل ماركس» ولا تعرفون «ماركس» بشكل جيّد، فلن تقدروه حقّ قدْره، كما أن النصّ قد لا يكون للسيد «ماركس»، من ناحية بسبب جماعة الستالينية، ولأن أكثر الاشتراكيّين، من ناحية أخرى، قد خربوا صورة «ماركس» إلى حد كبير، لكأنه وضع نصب عينيه التّغيير الاقتصادي فقط. في الحقيقة أنّ التّغير الاقتصاديّ كان يراد منه أن يكون وسيلة التّغيير الكامل. لقد كان هدف «ماركس» هو التّغيير الحاسم في تحرير الإنسان كما يقتضي المفهوم الإنساني. عندما تأخذون فلسفة «غوته» وفلسفة «ماركس» ستجدون التّشابه بينهما بشكل مثير للدّهشة. إن «ماركس» يقف بنظريّته في الحقل الإنسانيّ وأيضاً ـ كما أعتقد ـ في الحقل النبويّ. عندما تقرؤون خطابات أشجع المفكّرين وأكثرهم تطرفاً، وهو «مايستر اكهارتس»، سوف تكتشفون التّشابه الكبير والمثير للعجب له مع «ماركس»

شولتس: علينا أن نحمي «ماركس»، والكثيرين من زملائه في الكثير من المقاطعات من التّابعين لهم، لكن أين يحدث هذا؟ أين توجد محاولات هذه الأيّام ـ في الجامعات أو في أماكن أخرى ـ كتّاب مثل «ماركس» وعلى نطاق أوسع من مثل «فرويد» أو «بلوخ» أو «برشت» ذوي عبقريات خلاّقة،

والذين يتناقش العالم حولهم ـ من أجل حمايتهم ضد التهميش؟ أين يحدث ذلك؟

فروم: يوجد هذه الأيّام القليل جداً من الماركسيّين، الذين لا يفسّرون كيف أن «ماركس» قد انحاز تماماً إلى اليمين أو إلى اليسار.

شولتس: إنهم يتّخذونه برهاناً على صحّة مواقفهم.

فروم: نعم، تماماً، إنهم يتخذونه قناعاً لتوجّهاتهم الخاصّة ـ ليس فقط لتوجّهاتهم الخاصة بهم، ولكن في السّياسة، العمل، حيث غالباً ما كان «ماركس» يناقض ذلك بما فكّر وأراد. أكان ذلك في عرف الرأسمالية الحاليّة للدولة الرّوسيّة أم في عرف الرأسمالية الغربية الحرّة. أنا أعني أكثريّة النظريّات الديمقراطية الاشتراكيّة، وبقدر ما هم يستندون على «ماركس» فإنهم يزوّرونه حقاً. إن عدد الناس الذين يفهمونه قليل جداً يُظهر أنّ ذلك صحيح بالقياس، عندما أقول بشكل تقريبي. الكل عندهم الحق إلا أنا، وقلّة آخرين، وهؤلاء لا أعنيهم بالطّبع. يخيّل إلي أن غالبيّة من يعرفون «ماركس» يتجاهلون أن أفكاره في أساسها «ديني»، ولا أعني بذلك الإيمان بالله. من منطلق هذا المفهوم فإن البوذّية ليست ديناً، لأن البوذيين ليس عندهم إله. لكن الدّين بذاته هو في الموقف، وعليه يتوقّف كل ما يأتي لاحقاً. يُعرف الإنسان في نرجسيته، أنانيته، انطوائيّته إن شاء أو انفتاحها، بحيث أنّه ـ كما قال «مايستر آكهارت» يجعل من نفسه كائناً فارغاً، من أجل أن يجعلها ملآنة، من أجل أن يستطيع أكثر مما يستطيع، من أجل أن يكون كاملاً. بكلمات أخرى، هذا هو المبدأ الفاصل عند ماركس.

لقد أسعدني مراراً أن اقرأ على أناس مختلفي المشارب محاضرات كنت كتبتها عام 1944 عن «ماركس» حول فلسفته الاقتصادية... أتذكر محادثة كنت أجريتها مع دكتور «سوزوكي» ـ واحد من أشهر رجالات الدّيانة البوذّية ـ إذ كنت قرأت عليه بدون أن أقول من هو المؤلف، ثم سألته: هل تعتقد أن الزعيم البوذي «تسن» هو المؤلف؟ وأجاب بالطبع هو «تسن»... أو أنّي قرأت على مجموعة من المثقفيّن الدينيّين نتفاً صغيرة من نصوص عدّة، على سبيل المثال من «توماس فون أكوين» أو من ذوي آراء دينيّة عصرّية. لكن ما كان من «ماركس» لم يعرّج عليه أحد. إنهم لا يعرفون «ماركس». ثمة الكثير من الدّارسين المتمحّصين الماركسيّين الذين يرون بوضوح، مثل «إرنست بلوخ»، أو باحث آخر ضد الماركسية من أمثال الكاثوليكي الباحث «إيفيز كالفيز». إن أعدادهم ليست قليلة، لكن تأثيرهم، بالمقارنة مع تأثير الفئة الماركسية المسيطرة، يعتبر حتّى الآن ضعيفاً، فيما عدا لدى أوساط اللاهوتيّين.

ثمة مصدر آخر مهم جداً هو لكاتب لم يعد معروفاً، للأسف البالغ، وأعني هنا «يوحان جاكوب باخوفن» مكتشف مجتمع الأمومة. فقبل /110/ سنوات كتب عمله الكبير الذي تُرجم منذ خمس سنوات إلى الإنكليزيّة، ولم تكتمل الترجمة بعد، لقد اكتشف «باخوفن» أنه قبل الحكم الأبّوي المستبّد ساد مجتمع الأمومة. هو لم يزعم ذلك وحسب، وإنما أوضح أين يكمن الفرق بين الحكم الأبوي والحكم الأموميّ. وباختصار، فإن النّظام الأمومي للحكم يفترض دوماً المحبة الإنسانيّة. الأم تحب أطفالها بدون النظر إلى من يستحق ذلك منهم، إنها تحبهم لأنهم

أولادها. في الحقيقة لو أن الأمّ لا تحب أطفالها إلا لكونهم يبتسمون وأنهم لطفاء، لكان ذلك سبباً في أن يجوعوا. أما الأب ـ باختصار ـ فيحب الأطفال لأنهم يطيعونه، ولأنّهم يشبهونه. أنا هنا لا أعني أبداً أيّة أم ولا أيّ أب. إنني هنا أتكلم عن طبقةٍ معيّنة من الآباء والأمّهات. هذا يعني أنّهم من طبقات معيّنة مميزة، كما برهنت عن نفسها خلال التاريخ بالمحبة لدى الآباء والأمّهات، فالناس في الدّنيا مزيج متشابك، فتجد الكثير من الآباء يحملون حبّ الأمّهات والكثير من الأمّهات يحملن حبّ الآباء.

إنّ للاختلاف علاقة وثيقة في نظامي الحكم البطريركي والحكم المادي. إنّ أجمل ما يمكن قراءته حول هذا الموضوع هو ما كتبته «أنتيغوني»: إنّ النظام الأمومي عندها: «أنا لست للبغضاء، بل للحبّ، نعم أنا موجودة»، وعند «كريون» نظام الحق الأبويّ (سوف نقول عنه ـ مع ذلك ـ إنّه فاشي) أي نظام سيطرة قوانين الدّولة وبوضوح لا لبس فيه، هو فوق كلّ المعطيات الإنسانيّة.

لقد كان اكتشاف «باخوفن» بالنّسبة لي هو المفتاح، ليس فقط لفهم التاريخ، ليس فقط من أجل مقارنة وفهم ـ قبل كل شيء ـ مجتمعنا البطريركي الاستبدادي مع نظام ذي إمكانيات مشروطة بالحب. لكن أيضاً لكي أتفهم أن المشكلة المركزيّة صارت ضمن التطور الطبيعيّ للمجتمع... فأي معنىً لشوق عاطفي، إلى محبة الأم لدى النّاس، لدى المرأة وكذلك لدى الرجل؟ ما هو الرباط مع الأمّ؟ ماذا تعني الأمّ عموماً؟ وما هي طبيعة عقدة «أوديب»؟ هل مرّد ذلك الغريزة الجنسيّة؟ أنا لا أعتقد ذلك. يتعلق

الأمر بلا شك بما هو لدى الإنسان، وبالتّحديد الشوق إلى شكل مميّز جداً إلى «الآلهة»، التي تتحمل عن النّاس المسؤولية، ومخاطر الحياة، ومن ذلك الخوف أمام الموت، والذي يمكن أن يبعد الجنّة، ومن أجلها قد يدفع الإنسان الثمن بسبب تعلقّه بالأم، وبالنتّيجة لا يحقق استقلاله الشخصي. إنها مشاكل كثيرة هامة، وهكذا فإن «باخوفن» قد أصبح بالنسبة لي في بداية السنوات العشرين هاماً بشكل حاسم.

ثم جاءت العقيدة البوذّية لتكون ذات التأثير الفعّال. علمني بوذا أن أرى أنّ هناك موقفاً دينيّاً، لا حاجة معه للإله. كان الحدث الأعظم في حياتي إذ عرفت البوذية عام 1926، هو إعجابي بها، كان ولا زال ذلك حتى اليوم قائماً، وقد تعمق لاحقاً من خلال دراسة البوذية، وقبل كلّ شيء مع دكتور «سوزوكي» وكذلك من خلال المراجع والمحاضرات.

من لم أذكره حتى الآن هو «سيغموند فرويد». لقد غدا بالنّسبة لي في ذلك الوقت مهماً جداً وهو لا زال كذلك حتّى اليوم. أؤكد وأقول: هذه المؤثّرات: «الديانة اليهودية، ماركس، حق الأم، البوذيّة، فرويد...» جميعها كان لها الأثر الحاسم ـ ليس فقط على تفكيري ولكن على كل مجرى حياتي، لأنّي لم أمتلك القدرة يوماً ولا أمتلكها الآن أيضاً، لأنّي ما ملكت يوماً القدرة ولم أملكها بعد، من أجل التّفكير بالأشياء التي لا أستطيع أن أعيشها. إنّه ليصعب عليّ التفكير التّجريديّ، إنني أفكر بما هو واقعي ويمكنني إدراكه شخصياً، وإذا لم يحدث هذا فليس عندي الرّغبة به ولا القدرة عليه.

شولتس: دعْني أقلْ: بما أنّكم تعرفون «ماركس» بشكل جيّد. فإنّكم لن تكونوا ذلك النموذج «الماركسي» المتغيّر. وهذا يمكن قوله بالنسبة للعلاقة مع «فرويد»، إنكم ـ وهذا ما يمكن التّعبير عنه ـ تنطلقون من «فرويد» وهذا يعني بالضّبط: أنتم تغادرونه. إنكّم تتجاوزونه. إنكم تتقدّمونه خطوة إلى الأمام، وهذا ما يميّزكم عن الكثيرين من «الفرويديين»، بل أنتم بالنسبة لهم ـ كما أرى ـ تمثّلون حالة خاصة.

فروم: إنّني دوماً من القلّة. وعند «باخوفن» أنا أيضاً من القلّة، لأنّ أولئك المتأثرين به، هم في كل الأحوال، يمثّلون قلّة. إنّهم نسبيّاً قلّة من البشر. وبالنسبة لـ «فرويد» فأنا من القلّة أيضاً. إنّني واحدٌ من أتباع «فرويد» الصامدين، في معهد برلين تربيّت، واعتنقت بالتالي مبادئ «فرويد» ونظريّته حول الجنس. وفي هذا السياق كنت دوماً طالباً جيّداً يؤمن بما يقوله أساتذته، إلى أن تمكّنت من معرفة الأشياء. لم أبدأ بالمعارضة قبل أن أعرف القليل، كما هي اليوم الموضة، وهذا ما لم يكن سابقاً، وبالنسبة لي لم يكن البتّة كذلك. هكذا درست باجتهاد وتركيز كبيرين. كان الضّغط كبيراً لأنّي كنت أعتقد بصحّة ما درسته. لكن بعد عدّة سنوات بدأ الشك يتسرب إليّ. لقد بدأت أبصر أكثر فأكثر حتّى أصبحت ذاك الذي لا يجد ما يريده من مواد لمرضاه، وكان يعتقد أنّه يجب أن يجدها، ولا يسعه أكثر من التّوضيح لما يراه. لقد رأيت أكثر من ذلك، لقد رأيت أني بالنسبة للمريض ولمشاكل المريض، لم أستطع أن أعالجه من خلال النّظريّة الفرويدية. والآن لا أريد أن أتكلم عن نظريّة

«فرويد»، إنّها أشياء معقّدة، لكن هناك ما يدعو دوماً من داخل هذه النّظريّة باتجاه عقدة أوديب للتحدّث عنها، حول الخوف من عمليّة الإخصاء. وعلى كلٍّ ما له علاقة بالحياة الجنسيّة، ومع التخوّفات التّي ترجع إليها وتتكون بسببها.

لقد لاحظت أن ما لدّي الآن لا يعني الكثير للإنسان الذي أتعامل معه. حدث شيء ما لم يكن مقبولاً أو مريحاً، لقد شعرت بالملل. لقد جلست هناك وقمت تطبيق كل ما تعلّمته، لم أنم (كما قال أحد أساتذتي بأنّ ذلك لم يكن أبداً الأسوأ)، لأنّه لو نام أو سها وهو يجري التّحليل، لكان من الممكن أن يرى حلماً ويتكوّن عنده ما هو أكثر من الفهم تجاه المريض، أكثر مما هو كان قد تعلّم، بمعنى أنه هكذا تتكوّن الأفكار العقلانيّة.

لقد لاحظت أنّي صرت متعباً بعد السّاعات الطوال (ست، سبع، ثماني) الساعات التي كنت كافحت فيها. وتساءلت، لماذا أنت لهذه الدرجة تعبٌ؟ لماذا أنت ضجر؟ ومع الوقت لاحظت أن شيئاً ما في داخلي يتحرّك وكأنّي لا أتعامل مع الحياة، بل كأني، بشكل أساسي، أتعامل مع أشياء مثاليّة، كما لو أنها أشكال بدائية من التجارب التي كانت قد حدثت أيام الطفولة.

بهذا توصّلت لاحقاً أكثر وأكثر إلى ذاك الذي ظهر لي والأكثر وضوحاً، وبالتحديد حول علاقة النّاس فيما بينهم، أي حول المعاناة الإنسانيّة لهم، والتي لا تفسر أساساً من منطلق غريزي، ولكن من وجود الإنسان كإنسان،

وهنا بدأت أرى، نعم، هنا استطعت أن أفهم، كما أنّ الشخص الذي أعالجه استطاع أن يفهم، ماذا أقول. لقد شعر هو أيضاً: نعم، نعم، هكذا هو الأمر! عندئذٍ شعرت بأنّني لم أعد تعباً، والتحليل أصبح أكثر حيّويّة. لقد فكّرت مراراً أن المريض نفسه عندما لا يشعر بفائدته من العلاج ـ وهذا للأسف ما يحدث أحياناً ـ فإن ساعات العلاج تصير بالنسبة له الأكثر إثارة وتحريضاً من كل ما مرّ به في حياته. وهو بذلك يصبح أكثر حيويّة. وإذ تراني أصبحت ـ رغم ذلك ـ تعباً، فقد سألت المريض: قولوا لي مرة، ماذا يحدث هنا يا ترى؟ أنا لم أكن هكذا تعباً، عندما جئتني، والآن أنا تعب بشكل مخيف. هل يعود هذا لما كنت ذكرته؟ أو لنقل: ماذا فعلت أنا، بحيث أن الأمور يمكن أن تصبح هكذا مملّة؟ هكذا أصبحت فعلاً ساعة التحليل الناجحة هذه موضع تقدير، هكذا تصير الساعة بمجملها تصير ممتعة ومهمّة، ليس لكونها ذات صيغة موفّقة رائعة، لكنّها مهمّة لأنّ كلا الشخصين قد تحدثا قليلاً بصدق حول شيء واحد تقريباً.

شولتس: تبادل وتناقل المعلومات، والأحاسيس التي ذكرت الكثير منها: التعاليم من «ماركس، باخوفن، فرويد والبوذية»، تقف من ناحية جنباً إلى جنب متكاملةً. ومن ناحية أخرى تقف متباعدةً بحيث أن الإنسان يكون حيالها مستغرباً أنها أمامه، إنها تشكل موزاييكا غريباً، أو كما قال بعض الأصدقاء: نظريّة خلاّفة تركيبيّة.

فروم: نعم أعتقد ذلك. إنّ الأعمق في تفكيري ومشاعري، كان الاهتمام كثيراً بآلام ومعاناة البشر وبما لدى المرضى من أحاسيس، وهذه التيّارات

بمصادرها المختلفة هي في العموم بمجموعها ـ فيما عدا البوذية ـ متنوعة جداً بمقاييس الحضارة الأوروبيّة، لكن من خلال تنّوعها واختلافاتها تخدم الحضارة الأوروبيّة. كما أريد أن أشير إلى أنّ هذه التيّارات تعبّر عن وجهات نظر الاختلاف الأساسية في المواقف والآراء، وبالنسبة لي يوجد كاتبان. أحب أن أقرأ لهما: «إكهارت» و «ماركس». غالبية الناس سيقولون: إنه الغباء بعينه. وأنا الآن لم أعد أصدقهم. لكن مع ذلك فإن التطرف عند «إكهارت» والفلسفة عند «كارل ماركس» قد التقيا بالعمق سويّة. لقد اخترقا القشور إلى الأعماق. وكما قال «إكهارت»: إن الجذور هي التي توضحُ سرّ تطوير الأشياء. من الممكن أن تكون ضدّ هذا المبدأ بالنّسبة لماركس أو بالنسبة «لفرويد». لقد عوّدنا أنفسنا أن نأخذ مؤلفين مع مؤلفاتهم ونخلط الجميع مع بعض، نسحب منها صفحة واحدة ـ من هذا أو من ذاك، أي ليس المهم أن نأخذ الصفحات جميعاً ونتفحصها. على العكس أحببت أن أجرب السّمات المميّزة التي تم فصل بعضها عن بعض، لكنّها تلك التي تعتمد الأفكار الأوروبيّة. من أجل ربطها هكذا حيّة مع بعضها وأن تظهر أكثر تناغماً، وهذا يعد النبض الفعّال والمحتوى لذاك الذي قضيت الأربعين سنة الأخيرة من حياتي منشغلاً فيه.

شولتس: إنني أودّ ـ إذا سمحتم ـ أن أقطع حبل الحديث الآن، وأسألكم فجأة، أنتم وأولئك الذين يستمعون إلينا ـ أن تتكرموا علينا بلحظة ممتعة ومفيدة... أنا أعرف يا سيد فروم أنكم تحبّون الموسيقى كثيراً، وتدعون أصدقاءكم ـ مثلي ـ إلى التمتع معكم في هذه الهواية. إنكم لا تعدون

أنفسكم خبراء محنكيّن ـ كما زميلكم من فرانكفورت «تيودور ف ـ أدورنو»، وحسب، لكن كأحد هواة الموسيقى. هل هناك موسيقى تحبونها وأخرى لا تحبونها؟

فروم: فيما يخص التذوق الموسيقي يمكن أن تعتبرني «موضة قديمة». بالنسبة لي فإن الموسيقى لا تعنيني منطلق المعرفة بل من منطلق المتعة بالموسيقى. سماع الموسيقى هو المهمّ. من الصعب عليّ أن أفكر أنني أعيش في مكان لا أسمع فيه موسيقى.

شولتس: لقد رأيت مجموعة الاسطوانات لديكم ووجدت الكثير من «باروك»، «موتسارت»، وقبل كل شيء معزوفات النّفخ والفيولين من «بتهوفن»، لكنك كنت أخبرتني أنه كان لديكم حب خاص لمعزوفة الآلة (فيولينشلو ـ منفرد) للموسيقار «باخ»، يعزفها بابلوكاسالس، الذي اكتشفها وكان صغيراً وتدرّب عليها اثنتي عشرة سنة، قبل أن تكون لديه الشجاعة الكافية كي يعزفها أمام الجمهور، إنها المعزوفة الخماسيّة المشهورة برائعة «باخ» لقد جلبت معي خمسة ألحان (أوركستراليّة)، ونحبّ أن نستمع إليها بضع دقائق. إضافة لذلك، دعوني على حاشية الحديث أن أعلّق سريعاً: لقد رأيت حديثاً مقابلة تلفزيونية مع السيد «كاسالس» قبل وفاته وقد سئل: ماذا كان سيقول لو أنه ـ فجأة ـ كانت لديه الفرصة، أن يتوجه بكلمة للعالم؟

لقد كان جوابه: «كنت سأقول للبشر: لو قدر لكم أن تتمنوا، فتمنوا جميعاً المزيد من السلام وليس الحرب. والمزيد من الحياة وليس الموت،

والمزيد من النور وليس الظلام». وأنا عندها سأوضح لكم ذلك كاملاً، وما أعنيه بالتحديد ليس عزفاً لألحان وجدانيّة وإنما سأقدم لكم معزوفة «نشوة الحياة» للموسيقار «باخ»

بعد (الموسيقى)

شولتس: سيد فروم، لقد ألفتم كتابكم «تشريح التدمير الإنساني» في مدة خمس أو ست سنوات، وهو المنشور في أمريكا، والذي ترجم للألمانية بالعنوان المذكور والمقدر له أن ينشر [1973 a GAVII]، والكتاب يعالج المشاكل الإنسانية النّاجمة عن العدوانيّة. هذا الكتاب، لو أردنا تعريفاً له لقلنا إنه الكتاب المعاكس. إنه يتعرض إلى الكثير والكثير من التصورات الإنسانيّة حول العدوان. إنّه يشمل فصلاً سيحظى بكل تأكيد بالاهتمام الكبير لدينا، إنه فصل حول «هتلر»، عن أخلاقيات هتلر. كما يمكن هنا القول إنه الفصل المعاكس، لأنه يختلف بالأساس عن ذاك الذي يكتسب عندنا في الوقت الراهن اهتماماً بالغاً.

فروم: حاليّاً يوجد بعض عشاق «هتلر» وكتابات حميمة فيه، كان نشرها ضعيفاً محدوداً، نازيون قديمون قاموا بنشرها، الكتابان الرئيسيّان اللذان تم نشرهما في ألمانيا كانا من قبل (يوأخيم س. ج فست 1973 ومن قبل (فيرنر ماذن) 1971. في أمريكا نشر قبل ذلك كتاب من قبل (فالترشارلز ـ لانغر) 1972 وكان بحد ذاته تاريخاً مهماً. هذا العمل كان

بتكليف من المخابرات الأمريكية خلال الحرب من أجل الحصول على صورة خاصّة لوجه «هتلر». والكاتب محلل نفسيّ من اتجاه أرثوذوكسي متطرّف، حتى الآن كان الكتاب سراً، شأنه شأن الكثير من تقارير بقيت سرّية لم تنشر، لكنها في حقيقتها ليست سرّية، النّاشر في ذلك الحين لم تتيسّر له الإمكانيّات للقيام بالنشر. لقد حلل الكتاب شخصيّة هتلر من وجهة نظر «فرويد». كان هتلر مصاباً بعقدة أوديب، كان يعيش الحياة الجنسية لوالديه بالصوت والصورة وبالتفاصيل! هكذا كانت بعض مكونات هتلر، إنها بكل الأحوال بسيطة ساذجة وليست دقيقة، ويجب أن تكون متاحة للكثيرين من أجل أن توضح شخصية معقدة مثل تلك التي كانت «لهتلر».

ثمة تحليل جيد مميّز من الكاتب الفرنسي «جاك بروسّي» الذي لو لم يستعمل لغة وطنه في تحليله لكان الكتاب سيكون مفيداً، حيث كان يقدم هتلر بشكل جيد، لكن طالما كانت اللغة، وبالتالي المعطيات بلغة وطنية مبهمة، فقد جاءت الأفكار غير جليّة ومبهمة، والتي بدت معقدة وغريبة بحيث أنها لم تلق الاهتمام لتوضيحها وحتى التّلميح إليها، ولكن ـ بكل الأحوال ـ وفي حدود صحة المشاعر والفهم الإنساني الصحيح ـ وحيث لم يعمل بروسّي على استخدام طرق تحليلية نظريّة، يبقى كتابه في سياقه هو الأفضل المتاح من نوعه. إن تحليلاتي الخاصة تختلف عما نشر تاريخياً في ألمانيا من ناحية ومن ناحية، أخرى عما نشر حول محاولات التحليل الأخرى الخاصة بالسيّرة الذاتيّة والنفسيّة لهتلر. لقد كتبت عام 1941

كتابي «الخوف أمام الحرية». وهي تحليلات قصيرة عن هتلر لكن بدون إعطاء معلومات عن طفولته.

أما المحاولة الحالية، وهي موسعة أكثر وتستخدم معلومات جديدة متوفّرة، فهي تذهب بعيداً في البيان. في التحليلات الأولى أرى في هتلر بشكل رئيسي رجلاً يعاني من ظاهرة العذاب الجنسي ـ عقدة النقص الجنسي، وهذا يعني شخصاً (كما أرى) يعاني مرضاً نفسياً لا محدوداً للسيطرة على الآخرين ولتعنيفهم، وبنفس الوقت الاستعداد للخنوع. خلال تلك الفترة عملت على قاعدة دراسات طويلة وآراء أكثر نضجاً توصلت إليها، وذلك بأن آخذ في الحسبان عاملاً آخر بدا لي أكثر أهمية بالنسبة لحالة هتلر. إني أصنفه من عشاق الموت. وهذا من جهة أخرى مفهوم لا يستخدم إلا في حالة الانحرافات الجنسية. لكني هنا أطبق المثال الإسباني للفيلسوف «أونامونو»، الذي قال في خطاب له 1936 في سلامنكا حول ذلك: إن شعار الفلاشا «يحيا الموت» هو نفس شَعار جماعة عشاق الموت. لذلك أنا أفهم من مصطلح (عشاق الموتى). ما ليس بالجنس ولا بالمعنى النفسي، بل ذلك الذي يجذبه كل ما هو «ميت»، كل ما ليس بحيّ، ذلك الذي يركض باتجاه تقطيع الأوصال والروابط الحيّة، والانجذاب إلى كل ما هو آلي ميكانيكي، بعكس الحب النابض بالحياة، إن عاشق الموت ليس مصاباً بحب الموت، بل بحب الإماتة لكل ما هو حي. وعكس ذلك هو الحب للحياة. لكل شيء ينمو، يبني ذاته، يبني وحدة الذات، الذي لا يتفتت.

نعود إلى هتلر ثانية: كي يكون الإنسان صادقاً مع نفسه، لا يمكن له بشكل خاص أن يلوم الرجل. لقد بدأ الحرب التي أدت إلى فناء الملايين من الناس، ولقد فعل ذلك قادة ورجالات دول في الستة آلاف سنة الماضية، وأغلب الحروب كان تحت شعار الأخلاق والعقلانيّة، وبدعوى أن ذلك ضروري لأرض الآباء والأجداد، ولأسباب أخرى. أما أنه قد قضى على ناس بائسين وأماتهم، فهذا شيء مما قاله عدد من الجنرالات ورجالات دول كانوا يريدون الحروب ولكن لم يقوموا بها. إن النقطة الجديرة في تحليلي لشخصية «هتلر» تكمن في تقديري في أنها تشير إلى أنه كان شخصاً قد كره الإنسان في أعماقه. وعندما يقول أحد إن هتلر كره اليهود، فقد كان ذلك صحيحاً، ولكنه بنفس الوقت ليس صحيحاً، لأن هذه الجملة ضيقة جداً وقاصرة. نعم، لقد كره اليهود، ولكنه أيضاً كره الإلمان. ولأنه أضاع طموحه وآماله، فقد أراد أن تسحق ألمانيا وشعبها. لقد قال ذلك 1942 بصراحة، عندما رأى أنه سيخسر الحرب لا محالة: «إذا خسر الشعب الألماني الحرب فهو غير جدير بالحياة». إن هتلر هو أعظم مثل لذلك الإنسان عاشق الموت الذي كان خُلُقه وخُلُق أتباعه متضمناً في الشعار «عاش» حيث كان يختبئ خلفه.

كان لهتلر علامة كانت لدى البعض من أتباع هذه الفئة «عشاق الموت»، وأعني هوس الاستنشاق ـ مع أن هتلر لم يكن كريه رائحة الفم. هنا ترون أن كل ما هو حيّ ـ بالنسبة لهؤلاء ـ يمثل القذارة فيما عدا ما هو ميت؛ ولقد طوروا علاقة بين أشكال غير مستحبة ـ مشتركة فيما بينهم مثل الشم، وقد أشار (هانس فون هنتغ) إلى مجموعة من الظواهر من

أدبيات الجرائم هذه، وفيها يلاحظ المرء بعض السلوكيات تعيد نفسها، فعلى سبيل المثال عند البعض من هؤلاء ظاهرة مميزة حيث يلاحظ الرغبة في شم الروائح الكريهة، إنهم يجدون في روائح الأشياء العفنة الفاسدة روائح «مثيرة». وهذه الانحرافات لها ميسمها في ملامح الوجه، فتجدون في عشاق الموت، أن ملامح وجوههم جامدة، لا ردة فعل في الوجه، يبقى الشخص كما هو، لا ينفعل، بل هو جامد. بينما لدى الناس الطبيعيين، ترون أن وجوههم حيّة، نشطة، وتكون بهيجة عندما ما تشاهد مظاهر الحياة الجميلة.

يمكن للإنسان أن يقول بشكل آخر؛ «عاشق الموت» ممل دوماً، أما «عاشق الحياة»، فهو لا يكون مملاً أبداً، وعاشق الموت لا يهم أبداً عما يتكلم، قد يكون ذلك غير مهم أبداً، لكن عاشق الحياة يكون فيما يتحدث عنه، نوعاً ما، حيوياً. قد يكون ما يقوله «عاشق الموت» حساساً وذكياً، لكنّه يبقى ميتاً، قد يكون في كل ما يتحدث عنه ذكياً وعقلانياً، لكنه يبقى مملاً. قد يتحدث أحدهم، أقل شهرة ومكانة، عن أمور بسيطة (تعود بنا ثانية إلى موضوعنا حول حديث التسلية) فلا تشعر بالملل، لأن الحياة تتكلم. إن ما يجذب للمشاركة هو الحياة وما هو حيّ. الإنسان يكون ممتعاً محباً بقدر ما هو حي ونشيط. إن صناعة التجميل تخاطب النساء، فيعتقدن أنهنّ يصبحن حبيبات للرجال جذابات لهم عندما يزينّ أنفسهنّ طبقاً لقواعد معينة أو تقليداً لموديلات جاهزة، وتنقاد الكثيرات لمثل ذلك، ولكن لسن ممن يعتددن بأنفسهن. ومن الحق أنه يوجد شيء وحيد يعتبر جذاباً: إنها الحيوية. يلاحظ الإنسان أن شخصين، عندما يتبادلان

المحبة والإعجاب والتجاذب، يكونان في حيوية أكثر من المعتاد. لكن التعاسة تأتي عندما يحققان رغبتهما، ويكون حلمهما قد أصبح حقيقة، فإذا بانجذابهما قد تراجع كثيراً. وفجأة يصبحان شيئاً آخر، وبعد بعض الوقت لا يعودان يحبان بعضهما. بل لا يكون باستطاعتهما معرفة لماذا أحبا بعضهما. وهكذا فالقرين أمس هو غير القرين الآن، لم يعد القرين جميلاً، لأنه لم يعد فيه ذاك الجمال الذي كان يملأ وجهه.

عند «عشاق الموت» لا يكون الوجه جميلاً أبداً. لأنه لم يكن حياً قط. وعند هتلر يمكنكم النظر في وجهه. لم يكن حراً وحيوياً ولا يستطيع الضحك. لقد روى [ألبرت سبير] كم كان هتلر مملاً بشكل لا يحتمل، عند وقت الغداء أو في الصباح. كان يخطب ويخطب ولا يشعر أبداً أن الجميع قد ملّوا، وهو نفسه كان مملاً، حيث أنه أحياناً ينام وهو يتحدث. هذه ميزة «عاشق الموت»: أنه غير حي.

لقد وصفت مفهومي «عاشق الموت» و«عاشق الحياة» من خلال تجاربي في عيادتي، ومن خلال تعريف العالم «فرويد» لعاملي الحياة والموت... ولمدة طويلة رفضت ـ كما فعل الكثيرون من المحلّلين ـ مفهوم أو تعريف عامل الموت، لأنه بالنسبة لي هو مجرد تخمين بدون أسس علمية تجريبية في المعالجة الطبية. لكنني ومن خلال تجاربي الطبية في العيادة اكتشفت الخبرة التي جعلتني أرى أن التشخيص الذي اعتمده «فرويد» قابل للمناقشة، لكن فرويد، كما هي العادة غالباً، قد توصل إلى ما هو مهم جداً: إن القوتين الأساسيتين في الإنسان هما قابليّة الرغبة في الحياة

وقابلية الرغبة في الموت والدّمار. لقد عبر «فرويد» عن ذلك ببلاغة إذ يقول: إن إله الحب والحياة (الأيروس) عند الإغريق، كان عنده الميل في توحيد وتكامل الجميع في الحياة للتفاهم والوحدة، أمّا إله الموت فكان إله الفرقة والتمزّق، كما كان بودي تسميته.

الفرق الأساسي عند «فرويد» بين ما هو «عاشق الموت» و«عاشق الحياة» يمكن تلخيصه في نقطتين، إحداهما أن فرويد يعتبر أنّ القوتين متوازيتان: رغبة الحياة ورغبة الموت ولهما نفس القوّة لدى الإنسان. أنا أقول: هذا غير صحيح، فمن ناحية نجد أن دواعي الحياة ـ وبالتالي وجهة النظر في إرادة استمرار الحياة ـ تجعل من العبث الاعتقاد أن الانتحار الذاتي يشكل جزءاً هاماً في حياة الإنسان، كما هو الأمر في الميل للحفاظ على الحياة والحاجة في استمرارها، وإذا انطلق إنسان من هذا المنطلق فإنّ الحفاظ على الحياة الذي يعتبر حيوياً، هو المبدأ الأهم فيها، ومن ناحية أخرى يمكن للمرء أن يوضح أن عامل الاندفاع للموت، كونه النتاج الطبيعي لفشل فن الحياة، هو ناتج لممارسة الحياة بشكل خاطئ. وهنا يمكن القول إن الإنسان الذي لا إمكانيّة له أن يكون حراً في أن يطور إمكانياته، الإنسان الذي يحاصر، الذي يعيش في مجتمع أو في طبقة من المجتمع يسير فيه كل شيء بشكل آلي، وكل شيء فيه غير حي، هذا الإنسان يفقد قدرته على تفجير إمكانيّاته. إن الطبقة الصّغيرة التي بنت لهتلر شعبيتّه كانت تتألف من أناس كانوا في ضيقٍ كبير في حياتهم الاجتماعية والاقتصاديّة،

ولم يكن عندهم أمل، لأن طبقتهم قد سقطت اقتصادياً نتيجة النموّ الكبير في ظل الرأسماليّة الحديثة. وقد تغنى بالنازية صغار التّجار الذين آلت إليهم كل بيوت البضائع التجاريّة، وكل واحد منهم صار له المكان الملائم، بالتالي فإن الاشتراكية النازية لم تعِق الرأسمالية الألمانية عن النمو، لكنها وضعت كثيراً من العثرات أمام تطوّرها.

يمكن للإنسان أن يرى هذه العلاقة بين الحياة الفاشلة و «عاشق الموت» لدى البعض ممّن أسرهم «ميّتة»، حيث أنهم خلال الطفولة لم يشعروا بنبض الحياة، كل شيء من حولهم بيروقراطي روتيني. كل شيء مُلْك خاص، وكل شيء منظم، كل شيء يتجدد ويثير انفعالات تلقائيّة، ينظر إليه من قبل الوالدين كشيء سيّء. لقد جاء الطفل بطبيعته ميّالاً ليكون نشطاً حيوياً، لقد أظهرت الدراسات النّفسيّة العصبيّة والعلوم النفسيّة [للمراجعة: فروم GAXII [1974] 1991h وكذلك فروم S214-220،1973.GAVII] أنّه في مثل هذه العائلات يجرد الطفل أكثر وأكثر من الجرأة، ثم يسير في طريق لعبت عليها ظاهرة الهروب من الحياة لعبتها الخطرة. وأخيراً يمكن القول: من لا يكن سعيداً في حياته، فسوف يثأر من نفسه، ويفضّل أن يخرّب الحياة، على أن يشعر أن حياته بلا معنى. إنه من النّاحية الفيزيولوجيّة حيّ يرزق، لكنه نفسيّاً ميّت. لذلك فإن رغبة التدمير، أي الموت، تظهر عنده جليّة، وكذلك المعاناة النفسيّة التي بالنتيجة تفضّل الفناء للجميع على أن تقبل أنّ الإنسان يولد ويعجز

عن أن يكون حيّاً، إنه شعور مرّ لأولئك الذين يعيشونه، وهذا ليس تخميناً نفترضه فقط، ومن أجل ذلك تتولد لدى واحدهم الرغبة للتخريب كردة فعل سريعة تفرض نفسها.

شولتس: هل ستقولون: إنّ ظاهرة «عشق الموت» تأخذ بالازدياد؟

فروم: أخشى أن أقول: نعم. إنها تزداد من خلال زيادة الاعتماد على استخدام الآلات. إننا نهرب إلى الأمام، أمام الحياة. إنه لمن الصّعب أن نوضح باختصار لماذا في المجتمع والحضارة الحالية يُستبدل الناس، والأحياء يُنبذون جانباً! وكما كنا توصلنا سابقاً من خلال أحاديثنا، فإن الإنسان يصير دوماً أقل ثقةً تجاه وجوده الشّخصي، وأنا عندما أتكلّم عن الوجود، أستخدم لذلك مفهوماً قد لعب في تاريخ الفلسفة دوراً هاماً. هنا لا يهمني المعنى الفلسفي لهذا المفهوم: ماذا يعني الوجود؟ بل يهمنّي مغزى وملامح تلك التجربة. ولنضربْ هنا مثلاً بسيطاً: إنها امرأة تأتي إلى المحلل النفسي وتبدأ معه هكذا: نعم، دكتور، عندي مشكلة: عندي حياة زوجية سعيدة، عندي طفلان، ولكن بنفس الوقت عندي مشاكل كبيرة. [يلاحظ في كل جملها أنها تستعمل كلمة عندي]، كل العالم بالنسبة لها نوع من التملّك «عندي». سابقاً كان المرء يقول: ـ (وأنا أعرف ذلك شخصياً من خلال معرفتي الشخصية باللغة الإنكليزية كما في اللغة الألمانية) ـ أشعر أني غير سعيد، أشعر أني غير راضٍ. أشعر أني قلق، أنا أحب زوجتي أو أعتقد أني أحبها أيضاً، لكن لا يقول: أنا أشك بذلك. هكذا يتكلم الإنسان حول الشيء، كما هو الشيء. هذا يعني أنه يتكلم حول تصرفه الشخصي

تماماً، وما يتحرك داخله من مشاعر، ولكن ليس عن شيء أو موضوع أو ملكية. إن أكثر ما يعبر الناس عنه هو ملكيّة أو ذاتيّة أو حاجة تخصهم، والتي هي بمعنى الملكية الشخصية، فيقول الشخص: «عندي» أو «لي» أو «ليس عندي»...الخ

شولتس: يستطيع المرء بمثل هذا الحماس أن يعطي للحياة قيمتها من أجل سلام الناس، ولكن إذا كان الناس حسب رأيكم لا يستطيعون أن يحققوا المستقبل الإنساني، لا باسم الشعب ولا باسم القوانين أو الحزب ولا باسم القوى المادية أو باسم الآلهة ولا بغير ذلك ممّا له وجود مادي آخر، فقد يستطيعون ذلك باسم الحياة، لأنّ هذا في تقديري، قد يحدث عندما تدعمون رغبتكم في الحياة بتحديد الشروط المناسبة، التي فيها تتفجر الحياة بما هو جيد يغلب الظروف السيئة السائدة، وسؤالي الآن: هل تستطيعون أن تفكروا بشروط صالحة تضمن أن تشيع الحب للحياة بين الناس؟ هل وفرت أفكاركم التصورات للأهميّة السياسية الحياتيّة؟ إنكم على اختلاف كبير مع الكثير من زملائكم المحلّلين السياسيّين والاجتماعيين، وأنتم كرجل سياسي لامع كبير مستقل، إن السياسة ليست بالضرورة سياسة الحزب الذي نعنيه، بل من الضروري أن يكون هناك سياقات متوازية، قد يكون من الممكن أن يهاجم المرء الحزب وهذا أفضل من أن يهاجمه الحزب. هل يمكن من فضلكم أن تضيفوا شيئاً حول الموضوع؟

فروم: بكل سرور. إذ إن ما ذكر أعلاه هو رغبة شخصيّة، وبشكل عام هو مشكلة هامة. عندكم كل الحق. في تلك السّنوات التي كان فيها المرء

ينتسب إلى أحد الأحزاب في أيّام الشّباب، لم أنتسب شخصيّاً لأي حزب. لعدّة سنوات وحسب كنت عضواً في الحزب الاشتراكي الأمريكي، حتى تحول ـ حسب رأيي ـ كثيراً نحو اليمين ولم يعد بعدها يمثّل الطموحات الكبرى التي كان قد وعد بها، لذلك لم أرغب باستمرار عضويتي فيه. إنني شخص أهتم كثيراً بالسياسة. ولكن لا يمكنني في السياسة أن أتعلق بالأوهام كونها لا تخدم طريقتي في الحياة. إن الكذب قد يخدم الحزب أو قد يكون أحد وسائله، لكن الحقيقة وحدها تقود في النتيجة إلى تحرير الإنسان. إن الكثير من الناس يتخوفون أمام الحرية ويفضلون الأوهام.

شولتس: هكذا يمكن أن يحدد النظرة. وأعني، في بعض النواحي ورغم بعض الاعتبارات، أن الحزبية السياسية قد تعني اللاسياسة، وأنا هنا لا أريد أن أقول شيئاً ضد الأحزاب ومدى ضرورتها، لكني أرى فقط في السياسة أنه عندما تكون السياسة سياسة الحزب، يتهددنا خطر ألا نكون سياسيين.

فروم: نعم، إذْ أن الأحزاب، وخاصة التقدمية منها، لم تعد موجودة كأحزاب، لأن الكثيرين من الساسة أصبحوا خارجها. لم يعد مسموحاً في السياسة أن يوجد أشخاص مهيئون سياسياً في المكان المناسب، أن يقولوا بحرية ماذا يفكرون وماذا يعلمون. لا يمكن بعد الآن الفصل بين ما هو خاص وما هو عام، ولا يمكن التفريق بين المعرفة عند الفرد والمعرفة عند المجتمع، كلاهما يلاقي الآخر، وهنا ـ حسب رأيي ـ يقع الخطأ عند فرويد وعند الكثير من المحللين النفسيين الذين قالوا: يستطيع المرء أن

يفصل بين الحالتين، ويمكن للمرء أن يكون له الرأي الخاص به. ولكن أن يكون المرء أعمى بما يخص محركات الأحداث لدى المجتمع، فهذا ما لا يستطيعه المرء، لا يستطيع المرء ذلك لأن الحقيقة واحدة لا تتجزأ. لا يستطيع المرء هنا أن يرى الحقيقة بينما تكون هناك مغيبة عنه، وهذا يعني أن البحث عن الحقيقة عبث. إن الإنسان يستطيع أن يرى نفسه فقط على صواب عندما يستطيع أن يرى صوابيّة الآخرين، أي عندما يتبصر المرء في ظروفهم الاجتماعية، وهذا يعني عندما يتطلع للآخر بعين متفحصة لما يجري حوله في العالم. إنه عطاء الحب. عندما يحب الإنسان الآخرين، فهو لا يستطيع تطبيق المعلومات والحب فقط على المصلحة الخاصة. هذا يقود إلى الخطأ. يجب أن يكون المرء سياسياً، إنساناً بمشاعر تتلاءم مع أخلاقه، مع وظيفته، مع إمكانياته الخاصة.

أريد أن أضيف، ما هو مهم: أنا أعتقد أن للعاقل المتبصر في الدرجة الأولى والثانية والثالثة فقط وظيفة واحدة هي البحث عن الحقيقة، بقدر ما يستطيع، وأن يقولها بصراحة. إن مهمة الإنسان العاقل المتبصر ليست في الدرجة الأولى أن يطرح برامج سياسية. هذا لا يمكن أن يحدد المهمة كما كنت قد حددتها سابقاً. لكنه أمام مهمة تحدّده في سلوكه أولا تحدّده: إنّه نشاطٌ لا اختيار فيه، سياسة اتباع وتبني الحقيقة بدون أي اعتبار للرّغبات الخاصّة أو لرغبات الآخرين.. عندما يكون المسؤولون في خدمة البرنامج الحزبي، وفي خدمة الأهداف السياسية (يمكن أن تكون هذه أيضاً جيّدة) يحدون من نشاطهم ويقصّرون في البحث عن الحقيقة وإظهارها، وبذلك

يكونون قد خانوا قضيتهم وتخلوا عن واجباتهم، وبالتالي يكونون قد خانوا أهم المعتقدات الحزبيّة التي تبنوها. أنا أعتقد تماماً أن التقدّم السّياسي يتعلق بمقدار ما نحن نعرف الحقيقة ونعمل على إظهارها، أو بمقدار ما تكون الأهداف واضحة، وبقدر ما نكون جريئين في التعبير عنها، وإلى أي مدى يتفهّم الناس ذلك.

هتلر ، من كان؟
وماذا يعني الكفاح ضد هذا الإنسان؟

شولتس: قضيّة المقاومات في العالم كلّه ستُعطى أهميّة أكثر. يوجد مناسبات كثيرة وأشكال كثيرة للمقاومة، كما يوجد حق المقاومة، وكذلك واجب المقاومة. لقد وضع غاندي من أجل المقاومة قائمة عريضة من الإمكانيات والتحشيدات الإستراتيجية، وقد تمّ تجريبها عمليّاً. بالنسبة لغاندي لم يكن هناك من شيء يجعله يشكّ بأن المقاومة ليست في المعرفة المطلقة بتكتيك المقاومة، إنها موقف يستند على القناعة التي تعني جميع أفراد الشّعب. كان عند «غاندي» أفراد من الشعب يتدرّبون على المقاومة، ومقارنةً مع الجنود يمكن وصفهم بأنهم مستعدون للتضحية في حياتهم: لكن شجاعة التضحية عندهم ليست من أجل الحرب، سلاحهم في هذا الكفاح هو التخلي عن السلاح. إن قيمة نظريّة الكفاح عند «غاندي» بدأنا مؤخراً نتفهمها، وبشكل بطيء. إنها مقاومة مبتكرة ومنظّمة بدقة حسب أخلاقيات «غاندي»، ولم يصادفها هتلر.

انطلاقاً من المقاومة ضد هتلر يجب أن يبدأ الخطاب. كانت المقاومة ضد هتلر قد بدأت ولكنها لم تعد لتنتهي، ولكي نحدد ماذا تعني المقاومة ضد هتلر، على الإنسان أن يعلم من كان هذا الرجل بالضبط؟ كيف كان يمكن له أن يشكل تلك السلطة الجهنّمية بتلك المقاييس العالية اللامحدودة؟

لينظر الإنسان في الكم الوافر من الدراسات حول هتلر، حيث يدهشنا أن أكثر الكتّاب لا يستغربونه. إن محاولاتهم في توضيح الأمر تذهب في الحقيقة أدراج الرياح. لكن ليسوا بالقلّة أولاء الذين توصلوا إلى التساؤل: لو كانت المقاومة ضد هتلر أكثر نشاطاً وأكثر تنظيماً وتوحداً، فهل كان حتماً سينجح؟

هل هذا صحيح؟ هل كان الإنسان حقّاً على وعيٍ حول، ضدّ من؟ أو ماذا كان لدى الإنسان كي يقاوم به؟ هل كانت المعارضة ممكنة بشكل من الأشكال ما دامت مادة ووسائل التفكير كانت مفقودة، وحيث أن تعقيدات الكيان وتأثير «هتلر» لم يكن من السّهل اختراقها؟ من المؤكد أن كثيرين من المناضلين قد عرفوا بالضبط من هو، وماذا يعني بالنسبة لهم. وهكذا فهم لم يتخذوا موقفاً موحداً كرجل واحد، لقد وقفوا كتلة مترهلّة تجاهه، لقد وجدوا أنفسهم على أرض خواء، هم لم يستطيعوا المقاومة بأنفسهم، وقد تبنّتهم ودعمتهم فئات عديدة من الشعب من أجل أن يفعلوا شيئاً (السّؤال: إلى أي مدى كانوا يريدون تأسيس قاعدة شعبيّة، دعوا الآن هذا خارج الاهتمام). وقد توجهّت الأنظار إليهم، كان الاضطراب يبدو عليهم من خلال المراقبة، كان الأمر متأخّراً جداً من جهة ومن جهة أخرى مبكراً جداً لكي يتوصلوا إلى أن إسقاط هتلر أصبح غير ذي أهمية، لكن هل كان الشعب ناضجاً فعلاً لأن يمارس السياسة بدون هتلر؟ هذه الآراء المشككة في الأوساط الشعبية الهامة لعبت دوراً فاعلاً جداً.

شولتس: يا سيد فروم، كنتم اتخذتم ـ بعكس الكثيرين من زملائكم ـ وبشكل مبكّر موقفا جديداً سياسيّاً ونفسيّاً ووجوديّاً. إن الفئات ـ النماذج

الأخرى ـ التي كنتم تريدونها من مواقعكم، كانت كما يبدو لي، بمثابة دعم، وكمصدر لأفكار، وكعرض لوجهات نظر ضروريّة من أجل تقييم هتلر واتخاذ موقف منه.

فروم: والآن، من هو هذا الرجل هتلر؟ هذا السؤال: من يكون؟ وما كان؟ إنه سؤال ـ كل إنسان مع اختلاف الرؤى، سؤال يخطر على بال كل إنسان: من يكون هذا؟ من أكون أنا؟ هل يمكن لأيّ كان أن يقول الكلمة الفصل في ذلك؟ هذا يصح على هتلر كما يصحّ على آخرين غيره، لأنّ عند الإنسان الكثير من الحوافز والدّوافع، والأحلام، والأهداف والنّوازع المعاكسة. إنه يوجد إلى جانب ما يعتقد أنها ثوابت في داخله ـ كل الأشياء الأخرى التي تتنازع مشاعره أحياناً وتفصّلها...الخ. وهكذا لا يأتي هذا الإنسان إلى جواب كامل ونهائي على السؤال: من كان؟ ومن يكون هذا؟ ومن أنا؟ إنه خطأ كبير من وجهة النظر هذه أن نسقط في نطاق نظريّة النسبيّة بما نعني. إننا لا نعرف شيئاً على الإطلاق: من يكون هذا الشخص، ومن أكون أنا؟ بطريقة مقاربة للحقيقة، ولنقل، بما يخدم كل الأهداف العمليّة، يمكن أن يعلم المرء بما فيه الكفاية، لكي يفهم، ما إذا كان هذا الشخص كاهناً أو فلاحاً. ومع هذا التحديد سوف أغامر وأقول بعض الأشياء عن هذا الرجل.

من خلال الاطّلاع على تاريخ حياته، يمكن للإنسان أن يقول إنه كان إنساناً عاش جل حياته بالأوهام، منذ أن كان طفلاً. كان عنده أحلام

كبيرة، لا تنسجم أبداً مع واقع حياته ولا تنسجم مع أوهامه. في كتابه «كفاحي» يتصوّر لو أنّ نزاعاً قام بينه وبين والده حول أن يصبح رسّاماً حسب رغبته، بينما كان والده يريد له أن يكون موظفاً حسب رغبته هو... وبالحقيقة لم يكن هذا هو الخلاف.

أن تكون رساماً من وجهة نظر هتلر، كما بالنسبة للكثيرين، لا يعني هذا إلا أن يحصل على رزق يعيش منه. أما بالنسبة للوالد، فسيان عنده أكان ولده رساماً أو كان موظفاً، المسألة هي أن يكون موظفاً ـ وكان ذلك أحب إليه ـ لأنه هو نفسه كان موظفاً، لكنه اكتشف شيئاً فشيئاً أنّ ولده ليس عنده أدنى استعداد لتحمل المسؤولية والتقيد بالنظام، وأنه لم يهيّئ نفسه لأن يكون فعالاً في الحياة، أو أن يسعى لبلوغ هدف معين. هكذا عاش هتلر مثل كثير من أتباعه النرجسيّين الطّائشين خيبات مريرة، بينما كانت تتزايد أحلامه الكبيرة، وصار الصّدْع الذي دخل فيه أصعب وأصعب، وفي هذا الصّدع كبرت الأحقاد والحسد والغيرة، إضافة إلى النمّو المتزايد في أوهامه وأحلامه الشّاذّة. وهكذا، بقدر ما كانت الأهداف التي حققها صغيرة كانت تكبر أحلامه في تحقيق الأوهام الكبيرة.

شولتس: هل كشف هذا «الحال عن نفسه» مبكراً؟

فروم: نعم، لقد تمّ الكشف عنه مبكّراً جداً. ذهب «هتلر» إلى فيينّا، لم يستطع اجتياز الامتحان في أكاديميّة الفنون، أراد بعد ذلك أن يدرس الهندسة المعماريّة. لكن كان عليه أن يكون حائزاً على الشهادة الثّانوية، لذا كان عليه أن يزور المدرسة لمدّة سنةٍ أخرى، لم يستطع الحصول على

الثانويّة، وهو لم يكن يرغب بذلك، وعوضاً عن ذلك، وخِفْيةً عن الجميع، حتى عن أقرب الأصدقاء، وبعد أنه أن رسب في الامتحان، ساح في شوارع فيينا، يرسم واجهات البيوت الجميلة فيها.

هكذا ـ كما فكر هو ـ يصير المرء مهندساً معمارياً، وأخيراً، وبدلاً من ذلك صار تاجراً صغيراً، إنه ـ إذا صحَ التعبير ـ فنّان تجاري، رسّام جوّال بالأجرة، قلّما رسم مناظر طبيعية، كان من النوع المتحذلق، تنقصه الخبرة، كان يبيع لوحاته بثمن بخس، كان دخله متواضعاً جداً.

بالنسبة لأفكاره الكبيرة كان هتلر بداخله فاشلا إلى أن جاءت الحرب العالمية الأولى. في هذه الحرب «استيقظ هتلر» حيث استطاع بشكل سريع أن يكسب الجنسية الألمانية ويلتحق بالجيش الألماني. بعدها لم يحتج إلى أن يعمل شيئاً بشكل مستقلَ. كان بالحقيقة جنديّاً شجاعاً جديراً بالثقة. لكن الضباط بدؤوا بالشكوى إلى رؤسائهم من (لعق جزمته). كان ذلك سلوكاً مميزاً له، خاصّاً به، ولم يتركْه، بالرغم من أنه لاحقاً، وقد أصبح صاحب السّلطة، صار في الوضع الذي يمكنه أن يجعل الجميع يلعقون جزمته، لم يكن هناك من أحد يعلوه سوى القضاء والقدر ـ ناموس الطبيعة الذي ينحنّي الجميع أمامه ـ إنه القدر ذاته.

هذه خاصة واحدة من خصائص «هتلر»، والأخرى هي النرجسيّة. ماذا تعني النرجسيّة؟ أنا أعني بها شيئاً يمكن لكلّ إنسان أن يلاحظه، قد يكون عند البعض بسيطاً، ولكنه رهيب حقاً. النرجسيّ شخص مميّز،

وبالنسبة له فإنّ ما يهمه شخصيّاً هو المهم فقط، وما يهم الآخرين سيّان. يهمه: رأيْه، جسمهُ، ملكهُ، تصّوره، مشاعرُه، كلّ شيء، كلّ شيء بالنّسبة له مبّرر. كل ما هو ليس له، ليس مهماً بقي أم زال، ولأنه مريض عقلياً، يمكن له أن يستمر كذلك إلى أن يصل إلى وضع لا يمكنه معه أن يلاحظ أو يدري، لا يمكنه أن يدرك ماذا يدور أمامه في الخارج. لقد كان هتلر وبقي نرجسيّاً طيلة حياته. لم يهتم طيلة حياته بأحد غير ذاته. كان دوماً عديم الإحساس بالآخرين، سيّان عنده أكان الأمر يتعلق بأمه أم يتعلق بأصدقائه، تهمه نفسه فقط، والحق أنه لم يكن له أصدقاء. لقد عاش كل حياته فظّاً، همّهُ نفسه فقط، ومخططاته ورغباته.

أهم خاصة «بهتلر» هي ما يسمى (نيكروفيليا) أي محبّة كل ما هو ميّت: محبّة الموتى، محبّة التّدمير، محبّة كل ما ليس حياً. إنها موضوع شائك جداً، وأنا لا أستطيع هنا توضيحها تماماً. لكن قد يكون من المفيد التعريف بها: يوجد أشخاص يمكن توصيفهم، كأن نقول: إنهم يحبون الحياة، ويوجد آخرون يمكن توصيفهم كأن نقول: إنهم يكرهون الحياة. من يحبون الحياة، يمكن تمييزهم عن غيرهم بسهولة. ليس لهم صفة مميزة غير الحب، لن تجد من يحببك بهم إلا ذاك الشخص الذي يحب، ليس لأنه يحب شيئاً ما، أو إنساناً ما، بل لأنه يحب الحياة. وعلى النقيض، قد نجد أشخاصاً ليسوا فقط لا يحبون الحياة، بل هم يكرهونها. هؤلاء ليسوا أحياء حقاً، فالأصح القول إنهم أخيراً وفي النتيجة أموات، إنهم يحبون الموت.

شولتس: هنا يفرض نفسه سؤال ملح، كيف يمكن أن يكون ذلك ممكناً، إذ لم يعد هناك من حماية أكثر من العزوف ومن الخجل ومن الكراهية الفطرية الغريزيّة ضد تأثير غريزة «هتلر» تلك: غريزة عشق الموت والفناء؟ ألا تستوجب هذه الحقائق بالضرورة ـ على الأقل داخليّاً ـ أن هذا المرض له وجوده المؤثر في فئات عديدة من الشعب؟ وبالتّأكيد هناك صلة وصل قويّة، أي تأثير متبادل، أو حتى لنقل تفاعل مؤثر متبادل، نشأ بين هتلر وأولئك الذين اتبّعوه ودعموه وكانوا تحت إمرته ويطيعون أوامره.

فروم: الجواب هنا متعدّد الأوجه. أولاً من ناحية أنّه فعلاً حدث تناغم كبير بين أخلاقه وأخلاق أتباعه المتعصّبين. عندما نقيّم الأشياء اجتماعيّاً ونفسيّاً، نجد أن الأساس يعود إلى أن جماعة النازيين المؤيّدين ينحدرون من الطبقة الاجتماعية الدنيا. أي من طبقة بلا آمال، والتي هي نفسها من النوع المتعشق للاضطهاد (الماسوشية) مثل فريق سباق الدراجات: الرؤوس للأعلى بظهور محنية وأرجل شغّالة، هؤلاء الناس، ليس أحب لنفوسهم ولا أمتع من أن تكون بيدهم القوّة فوق رقاب الآخرين وأن يعيثوا تهديماً بما ملكت أيديهم. النقطة الثّانية: بما أن هتلر كان ممثّلاً من الطراز الأوّل، فقد استطاع أن يخدع في أن أهدافه كانت الإنقاذ، إيجاد الحلول، إنعاش وسلامة ألمانيا، لقد فعل ذلك بطريقة مبهرة، وبحيث أن ملايين الناس صدقوه. وبكل بساطة لم يروا الحقيقة. لقد كانت له ملكة خارقة لتقديم استشارات وحلول، أما إذا تمّ تقييم اعتبار تأثيره بالآخرين شخصياً (تنويم مغناطيسي، تهييج العواطف... كما هي العادة) فإن «لهتلر» على ما يظهر تأثيراً على الآخرين الذين كان يتعاطف معهم

(على سبيل المثال: كثيراً ما كان يُروى أن له من قوة الشخصيّة ما يجعل الطّرف الآخر يسقط من النّظرة الأولى). كانت الآلية كالتالي: يسلمه الشخص نفسه ويقع تحت سلطته، يصدّقه الشخص. لقد صرح هو مرّة: يجب أن تقام الاجتماعات مساءً، يكون النّاس تعبين يستمعون إلى ما يقال وقلما يفكرون، بل يصدقون بسرعة ولا يبذلون مسعى في نقاش أو مقاومة ما كانوا يسمعونه. كل هذه العوامل ـ مجتمعة جعلت «لهتلر» أتباعاً كثيرين، كان قد خدعهم لأنه استطاع أن يأسرهم بأفكاره التدميرية. هناك كان الملايين الذين لم يتبصّروا ماذا كان للرّجل من أهداف، لقد تبعوه كما تتبع الفئران راعيها بدون أن تعلم إلى أين يقودها.

شولتس: إذن، من ناحية، فتنهم «هتلر». "كان واحداً أتى من فوق" لقد كان أيضاً الرجل القوي. كان هو الحل، بل المنقذ حسب وعده. من ناحية أخرى، يلوح لي، أنه قد صُنع من الأسفل، أو لنقل قد هيؤوه ليكون قمة التوّقع والفرص. إنني أحسب ـ كما خبرت ـ أن كل رجل قويّ هو ضعيف. كانت قوة هتلر ثمرة المحيط، كونه الممثل للكثيرين. أما المقاومة التي برهنت عن قوتها على الأرض، فهي على العكس من طبيعة أخرى، «هتلر» بالنسبة للمقاومة التي نعنيها هنا، لم يكن مطلقاً قادراً عليها. أو.... هل أنا مخطئ في رؤيتي للأمور؟ إنه لما يعنيني جداً تلك العلاقة بين «الزعيم» القائد والشعب المؤمن به.

فروم: يبدو لي أنّكم على صواب، كان «هتلر» قائداً. احتاج الجماهير لتشعره بالثّقة بنفسه، هو لم يكن ذاك الرّجل الذي يحتاج التصفيق كي يجد فكرة يدعو لها، كي يدعموه، إنّه يحتاج إلى تصفيق، يحتاج إلى

تشجيع، من أجل أن يشعر بثقة الآخرين به. شعوره بالقوّة أخذه من خلال ردّة الفعل من أولئك الذين تحدّث معهم. لقد ظهر هتلر في الدّوائر الصّغرى من أتباعه في الحزب القومي النّازي الاجتماعي من واحد وعشرين رجلاً في ميونخ، ومع هذه المجموعة بدأ. لقد كان واحداً من النازيّين، كأيّ واحد من النّرجسيّين، محقّقاً القياسات النموذجية، بحيث أن أية كلمة قالها كانت ترنّ في أذنيه وكأنّها رأس الحكمة وكلّ الحقيقة.

ولكن لكي يصدّق نفسه كان يحتاج إلى آخرين يصدّقونه، لو أنّه لم يوجد آخرون يصّدقونه، لم يكن ليصدق نفسه، وربما كان وصل حدود الجنون، لم تكن آراؤه حقاً نتيجة قناعات مبنيّة على الأخلاق والحكمة، لكنها رغبات غريزيّة مبنيّة على الشّعور بالعظمة، بالقوّة، كانت كما يقال بحاجة للتّصديق المقنع. لو جرّدنا هتلر من مظاهر التّصفيق له والنجاحات التي حققها، لبقي ذلك الرجل المشوّش العقل تقريباً. لكن أقول إنه كان مجنوناً، لم يكن مجنوناً لأنه حمى نفسه من أن يكون كذلك، وليسمح لي أن أقول وبدقة كاملة: من أجل ألا يصبح مجنوناً، كان يحصل على التصديق له من الآخرين، بأنّ أفكاره تمثّل عين الحقيقة، ذلك أنّ الملايين من الناس تتعلّق بهذه الأفكار. إنّ البرهان على الحقيقة كان في التصّفيق وليس في صميم الحقيقة. ماذا كانت الحقيقة؟ بالنسبة «لهتلر» كان ذلك سيّان. كان اهتمامه ـ كما كان الأمر بالنسبة لكل الديماغوجيّين (العظماء الموهومين) ـ فقط بما يعنيه التصفيق، لأن التّصفيق هو الذي يجعل الأوهام حقائق بالنسبة لهؤلاء.

شولتس: إنّ ما تفضّلتم به يكفي أن يكون استنتاجات دامغة بالمطلق لتقييم السياسة والسّياسيّين. لكنّني أخشى أن نكون فقط على بعد عدّة أميال من أكثرية سياسية قوية تقف أمام الانزلاق نحو اللّاعقلانيّة، وأمام هذا الانبطاح السياسي القوي أمام هتلر. لكن يا سيد فروم، ماذا لو رجعنا إلى سؤالنا الأساسيّ، وتنظيم المقاومة، ورفض الجماهير، والثّورة ضدّ هذا الرجل، الذي وصفته آنفاً؟

فروم: دعنا نقرأ سويّة هذه الكلمة: المقاومة، أي الموقف المعاكس، ومن مثيلاتها: الإرادة المقاومة، الاجتماع المقاوم، المشاعر المقاومة. من أجل القيام بذلك كلياً أو جزئياً، على المرء نفسه أن يكون أحد المقاومين. ليس من السّهل التغرير بالمقاوم والتأثير عليه، لكن ـ على العكس ـ هو قادر على الاحتجاج وعلى الرّفض، وعلى الغضب، وهي الشّروط المطلوبة. لذلك بقي في كل الأحوال أن يعرف المرء أنه أمام زعيم قويّ مثل «هتلر» وسياسته ذات الانتشار الواسع، والتي لا يمكن تجاوزها بطرح وجهات نظر بديلة، بدعوى أنها تؤمّن النمو والانتعاش للشعب الألماني. بل يجب أن تكون البدائل مدعمة بعناصر من منطلقات سياسيّة وأخلاقيّة وفلسفية ودينيّة، يمكن بها الدخول بمنافسة لسياسة هتلر.

كان هتلر يقول إنّه يريد الخير لألمانيا، من لا يريد ذلك؟ إنّه لم يقل أبداً إنّه يريد تحطيم ألمانيا واستعمار دول أخرى. كلّ ما كان يفعله كان لأسباب دفاعيّة عن ألمانيا، ومع هدف وحيد هو ازدهار ألمانيا... إذا أراد

المرء أن يرى ذلك في هذا الاتّجاه، فعليه أن يقول: إنّ ذلك صحيح، أو يقول: أعتبر ذاك غير صحيح. أما الطّريق لتحقيق ذلك فليس مهماً. ويبقى فقط السؤال الوحيد: هل الحسابات عقلانيّة صحيحة أم هي غير ذلك؟ هل يمكن تقييم الوسيلة أو لا يمكن؟ إذن يبقى السّؤال حول الحسابات السّليمة: كيف يحسب المرء الاقتصادي منها بطريقة عقلانية سليمة موثوقة؟

وإذا ما وجد المرء على العكس، أنّ كلّ ذلك لم يكن إلا العقلانية بمفهوم الوهم النفسي، وأن هذه الأسس العقلانيّة الظّاهرة غير حقيقيّة، فإن العقيدة الهتلرية تبدو للمرء هي التّعبير والنّتيجة للمصاب بمرض «عشق الموت» وبالسّادية الجنسيّة، كما وصفت لك سابقاً. هنا يسمح الإنسان لنفسه أن يرى خلف الصّياغات التي تبدو منطقيّة، فلا يسمع بأذنيه ماذا قال «القائد»، وبدلاً من ذلك يحدق في فمه وهو يتكلم، يحدق في الوجه وملامحه، ينظر في مجمل الجسم، يستكشفه، يستكشف أيّة أخلاق له! قد يكتشف أنه أحد «عشاق الموت»، عندئذٍ يرفض هذا القائد في كنه أعماقه، يثور ضدّه، ويرى أنه لا تربطه به أيّة صلة، ليس له عنده ما يعنيه أو يريده. ولا يمكن أن يكون صديقه، لأن الإنسان في داخله قُوى وإرادة خيّرة للحفاظ الحياة وعلى قيمة الفرد فيها وحرّيته وأخلاقه، بينما كل القوى عند «هتلر» هدفها التّحطيم، الدّمار، إطلاق النار، الخنق، التّضييق، السّيطرة والإذلال. علينا أن ننظر في خلفيّات الكلمات وقائلها،

من الذي يتكلّم، وعمّا يتكلّم؟ وماذا يتكلّم؟... وفيما هو أبعد من ذلك، يتوجّب أن نلاحظ أنّ المرء هنا كما هو في أماكن كثيرة وبمناسبات كثيرة، ليس فقط في مفهوم السياسة بل من منظور عالمي، وإذا أردت، من منظور ديني أيضاً. وبالنتيجة: كل إنسان متديّن في المفهوم العام، وبالتحديد له أهداف خلف وما بعد الحاجات الآنيّة التي تلتهمها الحياة، والتي تعطي للإنسان كشفاً روحياً وعواطف إنسانيّة، تقوده إلى أن يؤسّس شيئاً، أكثر من الأكل والممارسة الجنسية وغيرها من الرغبات. أغلب الأديان لم تعد لتعبّر عن نفسها فقط بأشكال معرفيّة محدّدة، بل أيضاً في مجال السيّاسة والاقتصاد، تفكيراً وتخطيطاً، حيث لا يرى المرء أنها أشكال دينيّة المنشأ والهدف. إن المرء ليتساءل: ماذا كانت الديانة الهتلريّة؟ والجواب: ديانة هتلر كانت ديانة «التأليه» للأنانية القومية، للإذلال، للاّمساواة، وللكراهية. كانت ديانة وثنيّة قوامها القوة والتدمير. لم تكن فقط ديانة وثنية ـ كانت الضدّ الغاشم للدّين المسيحي أو اليهودي وللمبادئ الأخلاقيّة الإنسانيّة. ويمكن التّعبير عن ذلك كالتّالي: بشكل ما يمكن أن تكون ديانة هتلر هي الدراوينيّة: إن الجيد هو ما يخدم العرقيّة. إنّ الإنسان ليس رسالة الله، ليس رمزاً للحب، إنما هو إنسان التطوّر. ولأولئك الذين لم يكونوا قلّة منذ داروين هو ذا الآن المجتمع الداروينّي والدّيانة الداروينية. إن الآلهة الجدد تمثل المبادئ الأساسية لهذا التحوّل، وداروين هو النبيّ الجديد لهذا الدّين، هذا هو الشيء الوحيد الذي اعتقد به هتلر، والذي

يقود ويخدم أسس التطوّر والقواعد الحيويّة له. وهذا الفكر لا يقتصر على هتلر، إذ نجد ذلك في كتابات «فون كونراد لورنس» حول العدوانية، وفيها نصوص حول الفلسفة الحاضنة لذلك الفكر العدوانيّ، حيث يجب على الإنسان أن يخدم مبادئ التطوّر. هذه الأفكار كان قد وضعها وطبعها عام 1941 بنجاح، وفيها دعم وامتدح وأقر مجموعة من المبادئ العلمية التي وضعها هتلر حول القواعد للصحّة العنصرية.

والآن يأتي السّؤال المهم: هل يمكننا أن نستشعر أنّ خلف الصّياغة السياسية، في الواقع، كيانات مادّية من منظور عالمي ـ ديني وفلسفي، تقول وتؤكد، مع توقّع مسبق، أنها تريد فقط الأحسن للعالم، معبّرة بذلك عن نماذج نفسيّة إنسانية خاصة؟ خذوا أشهر مثال في التاريخ: الثورة الفرنسيّة حول: الأخوّة والمساواة، والحريّة، نعم كانت كلها مطالب إنسانيّة، المطالب التي تحرّك المجتمعات البشريّة، والتي هي متجذرة في الطّبيعة الإنسانيّة حتى القاع، ومتغلغلة في كل وجودها، بل لها حسب افتراض علماء الأعصاب، حتى في أعماق بنية المخّ، جذورها القويّة. إن الحاجة للحرّية تعد شرطاً أساسيّاً من أجل سلامة النشاطات الفيزيولوجيّة للإنسان. وهذا كله ليس فقط من معطيات العمل السّياسي الثّوري للثّورة الفرنسية. هنا فعلت فعلها فلسفة الثّورة بإيضاح مبادئها، والتي كانت تملأ قلوب عدد هائل من أنصارها. كان ذلك مبنيّاً على أساس أنّ المقتضيّات التاريخية قد بلغت القمّة، حيث أصبحت المطالب الإنسانية حاجة مدركة يجب تلبيتها، أصبحت واضحة واجبة التنفيذ... كذلك كانت النازّية

الهتلرية ديناً، لكن مع أهداف معاكسة، والتي بسببها اتجهت الشعوب بعكسها.

شولتس: يستطيع المرء أن يوضّح ذلك مع التّذكير: كيف، أن كلاً من «مولتكي وفرايزلر» تقابلا في أثناء المحاكمة في محكمة الشعب وجهاً لوجه. قال مولتكي في كلمته الختامية بما معناه: إن الذي يجمع المسيحيّة والنازية معاً، وبنفس الوقت يفرقهما، هو الإنسان.

فروم: بالضبط. إن مولتكي عبّر ـ في لحظة موته ـ بجملة قصيرة، مما يلزمني لها هنا جمل كثيرة على أن أقولها لأعبر عما قاله بشكل دقيق جداً. إن ذلك هو بالضّبط ما يدور حوله الحديث.

شولتس: عند مولتكي نجد تعابير واضحة بشكل يثير الإعجاب في هذا الاتّجاه، وقد كانت خطّته هادئة وذكية دوماً، كما كان كان في مختلف مراحل حياته عملياً محنّكاً بخبرة عالية، وكان الإنسان محور اهتمامه في نشاطاته السّياسيّة.

كان مولتكي في تصوّراته الخاصة حول مشاريع تخصّ الشّعب متأثراً جداً بـ «أويفن روز نشتوك ـ هسي»، الذي كان يعني بخصوص التّثقيف الشّعبي أن السؤال في النهاية هو: من يكون ذاك؟ والسؤال الأهم: كيف كان هذا يفكر سياسياً؟ ولأي حزب ينتسب...الخ. في تلك الأيام لم يكن المرء يريد سماع ذلك، مثله اليوم، لأن ذلك كان من الخصوصيّة التي يجب المحافظة على سريتها. إن المقاومة ضدّ هتلر لم تكن فقط مجرد

بيانات وكلام، بل مقاومة الوجود ضدّ القدر، مثل هذه المقاومة لم تكن لتقتصر على بعض السّياسيّين الكبار الموظّفين، إنّها لدرجة ما مشكلة الجميع ـ هل توجد تحليلات وتحريات جماعيّة نفسيّة يمكن أن تغيّب مثل هذه الأمور أو تثبتها؟

فروم: ما هو الإنسان؟ ما هي أخلاقه؟ ليس الأمر مهماً حقاً فقط من النّاحيّة الخلقيّة والنفسيّة.. ولكن أيضاً ـ وبمقاييس كبيرة ـ ومميّزة من الناحية السياسية. ومن يرى غير ذلك فقد ألغى مفهوم السّياسة. كيف كانت غالبيّة الشعب محضّرة؟ هل كان الشعب الألماني أرضاً صالحة لزراعة ونمو البذرة الهتلرية فاستطاعت أن تنمو فيها؛ أم كانت جافّة وغير مهيّأة لهذا الأمر؟ حول ذلك يوجد فعلاً تحرّيات، والتي مع الأسف لم تنشر حتى الآن. هذه التحرّيات قام بها زملائي، وأنا معهم، عام 1931 في معهد فرانكفورت للدّراسات الاجتماعية.

في ذلك الحين وضعنا السّؤال التّالي أمامنا للدراسة: أيّة فرص كانت متوفّرة من أجل مقاومة فعالة ضدّ هتلر، بينما كان هو على مزيد من القوّة ويدعمه الشّعب؟ كم من المقاومة كان على الشّعب أن يجابهه فيها، وبخاصة من أولئك الذين، في اعتقادهم أنهم كانوا ضدّ «هتلر»، من طبقات العمال بأغلبيتهم ومن جزءٍ كبير من الموظّفين أيضاً؟ كنّا نرغب بهذا السؤال ـ ومن خلال تحليلات ـ أن نكتشف ـ ليس بخصوص «هتلر» ذاته ـ ولأول مرة: مفهوم الحكم، وكيف أخذ يميل بقواعده ورموزه نحو الانصياع

والانحناء، وبنفس الوقت نحو السيطرة، هذا يكمل ذاك، وأحدهما متعلّق بالآخر بشكل متوازن. وعلى العكس منه، كان ما يتعلق بالخلُق الثوريّ الديمقراطيّ الأصيل، ضد السيطرة والإذلال، ومن أجل المساواة واحترام إنسانيّة الناس وكل ما يخدم هذه المبادئ.

نحن ننطلق من الفكرة النظريّة التالّية: إن ما يفكر فيه الإنسان يعتبر هيناً من حيث يأتي أغلبه مصادفة ويتعلّق بالتّالي: أي العناوين التي يجب سماعها لحزب من الأحزاب ينتسب إليه المرء بحكم العرف والتقليد، أو بحكم نظام المجتمع، أو بفعل نظريّات إيديولوجية تصله؟ إن المرء يُفكر قليلاً أو كثيراً، كما يفعل الآخرون. وحيث هو المؤشّر إلى ميل الإنسان لكي يكون منسجماً مع الآخرين من أبناء شعبه، مما يؤشر أيضاً لعدم استقلاليته بالمطلق. إننا نعرّف ذلك الرأي بالرأي الذي يمكن أن يُغيَّر بسهولة إذا اقتضت الحاجة، وإذا كان يحقّ لي فسأقول: إنّها مساوئ تبيان الرأي وسؤال الآخرين عن رأيهم بخصوص أمر ما. الرّأي يتغيّر بتغيّر الظروف المحيطة. لا تستطيع أن تسأل شخصاً عن رأيه غداً في الموضوع ذاته، إذا، كان كلّ شيء قد تغيّر. إن هذا متعلق بالوضع السيّاسيّ بالدرجة الأولى، وليس بما يفكر هذا الشخص أو ذاك. المهم، كيف يعيش وكيف يتصرف، وهذا بالتّالي يتعلق بمُثله الأخلاقية. وإذ يسأل المرء في هذا الاتّجاه أو ذاك يكون الجواب بمفهوم جديد حسبما يعني السّؤال من جديد، وبالتّالي حسب القناعة الجديدة. القناعة هي رأي، وهي تتعلق بأخلاق الإنسان بما هو متجذّر فيه رأسه، القناعة تصدر عن الشخص بما

هو فيه، بينما الرأي يكون عمّا سمع به. لقد قلنا لأنفسنا: النّاس يقاومون بقدر توفر قناعاتهم، والتي هي ضد النظام الإرهابيّ، وليس فقط بسبب آراء عارضة. هذا يعني: فقط عندما لا يكون لديهم أخلاق السّلطة، سيقومون بالمقاومة والمعارضة بأشكالها المختلفة.

شولتس: إن صيغة السؤال الذي اعتمدتموه أساساً لتحريّاتكم قد فاجأني، في هذه الأيام التي تمثل فيها الرؤية الشّعبيّة الأغلبية العدديّة التي يصعب علي تصورها. لكن الأمر ليس فقط استكشاف الآراء، بل أيضاً البنية السّياسيّة التي لا تزال تعتمد الرأي بتوجهاتها أساساً لها، وهكذا يصبح السّؤال على هذا النحو خارج الاهتمام.

فروم: مع الأسف، ما تقولونه يَعتبر النّقص كبيراً في كل الاستقصاءات حول الموقف السّياسيّ، ولجميع الاهتمامات حول البنية السّياسيّة. إنّ الإنسان لا يأخذ في الحسبان العوامل الأخلاقية المميزة ولا العوامل الدينيّة التي لها عالميّاً تأثيرها. هناك مفهوم آخر رئيسي هو النظريّة الماركسية التّي فرضت نفسها كمفهوم كبير في عالم الاقتصاد وفي اهتمام الشّعوب. الماركسيون يؤكّدون باستمرار على الفارق في الهدف المميّز للسّياسة، وأنا أعتقد أنهم في مجمل ذلك على حق، ولكنْ ينقص الوصفة الماركسيّة شيء، هو أنها لا تدور حول الأهداف الاجتماعيّة الاقتصاديّة، بل حول: أية أوجاع وأيّة إمكانيّات إنسانية، ترتبط على التوازي مع العوامل الاجتماعيّة الاقتصاديّة، وكيف يمكن حلها؟ هذا يعني أن الإنسان لا

يسعى فقط وراء رغباته الاقتصادية، بل أيضاً وراء رغباته الداخليّة، عواطفه وآلامه وأهدافه التي لها تأثيرات إنسانية عميقة، والتي هي متجذّرة بعمق في كيان الإنسان. أنا أعتقد أن علينا مراعاة كلا العاملين: العامل الاقتصادي والعامل الإنساني ذوي الصّلة بالآمال والآلام الإنسانيّة، والمواءمة بينهما، لأنهما متضمنان في المفهوم الاجتماعي الأخلاقي للإنسان.

هنا تقوم الفجوة العميقة التي لم يستطع علم النّفس في العموم ردمها، وعلم الاقتصاد لا يزال يجد ذاته عاجزاً وفي موقع متخلّف، كأنّ معاناة الإنسان في السياسة عصية على الحل.

أرجو أن تسمحوا لي بالعودة إلى تجاربنا في فرانكفورت، فمحاولتنا تلك قدّمت الجواب على السؤال: ما هو التنظيم المدمّر الذي تمّ ترتيبه للطّبقة العاملة وللموظّفين؟ لقد أرسلنا استمارات أسئلة إلى ألفي شخص، وكل استمارة تحوي على مجموعة من الأسئلة بالتفصيل. وأتانا الجواب من ستمائة شخص. وهذا يعد نتيجة جيّدة لذاك الزّمان. استمارات الاستفتاء لم تكن تحوي أسئلة عاديّة كما هي العادة: أي: سؤال وجوابه يكون بـ«نعم» أو «لا» أو «جداً»... أو «قليلاً» أو «ولاشيء»... كلا، فالأجوبة على أسئلة النشرة أو أسئلة المقابلة يجب أن تكون بلسان الشّخص ذاته، ثم كنّا نقوم بتحليل الأجوبة، كما يجري عند الطبيب النفسي وعند المحلّل النفسي في جلسة أسئلة وأجوبة، قصد التحليل أو لدراسة المريض. ما هي بالضبط الدلالة اللاواعية في الجواب على كلام من يتحدث عن سابق تفكير

واعٍ ودقيق؟ سوف نرى عندما يريد المرء تحليل كل جواب بهذه الطريقة، أنه من عدة مئات من الأجوبة تتضح الصورة مركبة، وفيها ليس فقط ذاك الذي يفكر فيه الإنسان على وعي، بل معه جانب مما يحب أو مما يكره، مما يجذبه أو ينفّره، ما الذي سيطلبه أو ينكره أو يدينه؟

ولكي نعطي مثالاً على السؤال: هل يستجيب الإنسان بلا عقوبة جسميّة؟ أجاب أحدهم: نعم، هذا ممكن، وآخر أجاب: «كلا هذا غير ممكن». يمكن للمرء أن يتبنّى جوابين، بدون أن يكون هذا أو ذاك قد نمّ عن الخُلقُ. أما لو أن شخصاً يجيب: «نعم، لو أنهم قد حددوا حريّة الطفل وأن على الطفل نفسه أن يتعلّم ألا يخاف». فإننا نكون قد اتخذنا القرار من منطلق أخلاقي لسلوك من ليس عنده الإرادة المتسلطة... وبالعكس، لو أن شخصاً قد قال: «كلا، بما أن الطفل يجب أن يتعلم، فعليه أن يخاف أمام والديه وعليه أن يكون مطيعاً» فإن ذلك يُعتبر كإشارة إلى أن الإجابة من شخص ذي خلق تسلّطيّ. إن هذا يعني أنه من خلال سؤال واحد لا يمكن الوصول إلى مثل هذه النتائج، لكن بما أننا طرحنا استمارة تحتوي على مئات من الأسئلة، فقد نتج عن ذلك ما أدهشنا حقيقة. كم كانت متينة تلك الأجوبة على أسئلة النشرة! هكذا رأينا أنه بعد عشرة أسئلة كان يمكن تقريباً معرفة كيف ستكون أجوبة الأسئلة الأخرى.

لقد توصلنا ـ تقريباً ـ إلى هذه النتيجة: عشرة في المئة كان لهم شخصية تسلطية. وافترضنا أنهم بعد فترة قصيرة، قبل أو بعد وصول «هتلر»

للحكم، سيكونون نازّيين متحمّسين، بينما 15% كانوا ضد السيطرة، والذين يفترض نظرياً أنهم أناس لن يكونوا يوماً نازيّين، أما أن تكون عندهم الشجّاعة للتضحية بحريّاتهم أو أرواحهم، فذلك سؤال آخر، لكنّ سيكونون بالتأكيد رافضين للسياسة النّازية وللإيديولوجيّة النازّية. لكنّ النّسبة الكبيرة، وتمثل حوالي 75%، كانت لديهم خلفية مزيجة، كما تجد ذلك بين غالبية عامة الشّعب، الذين هم مع أو ضد الهيمنة، لكنهم خليط، وعنهم كنا نقول إنّهم ليسوا نازّيين متحّمسين ولن يكونوا مقاومين، لأنّ تكوينهم الخلقيّ لم يكن واضحاً كفاية. إنهم ببساطة يميلون مع الريح كيف تميل.

بالرغم من أنه لم يكن لدينا الرقم الحقيقي لعدد العمال الألمان ولا للموظّفين، كي يمكن أن نحدّد منهم النسبة في كل من الفئتين: من هم الذين يمتلكون في قلوبهم الميل للمقاومة ومن عندهم الميل إلى أن يكونوا على النّقيض نازيين، هؤلاء بنظري (وذوو الاختصاص يوافقونني الرّأي) هم الذين، استطعنا من خلال تجاربنا أن نصل تقريباً إلى حقيقة أمرهم. فقط عدد قليل نسبياً من العمّال الألمان التحقوا بالمعارضة، وقسم أقل عدداً أصبحوا من النازيين المتطرفين، لكن الغالبيّة العظمى من الألمان لم يكونوا مع هؤلاء، أو مع أولئك، وهكذا أخفقت المعارضة. هذا التوقّع الذي كنا حصلنا عليه نظرياً، كان بالطّبع ذا أهميّة عظيمة جدّاً، كان مؤشرّاً جليّاً إلى نشوء نظام سياسي جديد يدشن نجاح «هتلر». وهذا ما كان يمكن فعله في كل البلدان ولدى شعوبها. عندما تكون الرغبة لذلك متوفرة: ماذا يشعر

الناس إذن؟ وماذا يكونون (وليس فقط ماذا يفكرون وماذا يقولون)؟ عندما يستطيع المرء أن يميّز بدقّة بين الإقناع وإبداء الرأي، يستطيع أن يبرهن، وعلى أساس من الخبرة والإدراك والتجارب، على صحة الرأي.

شولتس: لقد قلتم إن نتائج تحليلاتكم لم تنشر حينها. لماذا لا؟

فروم: لم تنشر النتائج، لأن إدارة المعهد حينها لم ترد أن يُعرف عنها ذلك. أما لماذا؟ عندي بعض الأفكار، التي لو أوضحناها فقد تقود بعيداً.

شولتس: من الممكن أن يكون الخوف والحذر وراء ذلك، بحيث يجب على الإنسان أن يعتذر عنه، لأن معرفة ذلك لاحقاً قد تحمل مؤشرات ما.

فروم: في كل الأحوال ظلت الاختبارات مكتومة. وليس صحيحاً أيضاً الزعم، بأن التقارير حول تاريخ هذا المعهد أظهرت «أن التجارب لم تجرَ أبداً». إن التجارب قد أُجريت والوثائق موجودة.

شولتس: هل يوجد الآن مشاريع مشابهة؟

فروم: لا أعلم. لقد اتفقت أنا وزميلي «ميخائيل ماكوبي» على أن نجري شبيه تلك التجارب وبنفس الأسلوب في قرية مكسيكية صغيرة (حول العلامات الفارقة الخلقيّة في التحليل النفسي نظرياً وعملياً... الخلق الاجتماعي لقرية مكسيكيّة 1970)، إنها تجارب تنسحب ليس على السّلطة «واللا سلطة» بل على ميزات وملامح أخرى للخلق. لقد أجرى «ميخائيل ماكوبي» اختبارات على الاختلافات بين «محبّي الموت ومحبي الحياة» في طبقات اجتماعيّة مختلفة في أمريكا، والتي تمّ أيضاً اعتبارها

محترمة ومفيدة (1976 ـ 1988) فيما عدا ذلك، ولحد الآن، لم تجرَ تجارب متشابهة.

شولتس: كيف يمكن أن نتوصل إلى معارف إنسانيّة أساسية أفضل كيما نؤكد إن غالبية السياسيّين ليسوا مهتّمين بذلك؟ من أجل سياسة ديمقراطيّة، يخيّل إليّ أنّه لابدّ من أن تكون نظرتنا للإنسان ـ على مسرح الحياة ـ أكثر وضوحاً. إنّ التلفاز مثلاً يعطينا الفرصة إلى أن ننظر مباشرةً وبدقة في وجوه الساسة، وأن نراقب ملامح الوجه، وألاّ نصدّق فقط كلماتهم. علينا أن نتعلم بواطن الرّغبات خلف كل إعلان شفهي أو عملي... كيف؟

فروم: هذا هو السؤال المحوريّ، وبخاصة للدّيمقراطية. كيف يمكن الحفاظ على الديمقراطية وأن نحميها من الدّهماء (الدّيماغوجيّة)؟ على النّاس أنفسهم أن يعرفوا ويميزّوا كيف يمكنهم أن يحكموا حتّى يمكنهم أن يصدقوا ماذا تقول السّياسة، وهذا ما لا يمكن تحديده. هناك الكثير من الشكوك لدى الناخبين تجاه المرشحين، حول صدقهم وأكاذيبهم، الصدق، الاستقامة، أو ما يسمّى: ذوو الألسنة المزدوجة من المرشّحين ـ لدينا الكثير من الأمثلة في الولايات المتّحدة وكذلك في ألمانيا، لكن ذلك قد تحسّن قليلاً.

علينا أن نقول، إنّ الديمقراطيّة ـ إلى جانب عوامل كثيرة، لن أتعرض لها الآن ـ يمكن لها فقط أن تكون فعّالة عندما يتعلّم الناس أن يروا أنّ الميول والرّغبات الإنسانيّة تتمثل

في وجوه السياسيّين، والتي تمثّل أخلاقيّاتهم الفلسفيّة ومعتقداتهم الدينيّة بالتّوازي والتّفاعل. هذا يعني بالتالي أن على المرء أن ينسى بعض الشّيء. نعم على المرء أن ينسى. إن ما يقوله الإنسان مهمٌ، والأهمّ، أن يتعلّم أن ينظر إلى أيّ شخص على أنه إنسان قبل أي شيء آخر.

من اللاّفت للّنظر أننا في حياتنا العمليّة نجعل من هذا الشّرط المبدأ الأهمّ في حياتنا. عندما يتآلف أحد مع آخر ويتّخذ منه شريكاً أو صديقاً يحسن ألا يكون غبيّاً، بحيث أنه فقط يسمع ما الذي يقوله هذا الشخص عن نفسه، بل عليه أولاً أن يكون قد عرف صفاته الشّخصيّة. بقدر ما نكون أنانيّين في رغباتنا، نكون أكثر حذراً، وبالتالي يجب أن نقيّم الآخر بشكل أفضل. أما فيما يخص الأهداف الاجتماعية والسياسية، فعلينا ألاّ نعطيها هذا الاهتمام، حيث يكفي منها ما نجد فيه راحتنا، وحيث نجد شخصاً يتحدث إلينا بصراحة ويحب إسعادنا، ويجب أن نكافئه لأنّه فعل ذلك. كما أنّنا نرى فيه ذلك الإنسان (الحاذق)، إننا نستطيع أن نتعلم ذلك في مخبر الحياة، الذي هو عند كل إنسان مخبر تجاربه الشّخصية كل يوم، منذ أن كان طفلاً، صبيّاً، شاباً، أي إن المرء يرى كل شيء، وما عليه إلا أن يرى وأن يعي، عليه أن يلاحظ فقط ما يرى، ومن هنا عليه أن يقرأ ويستنتج، ولكن مع الأسف نجد أن علم النّفس الذي حقّق انتصاراتٍ كبرى، وخاصة في علم النّفس الأكاديميّ، بما له من علاقة بالسّياسة والمجتمع وبقي منبعاً لا ينضب من الأخلاقيات والعلم الخاصّ بها، والتي لها الأهميّة المحورية في السياسة، في الزواج، في الصّداقة وفي

التّربية. هذا العلم يلعب دوراً... نسبياً، بالرغم من أنه بغاية الأهمية للحياة أكثر من كل ما يشكل الأسس لعلوم النفس الأكاديميّة والتي لها أحياناً أهميتها النظرية الكبيرة جداً، لكنّها من جهة أخرى لا تقدم إلاّ القليل لمعالجة الأمور الحياتية العمليّة.

شولتس: أعتذر منكم، إنني الآن أحشر مهنتي في محادثاتنا (وأقدر ذلك بشكل فوق العادة) والسؤال: ألا يجب على الصّحفي ـ على أقل تقدير ـ أن يكون لديه بعض القدرة في الفلسفة الأخلاقية، حتى ولو لم يستطع بمفرده، من أجل أن يوجّه النّقد والملاحظات بشكل صريح واضح، بحيث يمكن للإنسان وبدون وهم أن يقيّم السّياسة وغيرها من المتغيرات والتطورات الجارية التي تعنينا؟ ألا يجب أن يكون في وضع يؤهله لذلك؟

فروم: عندك كلّ الحق، يجب أن نكون هكذا. لكن علينا ألا ننسى شيئاً واحداً، أنه من أجل استخدام الفلسفة الأخلاقيّة تلزم الشّجاعة. فمن أجل أن تقول: هذه القيادة السياسية أفكارها جيّدة ومفيدة لنا يظهر أن الأمر سهل. أما أن تقول: هذا الرجل مراوغ، سياسته توصل للدمار، أهدافه مختلفة تماماً عما يدعّيه، تخيلاته عبارة عن تخيلات كونيّة أو دينيّة غيبية، وتناقض كل ما هو واقعي، إذن ما نعتبره جيداً قد يحتاج الإفصاح عنه إلى شجاعة. لأن ما ذكرناه يعتبر تأكيدات ملموسة، لكن لا يستطيع المرء في الحال أن يبرهن على صحتها، ذلك أن العلاقات والأجواء المؤثرة متشابكة جداً، إضافة لذلك نحن نميل إلى ألا نعطي تأكيدات سلبيّة لما هو غير مؤكد أو غير معلوم ومثبت، إننا نعطي أحكاماً أو معلومات

حول مناسبات مفرحة بكلّ رغبة، لكن عندما تعتبر المعلومات شخصية فالناس يكونون حذرين، ولا يقولون شيئاً يُعتبر وكأنه حكم، حتى لا يكونوا في مواجهة الاتّهام بأن أحكامهم غير صحيحة، وهكذا فإن أية مناقشات لم يعد لها ما يبرّرها.

شولتس: سؤال أخير: حول كل ما دار الحديث حوله وأعيدت مناقشته، إذ خلصنا إلى ما يلي: المقاومة اسم لحركة متصاعدة مُميزة. ولأسباب عديدة، نصادف ـ من وجهة نظر سياسيّة اجتماعيّة سلبيّة كبيرة ـ رغبات معاكسة: القدرية، الشعور بالضّعف، الكثير من التوجّسات المختلفة، المغامرة، مسألة اتخاذ القرار، المسؤوليّة، تحمّل تبعات الذّنب. لكن للأسف ليس هنا المكان المناسب للبحث، لكنني أتمنى أن أسمع منكم بعض الجمل حول السؤال: متى وأين يجب أن تبدأ المقاومة بحيث تكون فعّالة قبل وقوع الجريمة؟

فروم: عندما تبدأ المقاومة بعد انتصار «هتلر» يعني هذا الخسارة والفشل قبل البدء. فمن أجل أن نقاوم، يجب أن يكون هناك جوهر العقيدة التي يؤمن بها المرء ويثق بنفسه، أن يفكر بعقل متبصّر، أن يكون مستقل الرأي والقرار. بكلمة واحدة أن يكون رجلاً وليس نعجة. لكي يصل المرء، لذلك عليه أن يتعلم فلسفة «الحياة والموت» وهذا يحتاج إلى كثير من الجهد، والتمرين، والصبر... وكل هذا يحتاج تعليماً لمن يستطيع أن يطّور نفسه ويتعلّم، وعنده المقدرة والاستعداد لكي يتعلم ما هو الجيد وما هو

الرديء له وللآخرين، وبكلمة أخرى ما هو جيد وما هو سيّء بالنسبة له كإنسان، وليس من أجل الملك والنصر والقوة.

إن تركيبة مخ الإنسان تمكّنه وبشكل مميّز من أن يضع أهدافه في مساراتها الصَحيحة وأن يضع رغباته في خدمة نفسه. من يمشي في هذا الطريق يتعلمْ كيف يقاوم، ليس فقط حكم الطغاة أمثال «هتلر»، بل أنواعاً أخرى من الطغاة الصغار، والمتزلفين، وعشاق النفوس والمحبين للاستغلال. إن المقاومة اليوم أصعب من ذي قبل. حيث أن هذه الأنظمة من الطغاة تولّدت من مختلف طبقات الشّعب، والتي أصبح فيها الإنسان شيئاً فشيئاً ليس أكثر من رقم في دولاب، عدد في معجم البيروقراطيّة ليس له حظ في صنع القرار، لا مسؤولية عليه يتحملها، وفي مجمل القول هو يعمل فقط ما تطلبه ماكينة البيروقراطية، وشيئاً فشيئاً يفكر بشكل مستقل أقل، يشعر أقل، يشكّل شخصه باستقلالية أقل. كل شيء يدور تفكيره حوله، ينبع فقط من حبّ الذات، وعليه أن يجيب عن السّؤال: كيف أخطو إلى الأمام؟ كيف لي أن أكسب أكثر؟ كيف لي أن أكون أكثر صحةً؟ ولكن ليس: ما هو الصحيح لي كإنسان؟ ما هو الصحيح لنا كسكان مدن؟ لقد كان ذلك معروفاً لدى قدماء اليونان، وفي العادة التقليدية، كما كان التفكير المثالي للإنسان، التفكير ليس كأداة من أجل سيطرة أكبر على الطبيعة، ولكن بالدرجة الأولى كواحدة من الأدوات التي تجيب على السؤال: ما هو الطريق الأفضل للحياة؟ ماذا يتطلب تطور الإنسان إلى ما هو أفضل؟

إن السلبية العامة: انعدام التعاون بين الإنسان والآخرين في الحياة الاجتماعية المشتركة، هي الأرضية التي تنمو الفاشية والحركات المشابهة عليها، والتي نجد لها ـ لاحقاً ـ الأسماء المناسبة.

حقيقة الرّسائل النبويّة

من هو بالحقيقة النَبيّ في مفهوم العهد القديم؟ هل هو المتنبّئ الذي يكشف عمّا يُخبّأ من الشر، أو من الخير، أو من بشائر السعادة؟ هل هو ابن ألكسندرا؟ هل هو ذلك الكاهن المختار الذي يرشد الآخرين أو حتى أحد الدجالين الملونين؟

كلاّ، إن الأنبياء ليسوا كهنةً أو وسطاء. هم لا يعكسون إرادة الإنسان، أو حياته، أو تاريخه من أجل إخراج جديد للحياة، هم ليسوا متنبئين، ولكنّهم يضعون القواعد للحياة، أو يمكن القول: إنهم النّاطقون بالحقيقة، وإن لم يكن بالمعنى الذي يقوله المرء بالطّريقة التقليدّية، الحقيقة عندهم هي أنّه على الإنسان أن يختار بين البدائل، كما هي متوفّرة، أي ليس الإنسان مسيّراً، عليه أن يحسم أمره بين الخيارات المتاحة أمامه. أيام الإنجيل ـ في ذلك الحين، حيث كان الأنبياء يتكلمون ـ كان البديل: إما الطاعة، والانقياد لسلطة الدولة، وللأرض، ولكل ما هو موقوف للآلهة، أو الحكم بتدمير البلد وتشتيت سكانه.

بين هذه الخيارات، على الشّعب أن يحسم أمره، حيث أن الأنبياء يكونون قد عرضوها. وهنا أرغب بأن أشدد على ما قاله الأنبياء عن البدائل المتوفرّة، بأنها لم تكن فقط ـ وكما يراد اليوم فهمه ـ معنويّة أو روحيّة، لكنّها، وفي أدق المعاني كانت، سياسيّة حقيقيّة. لقد رأى الأنبياء أن بلداً صغيراً من الشرق الأدنى أو في الشرق الأوسط، أضاع جوهره الرّوحي، أي

رسالته، وكما حدث لكل البلدان الصغيرة هناك، فإن هذا البلد الذي كان على الدّوام يجب أن يسقط ـ كما حدث لكل البلدان الصّغيرة التّي اختفت ـ لم يبق له غير الخيار الوحيد: بين أن يمحى أو أن يقلع عن عبادة الإله المعبود فيه، وقد كان الشّعب قادراً على اتّخاذ القرار والاختيار المناسب، وكان الأنبياء يريدون أن ينقذوا الشعبّ والبلد من ذاك الوهم الكبير المطبق عليه، فالخياران كانا أمام الإنسان في البلد الصغير حتى تستمر حياة هذا الشعب.

هناك مثال جيّد يفيد هنا، يتمثّل في موقف القاضي والنبيّ صاموئيل، عندما كان العبرانيّون يريدون ملِكاً لهم وقالوا: نحن نريد أن نكون مثل بقيّة الشعوب. أوضح صاموئيل الخيار: إمّا الحكم الاستبدادي أو الحرّيّة. نعم، هو الخيار بين بديلين، على الشعب أن يصلي لواحد منهما، والشّعب يريد أن يكون كبقيّة شعوب المنطقة، الشعب يريد أن يختار ملكاً. والإله قال: استمعوا إلى أصوات ضمائركم. لكنّه حذّرهم بصراحة وأوضح لهم كيف على الملك الذي يحكمهم أن يتصرّف.

إن هذا يقود إلى المهمّة التالية للنبي: الأنبياء منذرون، هم لا يرشدون فقط للبدائل، بل هم يحذّرون مما قد يقود إلى السّقوط. إنهم يكافحون ضد الخطأ، لكنّهم بعد أن يكونوا قد قاموا بواجباتهم من النّاحية التبصيريّة والإرشاديّة، يتركون للشعب حرّيّة التصّرف. المسؤوليّة تبقى على عاتق الإنسان الذي يصنع تاريخه بنفسه. يقوم الأنبياء هنا بمساعدة الناس

بطريقة يقوم فيها النبيّ بمحاولة إيضاح البدائل ويلفت النظر، ويحذّر الشّعب من ألاّ يقع الإنسان في الخطأ.

هذه المعضلة تتشكّل اليوم كما سابقاً، إذ أنّنا نقف أمام بديل ذي صفةٍ إنسانيةٍ أو بربريّة، لنظام تدميري شامل أو لنزع تسليح نووي شامل، وفي نظرنا يمكن أن يكون الواجب الديني في الدّعوة إلى البديل الجيّد ونقف إلى جانبه، كما نقف ضد البديل السيء، كونه خاطئاً. ولكن ما هي عقيدة الأنبياء؟ لقد أعلنوا عن عقيدة جديدة، وهي عبادة الإله الواحد الذي يدعو إلى الحق والعدالة. لكنّهم لم يتوقفوا فقط عند مسائل العقيدة، بل انشغلوا أيضاً بمسائل ممارسة الحياة مع السؤال: كيف لهذه النظم الرّوحيّة أن تتحقق؟ في كل الأحوال كانت مسألة العقيدة محورية بالنّسبة للأنبياء. وبالتحديد الإله الواحد الأحد. ولكن ماذا يعني هذا القول: الإله الواحد الأحد؟ هل يعني مشكلة في الرّياضيّات واحدة ضد كثير؟ إنها تعني أن هناك وحدة شاملة، وحدة أحاديّة، هي أساس كل الأشياء المتنوعة التي لا تحصى، وخلف كل الاختلافات لخصائصنا ولخلفيّاتنا ولدوافعنا.. الوحدة الأحاديّة للخالق هي المبدأ الأول المميِّز بين الرب الواحد والآلهة المزيفة، لكن هذه الوحدة الأحاديّة تصبح بلا معنى إذا لم تتمثل في فهم النبيّ، وإذا فكرنا مرة أخرى فإن الفعالية تكون هنا حاسمة، وهنا يتحقق أيضاً الفرق الكبير بين الإله الواحد الأحد والآلهة الوثنية المزيّفة. الآلهة المزيفة من صنع الأيدي البشرية. والإله أيضاً قد يصير إلهاً وثنياً عندما ينظر إليه وكأنه صنع أيادٍ بشريّة. أما الإله الرب فهو حيّ، ودوماً هو الإله الحيّ

بينما الآلهة الوثنية هي أشياء جامدة ـ إنها أشياء ميتة، وكما قال أحد الأنبياء يوماً: الآلهة الوثنيّة لها عيون ولكنّها لا ترى ولها آذان ولكنّها لا تسمع.

يعلم الأنبياء أن الابتهال إلى الآلهة يعني عبودية الإنسان. إنهم يلفتون النظر بسخريّة إلى أن خادم الإله يرى في الصّنم قطعة خشب، في نصفها الأوّل يوقد النّار، وعلى هذا النصف يصنع «معجنات» بينما يصنع على النصف الثاني صورة للإله ويتوجّه إليها ـ لهذه القطعة التي صنعها بيديه، وكأن هذا التمثال الذي صنعه أصبح أعظم منه ويتفّوق عليه، لكن يا ترى كيف للتمثال أن يتفّوق على الإنسان الذي صنعه؟ هذا الذي وضع فيه كلّ قواه، وحملها عليه؟ هكذا يجعل الإنسان من نفسه فقيراً ومن الإله غنيّاً وقويّاً مسيطراً! وكلّما كان ذلك الوثن قويّاً أكثر، كلما كان هو ضعيفاً بالمقارنة، وبالتّالي يطلب حماية هذا الإله، لذلك يتقرب من الإله الوثن، يتذلل له لكي يستعيد بعض ما أودعه فيه.

في لغة الفلسفة المعاصرة تعرف هذه الظاهرة بالعزلة. وهذه المفردة لها المغزى الذي لدى «ماركس وهيغل» وهو ما عنى بالنّسبة للأنبياء «خدمة الأوثان»: أي الخنوع للأشياء، إنها خسران الكرامة الداخلية للذّات، فقدان الحرّية... إننا نعتقد أن ليس لدينا آلهة وثنيّة، ولسنا لها سدَنة، لأننا لا نعتقد بالإله بعل ولا بالآلهة عشتار، لكننا ننسى بسرعة أن آلهتنا لها أسماء أخرى، لم تعد بعل ولا عشتار، إنها الملك والقوّة، والمنتجات

الماويّة، والاستهلاك المركز والشّهرة... وما إلى ذلك، التّي تقدم للإنسان والتي يصبح عبداً لها.

قد يكون الأهمّ هو ما في تاريخ بني البشر، وقبل أيّ شيء هو ما قالته الأنبياء، من أن كشف الذّات الآلهية في ذلك الزمان، والمتمثلة بآلام السيّد المسيح والذي يعد النبع الأعظم للإخصاب التاريخي للإنسان: إنها فكرة الرّحمة الإلهية لبني البشر، عن طريق التّضحية والآلام، وقبل كلّ شيء لتخليص الإنسان من خطاياه. إن آلام السيّد المسيح في عرف الأنبياء هي من أجل الخلاص من لعنة الربّ التي حلّت بالإنسان في الفردوس، هذه اللعنة بسبب انصياعه لغرائزه النفسية الضّعيفة وانصياعه لغرائزه الدنيّويّة والشّهوات المختلفة، وذلك ناجم عن جشعه في كسب المزيد والمزيد، تلك اللعنة توسّعت لتشمل الصراع بين الجنسين، المرأة والرّجل. ونحن الآن نأخذ الأمور وكأنّه مسلّم بها، وهي أنّ الرجال هم الجنس الأقوى المسيطر، إنما على المرء أن يتذكر أنه في التاريخ الإنجيلي، قد جعل الله سيطرة الرجال عقاباً، هذا يعني أن الرجل بسط سيطرته على المرأة قبل اللعنة، وعلى ذلك يوجد الكثير من الأمثلة التاريخية. والحق أنه في الحقيقة، وفي ما قبل العهود الأولى للتاريخ، كان الأمر هكذا.

ثم شملت اللعنة لاحقاً الخصوبة فيما بين الإنسان والطبيعة، وهي من جملة اللعنة للعمل، فالإنسان يشقى ليحصل على لقمة العيش، والعمل إذن ليس سعادة، إنما هو عقوبة. هذه الفكرة ظلت حتى يومنا هذا حقيقة

بالنّسبة للكثيرين. كذلك فإن اللّعنة نفسها التي لحقت بالإنسان بسبب الطبيعة، تمّ التعبير عنها في فكرة أن المرأة تتألم عند الولادة. إنّ عرق التّعب عند الرجل وآلام الولادة عند المرأة هما رمزان من أجلهما حقّت اللّعنة في الإنجيل على الإنسان من خلال تحقيره وعقابه. كل ذلك كما يقال، كان ظواهر، نعدها اليوم طبيعيّة ولكنها ليست معلومات صالحة. أما بالنسبة لمؤلف الإنجيل فهي لا شيء البتّة.

ماذا كانت فكرة آلام المسيح؟ إنها إقامة السّلام الذي هو أكثر من مفهوم اللاحرب، إنه حالة التفاؤل والانسجام بين الناس، بين الشعوب وبين الأجناس، بين الإنسان والطّبيعة، حيث، كما يقول الأنبياء، يبلغ الإنسان حالةً لا يخاف فيها نفسه. إن المرء لا ينسى بسهولة أنه جرّاء العدوان يخاف نفسه. وبسبب العدوان يطارده الخوف باستمرار ويلازمه الشكّ، ولا يؤمن بأي شيء جيّد. لنقل، إن العدوان يمكن له أن يختفي عندما يختفي الخوف. وهذا كله يعود إلى عهد آلام المسيح. لقد كان للأنبياء طاولة ملآنة، للمرة الأولى، للجميع، لجميع الذين سيأكلون والذين ـ كبشر ـ لهم كامل الحقّ، أن يجلسوا إليها. إن عصر الآلام ذاك كان يتميز بالنسبة للأنبياء كزمن لا يعيش فيه الناس فقط بسلام، متآلفين، بدون فتن في ما بينهم أو مع الطّبيعة، وبدون غريزة التملّك والأنانيّة، بل يعيشون في زمن تتحقق فيه أهدافهم التي ليست بالربح الضروري للحياة بمعناها الفيزيولوجي الطبيعي، وهذا يبقى دوماً موجوداً ولكنه قابل للحلّ. إن الأمر هو ـ كما يقول الأنبياء ـ المعرفة الكاملة بالله، كما هو بالنسبة لمن

ليسوا دينيّين عندما يقولون: إن الهدف هو أن يستطيع الإنسان استثمار قواه الروحية في تطوير حياته وعقله، أن يكون له في داخله وجودٌ مركزيٌ حرٌ، وبه يصبح سيداً متكاملاً، بحيث يكون إنساناً بكل معنى الإنسانية.

إن عهد الآلام تلك في شكل ما، هو العودة للعهد الفردوسي، ذلك العهد الذهبي الذي كان بداية التّاريخ المثالي، أو بالأحرى ـ إن شئنا ـ كان عهد ما قبل التاريخ. لقد ساد الانسجام الفردوسي، قبل أن تتواجد السّمات الشخصيّة المميزة لكل فرد عن الآخر؛ وقبل تبلور الميّزات والنّزوات الشخصية للفرد، حيث كان التآلف الكامل للشخصية الإنسانيّة الأولى، البدائية، وللوجود البدائي ما قبل التّاريخ، وعهد الآلام هو الرجوع لذلك التناغم، بعدما بلغ الإنسان من التطور ما بلغ.

مع عهد الآلام للمسيحيّة الأولى لم يكن التاريخ ليلاقي نهايته، ولكن بمفهوم ما قد يكون من الجائز أن يبدأ تاريخ الإنسان، وفيه يكون ذاك الذي يعيق الإنسان أن يكوّن ما يسمى إنساناً، قد تمّ تجاوزه.

لقد تكلمت عن الخصب الكبير جداً في تاريخ الإنسانية من خلال تأثيرات الآلام على التطوّر الإنساني، لدرجة لا يمكن معها تصوّر أية تأثيرات أخرى بهذا المستوى. وبدون أن نغرق في التفاصيل، وبدون إثارة أشياء ستكون مثار جدل، يمكن للمرء أن يقول: كما كانت المسيحيّة، كذلك هي الاشتراكيّة، كانت لدرجة عميقة جداً متأثّرة بفكرة آلام المسيح، على الرغم من أن كلاً منهما، وبطرق مختلفة، أعلنتا مناحي الاتفاق

والاختلاف، ولكن يظل الجوهر واحداً. أما الدخول في التفاصيل فهذا يأخذ البحث فيه وقتاً طويلاً.

إن فحوى رسالة الآلام هذه قد تواصلت، لكنها كانت باستمرار تتعرض للتدمير، كما تعرضت مراراً عن طريق الرشوة للخراب. على سبيل المثال: كما حدث في المسيحية، لكن الرسالة.. لم تمت، ففي المسيحية بقيت بذورها حية، ونرى ذلك يتجلى بمظاهر متعددة. وفي هذه الأيام، يصح ذلك على الاشتراكيّة. بالنّسبة للاشتراكيّة الإنسانيّة «ماركس»، فإنها قد تآكلت بسرعة وبشكل كامل في ظل نشوء دول اشتراكية عديدة. لكن البذور لم تجفّ تماماً، كما يمكن لنا أن نرى الوجه الآخر من الفكرة للآلام التي تمّ تمويهها بشكل جيّد، والتي نجدها في الماركسيّة الإنسانيّة، ولكن لا نجدها في الاشتراكية الديمقراطية أو في الاشتراكية الشيوعيّة؛ وعلى هذا المبدأ فإن البذرة تعود ثانيّة للنمّو والحياة كما هو الأمر عند عدد مُحدد من الناس. ويمكن أن نقول بثقة إنه لم يكن يسيراً أن نتصور أن التاريخ الحديث موجود لولا التأثير الهائل لفكرة الآلام، ومن الطبيعي أن يدرك المرء ذلك عندما يكون السؤال: كيف وأين استقرت فكرة الآلام؟ وكيف وأين فسدت وماتت؟ انطلاقاً من هذه المبادئ يمكن للإنسان أن يقول: الأنبياء هم في زماننا حقائق واقعية هامّة. هم حقائق واقعية ليس من هذا المنظور، إنهم كذلك أيضاً بسبب أن متغيراتنا ـ كما كنت ألمحت سابقاً ـ ومن حيث المبدأ: هي متغيرات متشابهة بشكل أو بآخر في زمن يسيطر فيه الأنبياء، وعلينا نحن أيضاً أن نرى المتغيّرات ونختار. وإذا أراد

الإنسان أن يفهم شيئاً من هذه الحقائق الواقعيّة، ينبغي عليه في كل الأحوال أن يُشغل نفسه ليس فقط بالتاريخ، بل أن يقرأ الأنبياء. إنهم بقدر ما يبعثون الرّاحة والاطمئنان في النفوس بقدر ما يسبّبون التّوتّر، وأنا أستسمح هنا، أن أقول: في أنّ لديهم أكثر وأكثر مما يمكن أن يقولوه حول دنيانا اليوم، أكثر مما نجده في تقارير الأخبار اليوميّة التي تدّعي الواقعية وتحتلّ مجرى الأحداث الرّاهنة، حتى وبدون أن تحقّق فيها أغلب الأحيان.

من هو الإنسان؟

إنّ صياغة السؤال: من يكون الإنسان حقيقةً، تقود إلى لب المشكلة. فلو كان شيئاً كان يتوجب أن يكون السؤال: ماذا يكون؟ لنعرفه، كما يمكن تعريف مادة في الطبيعة أو منتج صناعي. لكن الإنسان ليس شيئاً، ولا يمكن تعريفه كشيء. إن السؤال يفرض نفسه: من هو الإنسان؟

مع كل ذلك، ينظر للإنسان أحياناً كشيء فيقال عنه: إنه عامل، صانع، طبيب...الخ، وبهذا يكون قد تمّ وصفه حسب نشاطه الاجتماعي، فيكون تصنيفه هنا في المجتمع طبقاً لنشاطه الاجتماعي.

ليس الإنسان شيئاً، بل هو كائن حيّ دائم التّحول والتّطّور في كلّ مرحلةٍ من مراحل حياته، وفي كلّ مرحلة من حياته هو ليس نفسه الذي كان ويكون، وما هو محتمل أن يكون.

لا يمكن أن يوصف الإنسان مثل الطّاولة أو مثل الساعة، ولكنّه ليس أيضاً ما لا يمكن توصيفه. إنّ أهمّ وجهة نظر في توصيفه تكمن في أن الإنسان بتفكيره حول متطلبات حياته وتأمينها، يستطيع بلوغها. إن التفكير بالنّسبة له ـ ليس كما للكرسي: وسيلة من أجل الحصول على الحاجيات المرغوبة، بل هو وسيلة أيضاً لاكتشاف حقيقته الإنسانية واكتشاف المحيط من حوله، بغضّ النّظر عن الحبّ المسبق أو الكره. وبكلمات أخرى: الإنسان لا يملك فقط الذّكاء كالحيوان، لكنّه أيضاً يتمتّع بالعقل والبصيرة، ومهمّة العقل هي، إدراك الحقيقة. عندما يدع الإنسان العقل يقوده، يتصرّف عنه بقواه العقليّة والرّوحيّة كي يفعل الأفضل.

تبرهن التّجربة دائماً، أنّ أناساً كثيرين أعمتهم رغبات التملّك والغرور، يتصرّفون في حياتهم الخاصّة بغباء. والأسوأ من ذلك أن أمماً أيضاً تتصرّف بقليل من الحكمة، لأن المرّبين قد نسوا أنّ المواطنين يتأثّرون بهم، ويطبّقون إرشاداتهم لاحقاً، فهم لم يكونوا أمناء على دورهم. لقد سقطت أمم كثيرة، لأنها لم تكن قادرةً على أن تحرّر نفسها من اللاأخلاقيات التي تسيّرها، والتي صبغت طرق تعاملها مع الأمم الأخرى، وبالتّالي لم تكن البصيرة والحكمة تقودها. هنا يجيء دور الأنبياء في العهد القديم. هم لم يحدّدوا للناس شكل المستقبل ولا كيف يجب أن يكون، بل عليهم أن يأخذوا ذاك عن أنبيائهم الذين أرشدوا إلى الحقيقة وأشاروا بشكل غير مباشر إلى أن الظواهر المستقبلية هي تبعات التصرفات الحاليّة التي تمارسها الشعوب.

وبما أن الإنسان ليس شيئاً يصنّع كما يخطّط له من الخارج، فمعرفته فقط ممكنة من خلال معرفة شخصيته. إن السؤال: من هو الإنسان؟ يقود إلى سؤال آخر: «من أكون أنا؟». عندما نريد ألاّ نقع في الخطأ، ونتعامل مع الإنسان كشيء، يمكن عندها أن يكون الجواب على السّؤال: من أكون أنا؟..«أنا إنسان» وليس غير ذلك البتّة.

إن غالبية النّاس لم يعيشوا على الأرجح هذه الهويّة الذاتيّة. إنهم يفبركون صوراً مزّورة لأنفسهم، ولأخلاقهم، ولشخصياتهم. وبحسب المناسبات قد يجيبون: « أنا معلّم، أنا عامل، أنا طبيب...الخ. ولكن هذه المعلومات عن عمل الإنسان لا تفيدنا شيئاً عنه، ولا تجيب على السؤال: من هو؟ ««أو: من أكون أنا؟»

هنا تظهر مشكلة من جديد: كلّ إنسان يتّجه اجتماعيّاً، أخلاقيا، نفسيّاً...الخ باتّجاه محدّد. كيف ومتى أستطيع أن أعرف الاتجاه الذي اختطه هذا أو ذاك لنفسه، الاتجاه المحدد نهائياً؟ وهل بإمكانه عندما يريد - أن يغيّر أو يعدّل هذا الاتجاه، إذا صادف أن تقاطعت معه خبرات أخرى؟ إن هذا يعادل السؤال: في أية نقطة قد تم تحديد هوية الشّخص، بحيث يمكنه أن يجزم أنه هو هو وليس إنسان آخر مطلقاً؟ إحصائيّاً، يمكن أن يقول الكثير من الناس نفس الشّيء، كما أنّ كل واحد يقول ذلك عن الآخر حتّى يوم وفاته، والإنسان نفسه يقول ذلك، عندما يفكر أنه كان من الممكن أن يكون غير ذلك، لو أنّه كان سيعيش أكثر؟

يمكن للإنسان أيضاً - وبطريقة أخرى - أن يدرك ذاته، ويستطيع أن يقول: يتحدّد الشّخص من مكوّنين أساسيّن: الأحاسيس والدوافع، أحدهما له منشأ بيولوجي ويكاد يكون واحداً لدى الجميع، ويتضمن الأكل والشرب، الحماية، البنية الاجتماعيّة التي ينضوي فيها، وشروطاً أخرى أقلّ شأناً مثل الجنس، وضرورات أخرى ليست متجذرة بيولوجيّاً وليست واحدة بالنسبة لكل الناس، نذكر منها أيضاً: الحب، السعادة، التكافل، الحسد، الكراهية، الغيرة، المنافسة، حب التملّك....الخ.

فيما يخص الكراهية مثلاً، علينا أن نميز بين ما هو منها ناجم عن ردّة فعل، وما هو منها كامن في طبيعة الإنسان. إن الكراهية الناجمة عن ردة الفعل على اعتداء أو على التّهديد الصّادر عن إنسان أوعن مجموعة يحدث على إثرها الكراهية الباطني، ولهذه الكراهية بصمات أخلاقيّة أخرى، فالشخص الملآن بالحقد الباطني يبحث عما يثير هذه الكراهية التي تنفلت

من عقالها، وذلك بعد إثارة الحوافز في التعاملات التي تجعل الحقد يأخذ مجراه. وعلى العكس من الانفعالات ذات المنشأ البيولوجي فإن الانفعالات ذات المنشأ الاجتماعي مركبة من بنيات اجتماعية متجذرة في المجتمعات.

في مجتمع ما، تتكلم فيه أقليّة مستغلّة لأكثريّة ضعيفة، فقيرة، تكون كلٌّ من الفئتين محقونة بالكراهية. أن تسيطر الكراهية على الأكثرية المنهُوبة، فهذا أمر لا يحتاج إلى دليل. أما الأقليّة المستغِلّة فهي تكره الطبقة الفقيرة كردة فعل على احتمال قيامها بالثأر، هذا من ناحيةٍ، ومن ناحية ثانية لتخنق أنفاس الطّبقة ذات الأكثريّة. إن الكراهية لا يمكن أن تزول إذا لم تتحقق العدالة والمساواة، وطالما أنّ الحقيقة مغيّبة. والكذب مستمّر، وكلّ ذلك بما يجرح مبادئ العدالة والمساواة ويمنع من تحقيقهما.

لكنّ بعض النّاس يؤكّدون أن المبادئ العليا مثل العدالة والمساواة، نظريّة، وقد تطورت خلال التاريخ لكنها لم تصبح حتى الآن من القواعد الأساسيّة الطبيعيّة للإنسان. إن وجهة النظر هذه لا يمكن مناقشتها مفصّلاً والبرهان على عدم صحّتها، ولكن بما أن الناس في أعمق مشاعرهم عندهم الحس الصّادق بحقّهم، بالمساواة والعدالة، فإنهم يكونون بمنتهى الحساسيّة والعداء عندما تقوم مجموعة معادية وتنقض مبادئ المساواة والعدالة.

لا تعبر حساسيّة مشاعر الإنسان الأخلاقيّة عن نفسها بعمق المرارة والتأثّر كما في ردّة الفعل لدى الكثيرين من الناس تجاه مصادمات قليلة حصلت ضدّ المساواة والعدالة، إن المشاعر الخلقيّة تجد في شكوى مجموعة من المواطنين ضد عدّوهم صوتاً داعماً قويّاً. وعندما لا يوجد لدى الناس

مشاعر أخلاقيّة طبيعية طيبة، فلماذا يقف بعضهم ضد بعض، عندما ينذرهم المرء أولا ينذرهم بأن يتجنبوا العدائيّة، خاصة وأن أعداءهم الحقيقيّين يكونون من دبّروا لهم الفتنة؟

ثمة تعريف آخر للإنسان يقول: إنّه الكائن الحيّ، الذي قلما يكون التعامل معه أقل قدراً من الغريزة. وبالتأكيد يتواجد لدى الإنسان حوافز من أصول المشاعر الغريزيّة. على سبيل المثال: الجوع والغريزة الجنسية، ولكن فقط، عندما يكون استمرار الحياة للفرد أو للمجموعة مهدّداً، يترك الإنسان نفسه، إلى درجة عالية، تقوده الغرائز.

إن أكثر ما يقض مضاجع النّاس هو ما يحرك فيهم نوازع الشرّ مثل حبّ الثأر، الحسد، مشاعر الغيرة، الأنانية...الخ التي تنفجر في المجتمع وتخلق في المجتمع جماعات السّوء، قوّة هذه النوازع يتوجب أخذها بالحسبان من حيث أنّها يمكن أن تشتدَ وتصبح أقوى من غرائز حب البقاء. ويكون الناس عندها مستعدّين للتّضحية بحياتهم نتيجة الحقد وفي سبيل الحب والولاء.

إن أخطر أنواع الأحقاد البشريّة هو حب السيطرة، أن ترمي الخصم أرضاً وتحكم السيطرة عليه من أجل خدمة أغراضك الذاتيّة. لم تعرف مجتمعات العصر الحجري هذا النوع من المرض، أي أن يستغلَّ أحدٌ سواه لمصلحته الخاصة. لم تعرف هذا تلك العصور. إنه لمستغرب بشكل كبير ولا يصدقه عقل أنه في غابر الأزمان لم يكن هناك إنسان يرغب بابتزاز إنسانٍ آخر، ولا أحد يبتزه هو. لم تكن عندهم أبداً مظاهر المعاناة هذه. في حضارات العالم الزّراعي القديم كان عند المزارعين والصيّادين ما يكفيهم

لتأمين الحياة، وكان لا معنى أبداً لتجميع مستلزمات لا حاجة لها: "أغراض تتراكم فوق بعضها"، لأنّ الملكيات الخاصّة لم تكن تشكل يوم ذاك رأسمالاً ولا تصنع سيطرةً. هذه الحقائق نجد لها صورة في العهد القديم، أطفال بني إسرائيل وجدوا طعامهم في الصحراء من المن والسلوى. لقد كان منها الكثير، ويستطيع كل واحد أن يأكل ما يشاء، ولكن لم يكن ممكناً ادخار طعام المنّ، بل يجب استهلاكه بنفس اليوم وإلاّ يفسد ويختفي. إن التفكير بتخزين المن كان بلا معنى. المواد مثل الحبوب والآلات لا تختفي مثل طعام المن والسّلوى، لكن يمكن اختزانها وإعارتها واستخدامها كقوة من قبل مالكيها. وفي الوقت الذي بدأ فيه الرفاه ينمو ويزداد بشكل ملحوظ، صار من المفيد استخدام القوة للسيطرة على الآخرين، من أجل إجبارهم على خدمة ذوي السلطة والعمل لصالحهم، وذلك لقاء الحد الأدنى من الأجر من أجل تغطية تكاليف حياتهم بالحدود الدنيا.

بعد انتصار النظام الاستبدادي البطريركي ظهر العبيد، ثم العمّال ثم النساء ـ كمصادر رئيسية للابتزاز ـ في الوقت الذي لم يعد فيه الإنسان طعاماً لأخيه الإنسان الأقوى منه، أي عندما توقف عصر آكلي لحوم البشر، أي عندما انتهى عصر ما قبل التاريخ وابتدأ التاريخ الإنساني.

أمام هذا الانقلاب التّاريخّي الذي نعيه نحن بشكل جيد نتساءل الآن: كم كانت تلك العادات ـ عادات آكلي اللحوم ـ قاسية ومتوحشة، إن هذه المعرفة تبقى عديمة الجدوى، عندما لا تترافق مع الأسف والتّوبة، فالندم يظل قليلاً جداً على ما كان. إنّه ذو أثر كارثي: إن ذلك الإنسان من

جماعة آكلي لحوم البشر يثير اشمئزاز الإنسان نفسه أمام تلك الأفعال. الندم الكبير الحقيقي والخجل الملازم له، هما الخبرة الوحيدة للإنسان المعاصر، والتي يُرجى منها أن تمنع ذلك الإجرام الرّهيب من أن يعيد نفسه. وإذا ما فشلت هذه الخبرة، فالأمر يبدو وكأن ذلك الإجرام لم يقع يوماً. لكن أين نجد ذلك الأسف يا ترى؟ هل ندم الإسرائيليون على جرائمهم ضد الكنعانيين؟ هل ندم الأمريكان على جرائمهم ضد الهنود الحمر وإبادتهم لهم؟ قبل آلاف السنين عاش الإنسان في نظام لا يحتاج فيه المنتصر إلى أن يندم، لأنّ القوّة كان معناها الحق. إن الإجرام الذي مارسناه ضد الآخرين المعاصرين وضد أسلافنا، أكان ذلك حقيقة معلنة أو مسكوتاً عنها، يجب على كل إنسان أن يحتفظ بها في وجدانه بشكل جلي واضح. علينا أن نعترف بشكل علني صريح ـ حتّى ليجب القول أن تكون الاعترافات وكأنها شعائر دينية مقدسّة ـ أن الكنيسة الكاثوليكيّة في روما منحت طريقة العفو عن الذّنب المعترف به على كرسي الاعتراف في الكنيسة. لكن الاعتراف الإفراديّ ليس بذي قيمة لأنه فردي لا يشمل تلك الجرائم التي مارستها الجماعة، أو الطبقة أو الأمّة، والأكثر أهمية هو الإجرام الذي تمارسه الدّول والذي لا يقع تحت مفهوم الاعتراف بالذّنب. عندما لا ننضم نحن إلى جمعيّة الاعتراف بالذنب الدولية، يبقى النّاس مستمرين بالموقف التقليدي، وتبقى العداوة قائمة ضد أعدائنا، ونبقى مغمضي الأعين تجاه ما اقترفته شعوبنا. كيف يمكن للإنسان أن يبدأ وأن يتّبع نداء الضمّير، عندما يرى أن الأمم التي تدعي حماية الضمير، لا تتعامل بأي احترام تجاه ذلك؟ هذا فقط يعود إلى أن صوت الضمير لدى

كل مواطن يُجبر على السّكوت، ذلك أن الضّمير ـ مثله مثل الحقيقة ـ غير قابل للتجزئة.

إذا قُدّر للضمير الإنساني أن يعمل بصدق، فعليه ألا يخضع للرّغبات اللاّأخلاقيّة. إن العبقريّة تبقى عبقريّة حتى لو استخدمت لأغراض عدوانيّة. بينما العقل الواعي على العكس، لا يستخدم المعرفة إلا لخدمة الواقعية المطلوبة، كما هي، وكما تخدم الأغراض العادلة للناس والشعوب. هذا العقل المتبصر يعمل ضمن مبدأ وهدف تجاوز النّزوات اللاأخلاقية، هذا يعني: أن الإنسان يتصرف بإنسانية حقة طبقاً لمبدأ، وأن تصرفاته الإنسانية تابعة للرغبات الأخلاقية.

هنا نواجه السؤال الهام بخصوص الرغبات، والتي هي ضروريّة لاستمرار حياة البشريّة. إن العدوانية يمكن أن تقود إلى أنّ فئة تتغلب على فئة وتعيش على أنقاضها، ولكن الأمر يختلف عندما نرى الأمور من خلال نظرة تشمل شعوب العالم، أي البشريّة جمعاء. فإذا قُدّر للعدوانيّة أن تنتشر، بما يؤدي ليس فقط لهزيمة هذه الفئة أو تلك الأخرى فقط، لكن قد تؤدي بالنهاية إلى فناء الجنس البشري كله. سابقاً كان ذلك مجرّد توهّم، أما اليوم فالسؤال حول استمرار حياة البشر هام جداً، يفرض ذاته، ذلك أنّ وسائل دمار الوجود موجودة، واللعب على هذا الوتر قائم وخطير، وحبّ الحياة لدى الإنسان قد وصل إلى الحضيض. يمكن للإنسان اليوم أن يقول إن مبدأ استمرار الحياة للأقوى، وإن أطماع الدول الكبرى اللامحدودة، قد تؤدي إلى إفناء البشرية.

في القرن التاسع عشر قال «إيمرسون»: "الأشياء تجلس في السرج وتمتطي البشر". واليوم يمكن القول: «إن الأشياء هي الإله الزائف للإنسان، وإن عبادتها يمكن أن تقود الإنسان إلى الرماد».

كثيراً ما قيل إن الإنسان يمكن تطويره وتحضيره بلا حدود، وللنّظرة الأولى يخيل للمرء أن ذلك صحيحٌ، وباستجلاء التصرفات الإنسانية عبر الزمان نرى من البداية وحتى النهاية ـ عملياً ـ أنه لم يستجدّ شيء، إنّ الإنسان لم يستطع أن يفعل شيئاً وما فعل شيئاً. أما الافتراض بأن الإنسان يمكن قولبته، فيحتاج إلى تحديد. إن أي تصرف لا يجاري تطوّر الإنسان وخطواته نحو الكمال يتطلب ثمناً، إن النّاهب للثّروات عنده تخوف دائماً من الذين ينهبهم، والمجرم يخاف دوماً الإقصاء والعزل بسبب جريمته، حتّى لو لم يكن العزل في السجن، والمخرّب يخاف ضميره، ومن يبدد أمواله يكون شقيّاً ويخاف أن يستمر في وجوده كما يخاف حتى أن يحيا.

بداية، إن الإنسان يمكن تشكيله بلا حدود، وبالتّأكيد هو حيّ فيزيولوجيّاً، لكنّه من النّاحية الإنسانيّة قد يتشوّه، وعندها يكون تعيساً وتنقصه العادة، إنّه ملآن بالغضب وبالتّالي عنده، استعداد للتدمير، وإذا ما استطاع التحرر من هذه النوازع فقد يصح وترجع له سعادته. وبغضّ النظر عن الأمراض المتوارثة جينيّاً بالتحديد، فإن الإنسان يولد صحيحاً، لكن هذه الأمراض تتحكم فيه، وبعد تحكمها، تجعله يكره الحياة، وقد تحرمه من الضّحك والسّعادة. وإذ تشلّ هذه الأمراض الطفل تكون قد خلقت المناسبة للتصرف العدواني للشخص ويكون من نتائجها أنّ الطفل يتخلق بسلوكيات شاذة.

لماذا يريد إنسان أن يجعل من الآخر مشلولاً؟ إنّ الجواب على هذا السؤال يكمن في حقيقة أنّه لا يزال أكلة البشر موجودين في عصرنا. إن شخصاً تجتاحه الأمراض يمكن أن يُستغل أكثر من الشخص السليم. إنّ القويّ يمكن أن يرد الاعتداء عليه أما الضعيف فلا، إنه ضحية القويّ، وبقدر ما تقوم المجموعة المسيطرة باضطهاد وتعذيب الضحّايا، بقدر ما يكون النهب والسلب أسهل، وهذا يعني أن تصبح الفئة المهزومة لقمة سائغة لصالح الجهة الطاغية.

بما أن الإنسان موهوب بالعقل، فيمكن له أن يحلّل خبراته ويعرف ماذا ينفعه منها وماذا يضره في تطور حياته. إنه يسعى إلى أن يطوّر إمكاناته بصورة متناسقة تتفتح فيها مقدراته الذاتيّة وكل مقدراته الجسدية، من أجل أن يصل إلى تحسين كيانه كاملاً، ونقيض هذا التحسين هو أن يكون في تدهور الحال والنّشاطات المختلفة، كما كان «سبينوزا» قد أوضح سابقاً، بعدها تأتي السّعادة كنتيجة لاستخدام العقل. وتأتي التعاسة بسبب تدهور الحال كنتيجة لطريقة الحياة الخاطئة. وعندما يتهم العهد القديم الإسرائيليين بارتكاب الذنب الشنيع، حيث كانوا سابقاً تعساء، فهو يؤكّد على صحة هذا النظام بطريقة سليمة.

إن القيم الأساسيّة في المجتمع الصناعي تقف في صراع مع الوضع الجديد للإنسان. أيّة قيم أساسيّة تلك التي تتمثل في المجتمعات الصناعية؟

إن القيمة الأساسيّة الأولى هي السّيطرة على الطّبيعة. ونحن نسأل: ألم يسيطر مجتمع ما قبل المجتمع الصّناعّي على الطّبيعة؟ بكل تأكيد: نعم،

وإلاّ لعانت البشريّة من الجوع. إن السيطرة في المجتمع الصّناعي على الطّبيعة مختلفة عنها في المجتمعات الزراعية، هذا هو الواقع لأن المجتمع الصناعي يسيطر من خلال التّقنيات على الطبيعة. إنّ التقنيّة الصناعية تبني نفسها على أساس استخدام الإمكانيات العقلية من أجل صناعات أدوات الاستثمار. إنه البديل الرّجالي (الذكوري) لحضن الأنثى. في بداية التلمود ذُكر كيف أن العالم قد خلقه الله بكلمة واحدة، في حين أنّه في التعاليم البابلية القديمة ذُكر أن الأم الكبيرة قد ولدت العالم.

والقيمة الثانية الأساسية في النظام العالمي للمجتمع الصناعي هي استثمار البشر بالقوة أو بالأجور أو بطريقة متكاملة بينهما.

والقيمة الأساسية الثالثة تقول: إن التجارة يجب أن تجلب الأرباح. في المجتمع الصناعي ليس مسعى الرّبح هو العامل الأول في تحريك الرغبة الشخصيّة، لكنه المقياس الأوّل لصحّة النّشاط الاقتصادي. الإنسان لا ينتج من أجل تلبية الحاجة، من حيث أنّ أكثر الحاجات المصنعة لها قيم للاستخدام حقيقيّة أو لكي يمكن تسويقها، إنما يتم تصنيع هذه المنتجات من أجل تأمين ربح معيّن. هذا يعني أن عملي الاقتصادي يجب أن يؤمن لي في النهاية دخلاً أكبر من كلفة المنتج أو المال المدفوع لقاء تسويق البضاعة. هناك تفسير خاطئ واسع الانتشار مؤداه أن السعي في جني الأرباح ميّزة شخصيّة إنسانية للذين عندهم حب التملّك. مما لا جدال فيه أن ذلك وارد، لكنه ليس نموذجاً لفهم الربح في النظام الاقتصادي الحديث. إن الربح هو ببساطة مؤشر للحركة الاقتصاديّة الناجحة، وبالتالي مقياس للنّشاط التّجاري الملائم.

والقيمة الرابعة «التنافس»: هي علامة فارقة من الطّراز الأوّل في المجتمعات الصناعية. لقد أظهر التّطوّر الحضاري أنه بسبب زيادة المركزيّة والحجوم الضخمة للتعهّدات الأحادية ـ إضافة لذلك بسبب عدم الالتزام قانونيّاً بالأسعار المحددة في حينها ـ فإنّ المنافسة أكثر وأكثر تبعد بعض الشّركات الكبرى عن اتفاقاتها البينيّة، وأكثر ما نلحظه هذه الأيام هو اتحاد شركتين صغيرتين للتجارة أو التعهدات فيما بينها، أكثر مما يحدث فيما بين شركتين صناعيتين كبيرتين.

تفتقر مجمل تجارتنا الحالّية إلى علاقة واضحة قويّة فعّالة فيما بين البائع والشاري... في السّابق كان هناك علاقة بين التّاجر وزبونه. كان التّاجر يهتمُ بزبونه. وأما مسألة البيع فقد كانت أكثر من حركة نقود وبضاعة. كان التّاجر يجد سعادة عندما يبيع بضاعة تكون للزبون مفيدة وحسب الطلب. بالتأكيد يوجد اليوم ما يشبه ذلك، لكنه على الأغلب استثناء ومحدود، ويقتصر عادة على المحلات الصغيرة من الموضة القديمة. في المحلات التجارية الكبيرة يبتسم المستخدمون العاملون للزّبون، عندما يكون ذاك المحل باهظ الأسعار، ويؤخذ الزبون بنظرة إلى الداخل بلا مبالاة وكأن بضاعته رخيصة. لا حاجة للقول إن تلك الابتسامات ليست، صادقة وخلفها الأسعار العالية تُدفع، كما يريدها التاجر.

النقطة الخامسة: المشاركة بالألم: نلاحظ أن المقدرة على المشاركة بالمشاعر مع الطرف الآخر قد تراجعت كثيراً في هذا القرن، بينما كان يتوجب أن تزيد. إن قدرة المواساة قد اختفت. ولا أعني بالطبع أنّ الناس قد أصبحوا أقل مما كانوا، لكنهم مع ذلك أصبحوا حقاً أكثر غربة،

بحيث أصبحوا أقلّ معرفة بمعاناتهم. إنّهم كمن يعاني من مرض مزمن ويتقبلون وضعهم كما هو، يشعرون به عندما يزيد عما كانوا قد تعودوا عليه. يجب ألا ننسى أن هذا الألم هو المعاناة الوحيدة المشتركة بين النّاس والتي توحّد الجميع في الأسى، وعلى هذا الأساس فإنّ المصاب بهذا المرض هو من يتعرف على عالمية هذا الداء، ويكون بذلك كأن المأساة وحّدت فيما بين الناس كافّة.

يوجد أناس كثيرون لم يكونوا يوماً سعداء، ولكن لا يوجد أحدٌ لم يعانِ يوماً في حياته، حتى لو كان يعض على أسنانه ويكتم أنفاسه كي يخفي أحاسيسه... حيث لا يوجد الحب لا يوجد هذا الشعور المتبادل بين المتحابين، ما هو عكس الشعور المتبادل بالمحبة هو اللامبالاة. واللامبالاة تعتبر واحدة من الأمراض النفسية عند من يعاني منها. إن الحب بين الناس يوضّح بنفسه ماهيته كصلة وصل الإنسانية بين النّاس لا يمكن فصمها، ومن لا يحب إلا شخصاً واحداً فهو لا يحب أحداً.

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
إيضاحات	5
تواريخ هامة	9
مقدمة بقلم: هانزيزرغن شولتس	13
الوفرة الزائدة والخمول في مجتمعنا	23
ـ الإنسان السلبى	25
ـ الملل المعاصر	35
ـ الحاجيات المنتجة	46
ـ أزمة النظام البطريركى (العشائري)	55
ـ إخفاق الدين	65
ـ ضد تحديد النسل	74
حول مصادر العدوان	85
الحلم هو لغة الإنسان العالمى	119
علم النفس لغير علماء النفس	131
ـ علم النفس الحديث وما قبله	133
ـ المصطلحات الثلاثة عند "سيغموند فرويد"	143
ـ استمرار التطور للتحليل النفسى	156

باسم الحياة مقابلة تلفزيونية بين فروم وشولتس 167
هتلر من كان؟ وماذا يعنى الكفاح ضد هذا الإنسان 213
حقيقة الرسائل النبوية 243
من هو الإنسان؟ 255

يمكن للمرء أن يفهم بشكل تامّ الفرق في المهمّات والواجبات فيما بين علم النّفس الحديث وعلم النّفس ما قبل الحديث، عندما يرى مدى التغيير الذي حدث لثقافة ولأهداف المجتمع.

من المؤكد أنّ الناس، في اليونان القديم، أو في القرون الوسطى لم يكونوا أحسن حالاً ممّا نحن فيه اليوم، بل ربما كانوا، حتى «أسوأ» في أوضاعهم اليومية، لكن حياتهم كانت فعلاً خاضعة لفكرة محددة، هذا يعني أن الحياة لا تستحق أن تعاش، فقط من أجل تأمين رغيف الخبز اليومي، الحياة يجب أن يكون لها هدف أسمى. الحياة يجب أن تساعد على تفجير الطّاقات لدى الإنسان، ومن هذا المنطلق تكون رسالة علم النفس.

لكن الإنسان المعاصر يرى الأمر بشكل آخر، فهو ليس مهتماً كثيراً بأن يكون أفضل مما هو عليه الآن. بل هو مهتم بأن يملك أكثر: مركزاً أكبر، مالاً أكثر، قوة أكبر...

لقد بات الناس في أكثر البلدان تطوّراً في العالم وفي أكثرها غنىً، يشكّون بشكل أكبر، وتدريجيّاً، فيما إذا كان تحقيق تلك الأهداف يجعلهم فعلاً سعداء، لكن هذا ليس هو السؤال هنا.

9789933477585

دار الحوار للنشر والتوزيع
DAR ALHIWAR For Publishing & Distribution
دار الحوار